محمود شاهين

رواية

محارب الزمن

TIME WARRIOR

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

محارب الزمن

الكتـــــاب: محارب الزمن

المـــــؤلـــــف: محمود شاهين

تنسيق داخلي: سندس فخري

الطبعة الأولـى: يناير 2020

رقم الإيـــــداع: 2019/28390

978-977-992-077-1 :I . S . B . N

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع الحقوق محفوظة ©

عصير الكتب للنشر والتوزيع

محارب الزمن

محمود شاهين

مقدمة

- كيف هي القراءات لديك يا إد؟

- النبض طبيعي، ضغط الدم مستقر، كل شيء على ما يرام دكتور جايمس.

رغم كلمات مساعده إدوارد المطمئنة والتي تشير إلى أن كل شيء يسير حسب الخطة الموضوعة بالضبط ولكن دكتور جايمس كان في غاية القلق والتوتر في هذه اللحظات، كان يبدو من الخارج وكأنه قائد عسكري مهيب بوقفته المعتدلة وقامته الممشوقة على الرغم من سنوات عمره التي تعدت الستين، ولكن بداخله كان يغلي ألف بركان من التساؤلات والألغاز، هل سينجح فريقه بالفعل في مهمتهم التي يمكن أن تقلب العالم رأسًا على عقب في حال نجاحها، كان يمشي ببطء وهو ينظر لعدد من الشاشات والتي يراقب كل شاشة منها أحد أفراد فريقه العلمي، كان يريد التأكد من عدم وجود أخطاء ولو بسيطة خاصة في الجزء الأخير من المهمة التي ستهديه جائزة نوبل على طبق من فضة وتخلِّد اسمه للأبد وسط أعظم العقول البشرية قاطبة، عندما تأكد من أن كل شيء يسير حسب الخطة الموضوعة نظر مرة أخيرة نحو ذلك الشاب الممدد أمامهم على الفراش، بينما عشرات الأسلاك والخراطيم تخرج من كل منطقة في جسده، ثم قال بصوت عميق وببطء:

- حسنًا، الآن يمكننا إفاقته، تذكروا أن تلك المرحلة في غاية الدقة ولا تحتمل أي خطأ.

بدأ بعض أفراد الفريق الطبي التابع له بالتحلق حول ذلك الشاب الذي تم إدخاله في غيبوبة صناعية، كان كل فرد منهم يعلم جيدًا دوره ومهمته، أحدهم أخذ بحقن بعض المحاليل في جسد الشاب بينما آخر يتابع الشاشات التي تظهر علاماته الحيوية والتي تبدو مستقرة حتى الآن، بعد قليل أشار أحد الأطباء بأن كل شيء جاهز، كانوا ينتظرون الآن دكتور جايمس لتكليل مجهودهم بالنجاح، تنفَّس الأخير بعمق قبل أن يقترب بسبَّابته من أحد أزرار الحاسوب الموجود أمامه، ثم يقول:

- سنبدأ الآن مرحلة إنعاش الدماغ، بعد ثلاث، اثنين، واحد، ثم ضغط الزر، لم يحدث شيء خلال الثواني التالية، ظل الشاب كما هو بينما الجميع يحبسون أنفاسهم في قلق بالغ، وفجأة شهق الشاب بعنف وفتح عينيه بقوة ناظرًا حوله في عدم فهم لبضع ثواني، اقترب دكتور جايمس من الشاب بخطوات سريعة وهو يضع يده على كتف الشاب الذي نظر للطبيب بنظرة يملؤها التعب والإعياء قبل أن يقول وهو يحاول رسم ابتسامة على شفتيه المنهكتين:

- كنت هناك يا دكتور، لقد رأيت كل شيء كما قلتَ لي.

انطلقت صيحات مع تصفيق من الفريق الموجود بالقاعة التي امتلأت بالضجيج، ولكن الطبيب الأشيب اقترب أكثر من الشاب ليسأله بفضول وانفعال واضح:

- رأيت ماذا يا بني؟ ماذا رأيت هناك؟

أجابه الأخير ببطء:

- لقد كنت هناك في مبني المستشارية وهو يفعلها، رأيت لحظة انتحار هتلر بنفسي، لقد نجحنا يا دكتور.

ثم أضاف وهو يبتسم بلطف:

- لقد نجحت أنتَ يا سيدي، لقد فعلتها.

ترجَّل دكتور جايمس من سيارته أمام ذلك القصر المهيب لمالك شركة يور تكنولوجي التي يعمل بها، لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يأتي فيها إلى هنا، ولكنه هذه المرة كان متوترًا بحق، حفلة الليلة مقامة على شرفه هو وفريقه العلمي تكريمًا لما حققوه من إنجاز سوف يدفع الشركة لمصاف كبرى شركات التكنولوجيا، كان الجو ممطرًا إلى حد ما عندما وجد أمامه أحد العاملين يسرع نحوه ليقوم بركن سيارته بينما يقول للطبيب في وُدّ:

- مرحبًا بك يا دكتور، إن الجميع بانتظارك في الداخل يا سيدي.

لم يعلق الطبيب، فقط اكتفى بابتسامة قصيرة وهو يناول مفاتيح السيارة للعامل وينظر باتجاه القصر ويتنفس بعمق لمرة أخيرة، بينما زخَّات المطر الخفيفة تبلِّل معطفه الأسود، بدأ الطبيب بصعود السلالم المؤدية لباب القصر المفتوح وهو يمسك جيدًا بذلك الملف الذي أحضره لكي يريه للسيد إدوارد هاوارد مالك الشركة التي يعمل بها، بمجرد أن دخل من الباب وجد الكثير من العيون تنظر إليه بينما الكل يبتسم، لم يكن دكتور جايمس ممن يهوى الاجتماعيات، كان دائمًا ما يفضل المعمل والأبحاث عن أي شيء سواه؛ لذا بدأ يبتسم للجميع في توتر حاول أن يخفيه بينما عيناه تبحث عن السيد إدوارد الذي ما أن رأى دكتور جايمس حتى صاح بصوت مرتفع:

وأخيرًا، ها قد حضر نجم الحفل وصاحب جائزة نوبل القادمة في الطب، لو كان الأمر بيدي لأعطيته كل جوائز نوبل لهذا العام.

انطلقت ضحكات خفيفة من ضيوف الحفل ردًّا على دعابة السيد إدوارد الذي بمجرد أن وصل للطبيب حتى بدأت عدسات الكاميرات في التقاط عشرات الصور لهما سويًّا، بينما إدوارد يصافح جايمس بحرارة بيد ويحمل في اليد الأخرى كأسًا من الشمبانيا، ثم قال للحضور خاصةً الصحفيين:

- مع هذا الرجل سوف نكتب التاريخ سويًّا كما لم يُكْتَب من قبل، معًا سنعيد تعريف ماضينا لكي نبني مستقبلنا.

التهبت أيدي الحضور بالتصفيق الحاد بينما مال دكتور جايمس على أذن السيد إدوارد ليقول له أمرًا ما، أومأ الأخير برأسه إيجابًا واستأذن من الحضور بلطف، ما هي إلا لحظات وكان كلٌّ منهما في مكتب إدوارد الآن بعيدًا عن الحفل والصخب المصاحب له، جلس السيد هاوارد على مقعده الفخم ذو الجلد البني، ثم سأل الطبيب قائلًا:

- حسنًا جايمس، نحن وحدنا الآن كما طلبت، ما هو الأمر الأكثر أهمية من حفلتك التي أُقِيمت على شرفك أنت شخصيًّا يا عزيزي؟

بدأ الطبيب حديثه دون أن يجلس وقال:

- لقد تسرعت كثيرًا سيد هاوارد في الإعلان عن نتائج ما توصلنا إليه، ما زال أمامنا الكثير من العمل قبل الإفصاح عن نتائج البحث وكيفية استغلاله بالطريقة المثلى، لم نُجْرِ التجارب إلا على حالة واحدة فقط وذلك ليس كافيًا، أحتاج المزيد من الوقت والمال لشراء أجهزة جديدة ودراسة حالات أخرى قبل أن نعلن عن أي نتائج.

تحسَّس إدوارد شعره الأسود الناعم في هدوء قبل أن يرد على الطبيب قائلًا:

- في البداية لا أحب أن تطلق عليَّ السيد هاوارد، أخبرتك من قبل أنه يمكنك مناداتي إد عزيزي جايمس، ثانيًا لم يكن بالإمكان الانتظار على اكتشاف مثل هذا، لا يمكننا المخاطرة بتسرب نتائج الأبحاث لشركة منافسة لنا، حدوث مثل هذا التسرب سوف يكلفنا مليارات يا عزيزي، هل تفهمني؟ مليارات تخصنا وتخص شركتنا والمساهمين بها، لقد قضيت أكثر من سبع سنوات في هذا البحث، ولأُصْدُقَكَ القول كانت هناك ضغوط كل عام لكي أقوم بإيقاف البرنامج الخاص بك وتوفير الأموال الطائلة التي كان يستنزفها من خزينة الشركة وجيوب المساهمين، ولكن لثقتي بك وبعبقريتك لم أعِرْ كل ذلك أدنى اهتمام وتركتك تعمل كما تريد دون أي قيود مني، والآن بعد أن توصلت لتلك النتائج تريدني ألا أعلن ذلك لحملة الأسهم في شركتنا؟! ما توصلت إليه يا جايمس سوف يعيد اكتشاف العالم من جديد، لا يمكن لخبر مثل هذا أن يتم إخفاؤه.

قاطعه جايمس بعصبية قائلًا:

- ولكن حالة واحدة لا تكفي لإعلان النتائج النهائية للبحث، يجب أن تكون هناك حالات أخرى ومتطوعين أكثر لدراسة كل الجوانب المتعلقة بالأمر، الحالة التي أُجْرِيَت عليها التجربة حتى الآن نحن لا نعلم تأثير ما رآه هناك عليه على المدى القريب والبعيد، أو تأثير مثل تلك التجربة على طريقة تفكيره وعمل دماغه، لم يمر عليه إلا يومان فقط، أقولها لك مرة أخرى يا إد، نحن بحاجة لمزيد من الوقت والمتطوعين والمال لكي أقدم لك نتائج حاسمة، حينها - وحينها فقط - تستطيع أن تتباهى وتتبختر على باقي الشركات كما تريد بما توصلنا إليه.

صمت إدوارد لبعض الوقت، كان يفكر فيما يريده جايمس وفي نفس الوقت فيما يريده هو، ما هي إلا لحظات وعَلَتْ وجهه الذي يذكرك بنجوم أفلام الستينات ابتسامة عريضة، لم يفهم جايمس سبب تلك الابتسامة التي ظهرت فجأة على وجه إدوارد، ولكن بعد لحظات تحدث الأخير قائلًا:

- أنت تريد وقتًا ومالًا ومتطوعين وأنا أريد أن يتم إعلان نتائج ما توصلت إليه حتى لا تسرقه شركة أخرى منا، أظن أنني أعلم عزيزي جايمس حلًّا يرضينا جميعًا، حلًّا سيدرُّ المليارات على شركتنا وسوف يعطيك كل ما يلزمك من وقت ودراسة ومتطوعين ومال أيضًا، لا أعلم لماذا لم أفكر به من قبل، يا لي من أحمق!

حينها أخبره بالحل السحري لكل مشاكلهما، وقد كان بالفعل حلًّا عبقريًّا لأقصي الحدود.

ماذا تنتظر؟

كانت الساعة قد تخطَّت الرابعة صباحًا عندما نظر مانويل إلى ساعته، على الرغم من أنه لم يتبقَّ له الكثير حتي ينتهي من عمله إلا أنه زَفَرَ في حنق واضح، كان مانويل واقفًا أمام ذلك الملهى الليلي الفاخر في مدينة سان فيرناندو بالمكسيك، بينما يصل إلى مسامعه من الداخل الموسيقى الصاخبة التي تملأ المكان كما يملؤه السكارى والمدمنين الذين قَدِمُوا هنا من أجل بعض المخدرات والنشوة الزائفة، كان بيع المخدرات يتم بصورة علنية ودون خوف داخل الملهى، حتى الشرطة والجيش يعلمان أنهما لا يمكنهما اقتحام ملهى يملكه بابلو جارسيا أحد أكبر تجار المخدرات في المكسيك، ما بين المبالغ التي تُدفع لبعضهم وخوف البعض الآخر من بطش وانتقام السيد جارسيا كان العمل يجري على ما يرام في الداخل، وقف مانويل خارج الملهى بِبذلته السوداء اللامعة وساعته الذهبية وبِنْيته العضلية القوية يفتح الباب وعلى وجهه ابتسامة مفتعلة لكل مدمن جاء من أجل بعض المتعة ولكل عاهرة تعمل بالداخل لدى السيد جارسيا، أحيانًا كان يتم الاستعانة به لتأديب هذا أو ذاك، ولكن فيما عدا ذلك كانت وظيفة مربحة ومريحة على الرغم من كرهه لها، ولكنها على الأقل تؤمن مصروفات علاج ولده الوحيد أليخاندرو، أليهو الصغير الذي من أجله يفعل كل ما كرهه وبغضه في يوم من الأيام، الذي من أجله يعمل اليوم لدى نفس الأشخاص الذين أقسم يومًا على حماية بلاده ووطنه منهم عندما كان ضابطًا بالجيش، كان غارقًا في أفكاره الكئيبة عندما ناداه دييجو ذلك العملاق الأصلع ليخرجه مما هو فيه.

- مانويل، اذهب إلى الزقاق الخلفي حالًا، أحد الزبائن الأوغاد تقيأ هناك وأنت تعلم أن الزعيم يكره ذلك، اذهب الآن لتنظيف المكان بسرعة.

أومأ مانويل برأسه واتجه بخطوات متثاقلة للباب الخلفي للملهى لتنظيف المكان كما أمره رئيسه في العمل دييجو، لم تكن تلك من مهام مانويل ولكنهم هنا يستمتعون حقًّا بمحاولة إذلاله كلما جاءتهم الفرصة، لا يريدونه أن ينسى أنه يعمل لديهم الآن بعد أن كان يحاربهم يومًا ما، أحضر الدلو وملأه ببعض الماء والمنظفات وبدأ في التنظيف، لم يكن ليستطيع الاعتراض على أي شيء وإلا كان الطرد من نصيبه، وربما ما هو أسوأ إنْ حاول الحفاظ على كرامته في هذا المستنقع الكريه، كان قد انتهى من التنظيف عندما رنَّ جرس هاتفه، كان الوقت يقترب من الفجر وكان يعلم معنى ذلك الرنين في هذا الوقت المتأخر، التقط الهاتف باضطراب من جيبه ليجدها زوجته ماريا كما توقَّع.

- ماريا، هل كل شيء على ما يرام؟ اهدئي قليلًا يا حبيبتي حتى أفهم، ماذا؟ ماريا، اذهبي به الآن إلى المستشفى وأنا سألحق بكِ هناك حالًا.

انْطَلَقَ مانويل راكضًا حتى وصل لسيارته المتهالكة وأدار محركها في طريقه إلى مستشفى سان فيرناندو، لم يحاول حتى إخبار دييجو بذهابه إلى المستشفى الآن، في الفترة الأخيرة بدأت صحة صغيره في التدهور سريعًا دون أن يملك مانويل أي شيء لكي يستطيع إبعاد شبح الموت عن أليهو ولده الوحيد، كان يشعر بدقات قلبه الذي يقفز بين ضلوعه الآن خوفًا مما يمكن أن يحدث في اللحظات المقبلة، بعد نصف ساعة من القيادة الخطيرة والقلق والجزع استطاع بطريقة ما الوصول إلى المستشفى، قفز درجات السلالم وصولًا للطابق الخاص بمرضى السرطان ليجد زوجته واقفة أمامه تبكي في صمت بينما تتحدث مع طبيب ما، بمجرد أن رأت مانويل ارتمت ماريا بين ذراعيه وهي تصرخ:

- سوف نفقده يا مانويل، صغيري سيضيع مني، افعل شيئًا.

كان يحاول تهدئتها ومقاومة دموعه التي بدأت تنهمر منه في صمت، وجَّه نظره وسؤاله نحو الطبيب قائلًا:

- ماذا حدث يا دكتور، كيف يبدو أليهو؟ إنه بخير، أليس كذلك؟

لم يَرُدَّ الطبيب الشاب للحظات بَدَتْ كالدهر لمانويل، كان يشعر في أعماقه بأن هذه المرة تختلف عن المرات السابقة، بعد فترة تحدث الطبيب قائلًا:

- أنا آسف سيد جوميز ولكن النتائج غير مطمئنة، لقد أحضرت زوجتك ولدكما أليخاندو منذ ربع ساعة تقريبًا، ومنذ جاء ونحن نحاول الحفاظ على حالته مستقرة قدر الإمكان، لقد جاء ودرجة حرارته مرتفعة للغاية وينزف بغزارة كما اكتشفنا تضخمًا في الكبد، كل ما نستطيع فعله الآن له هو إعطاؤه المسكنات ونقل الدم له حتى تستقر حالته، ولكن لا مفر من عملية لزرع النخاع سيد جوميز، إما هذا وإما ...

لم يستطع الطبيب إكمال جملته، ولكن مانويل فهم ما لم يستطع الطبيب قوله، صمت قليلًا قبل أن يسأله بحزن:

- وتلك العملية، زرع النخاع التي تتحدث عنها، كم ستصل تكلفتها؟

- لا أستطيع تحديد رقم بالضبط ولكنها ستكون تقريبًا من مئة وخمسون ألف حتى مئتي ألف دولار أمريكي، هذا الرقم يشمل بقاءه في المستشفى لبضعة أشهر بمتابعة علاجه والتأكد من استقرار حالته، أعلم أن الرقم كبير للغاية بالنسبة إليك، ولكنه الحل الوحيد لصغيركما، لا تنسوا أنه مريض بسرطان الدم وكل يوم دون تلك العملية تسوء حالته أكثر من ذي قبل.

ثم همَّ الطبيب قائلًا:

- والآن اعذروني، أنا مضطر للانصراف.

انصرف الطبيب تاركًا الوالدين في حالة يُرْثَى لها، كانا يفقدان صغيرهما أمامهما دون أن يملكا أي شيء لمنع ذلك، نظرت ماريا لمانويل بعيون منتفخة من البكاء قائلة له:

- مانويل، لا بد أن تفعل أي شيء لإنقاذ أليهو، لن أفقد ابني يا مانويل، هل تسمعني؟ لن أفقده.

كان الأخير يسمع حديث زوجته ولكن نظره واهتمامه كان مع التلفاز الموجود أمامه بينما ذلك المذيع يقول بالإسبانية:

- ماذا تنتظر؟ لا تدع الملايين تفلت منك واتصل الآن، وكن جزءًا من التاريخ.

...

تطلع ليوناردو لفترة ليست بالقليلة عبر زجاج نافذته إلى نهر دارسينا قبل أن ينفث دخان سيجارته ليرتطم برفق بزجاج النافذة ويتلاشى ببطء، كان يشعر بأن حاله هو حال ذلك الدخان الأبيض، دائمًا ما ترتطم أحلامه بعائق ما يمنع أن تتحول لحقيقة، كان من المفترض أن يكون في قمة سعادته تلك الأيام، لقد انتقل حديثًا للعمل في العاصمة بيونس آيرس وتحديدًا في مبنى وزارة الدفاع الأرجنتينية، مبنى ليبرتادور كما يُطلَق عليه، كان من المفترض أن يكون سعيدًا بتلك الخطوة التي ساعده عليها والده، ربما كلمة أرغمه هي الكلمة الأفضل في حالة ليوناردو، خطوة من شأنها أن تساعده في الترقي سريعًا في السلك العسكري دون أن يضطر لمغادرة مكتبه، ولكنه كان حانقًا على والده بسبب ما فعله، لقد انتزعه من بلدته روزاريو التي عرفها طوال حياته، ولكن والده مارس هوايته المفضلة في سحق أحلام وآمال ليوناردو، انتزعه من كل ما كان له معنى في حياته وجرَّه جرًّا إلى بيونس آيرس من أجل العمل مع الجنرال سالجادو في مبنى وزارة الدفاع، حينها أخبره بأن ذلك هو الأفضل له ولعمله، ولكنه في قرارة نفسه كان يعلم أنه فعل ذلك فقط من أجل إثارة سخط والدته التي انفصلت عن والده منذ سنوات، لم تحتمل حياته العسكرية القاسية وهربت منه بابنهما ليو، وها هو الآن في ذلك المبنى الرمادي ذي القبة السوداء، منفِّذًا لأوامر والده ومتجاهلًا كل ما له معنى في حياته، بينما هو غارق في أحزانه دوَّت الطَّرَقَات الخفيفة على باب مكتبه، نظر خلفه ليرى مَنِ القادم ليجده أحد الضباط الذي أدى التحية العسكرية لليوناردو قبل أن يقول له بحزم:

- عذرًا سيدي الملازم، ولكن سيدي الجنرال سانتي في انتظارك بمكتبه حالًا.

أومأ ليوناردو برأسه وارتدى قبعته العسكرية وعَدَّل من ثيابه واتجه بخطوات متثاقلة إلى حيث مكتب الجنرال سانتي، طرق الباب عدة مرات قبل أن يأتي له الجواب من الداخل، فتح باب الغرفة ليجد الجنرال سانتي مع عدد من العسكريين حول المائدة منعكفين على خريطة أمامهم، أدى ليوناردو التحية العسكرية ووقف بثبات في انتظار أوامر الجنرال الذي أصدر عدد من التعليمات، قبل أن يأذن لمن معه بالانصراف، لم يتبقَّ سوى ليوناردو في الغرفة مع الجنرال الذي جلس على مكتبه وأمسك بسيجار ضخم بدأ في إشعاله بقداحته، وهو ينظر بطرف عينه نحو ليوناردو الذي لم يحرِّك ساكنًا، فقط ظل كما هو في انتظار الجنرال أن يتحدث، وأخيرًا بدأ الأخير بالتحدث قائلًا:

- أتمنى أن تعلم حجم الفرصة التي إقتنصتها بوجودك في هذا المكان، كل ضابط بالجيش يتمنى أن يكون في موقعك هنا وتحت إمرة جنرال مثل جنرال سالجادو، لن أُفَاجَأَ إذا رأيتك بعد عدة سنوات قليلة في موقع ممتاز، يجب أن تكون شاكرًا للفرصة التي منحتك إياها.

كان صوت ليوناردو منخفضًا حينما أجاب:

- أعلم ذلك يا سيدي، ولكنني لم أشتكِ من وجودي في روزاريو، لقد كنت على ما يرام هناك وكنت أؤدي واجبي نحو وطني هناك كما أؤديه هنا.

نهض الجنرال واتجه بخطوات سريعة غاضبة نحو ليوناردو حتى شعر الأخير بأنه موشك على لَكْمِهِ في وجهه حين قال له:

- هل جُنِنْتَ؟ هل كنت تريدني أن أترك ولدي الوحيد مع والدته المعتوهة التي لا تفقه إلا في إنفاق المال والاحتفال فحسب؟ ألا ترى ما جعلتك إياه؟ كنت تريد أن تظل فتى والدتك المدلل بعد أن أصبحت شابًّا وضابطًا في الجيش؟ لا، لن أترك ابن الجنرال جابرييل سانتي لعبة في يد والدته القذرة، لقد كنتَ عارًا عليَّ وعلى عائلتك من قبل ولكن ليس بعد الآن، لقد كانت عائلتي وعائلتك أعضاءً في السلك العسكري لأكثر من قرنين من الزمان، قرنين نحمي التراب الأرجنتيني ولن تكون أنت استثناءً لتلك القاعدة، سوف تصبح رجلًا سواء رغبت بذلك أم لم ترغب، انظر إلى نفسك في المرآة، هل تُطْلِقُ على ما تراه رجلًا بتلك الملامح الرقيقة الأنثوية وشعرك الناعم المنسدل؟ لا، أنا أطلق عليه فتاة ترتدي زيًّا عسكريًّا، لن تصبح رجلًا في نظري حتى أرى أنك تستحق تلك الصفة، انس أمر روزاريو وكل ما فيها؛ لأنك لن تراها مرة أخرى طالما أنا على قيد الحياة، هنا حياتك الآن وهنا سيبدأ مستقبلك الذي رسمته لك، أنت ابني وسأفعل كل ما يلزم حتى لا تكون وصمة عار على جبين عائلة سانتي، الآن اغْرُبْ عن وجهي.

خرج ليوناردو بعد تلك الكلمات من المكتب وتنفَّسَ الصُّعَدَاء وكأنه كان عاجزًا عن التنفس في الداخل، كان يقاوم رغبة عاتية في البكاء، الصراخ، أي شيء يجعله يُخْرِجُ ما بداخله من غضب ويأس وحزن، لاحَظَ الضابط الذي يعمل مع والده شحوب ليوناردو فتوجَّه له بالسؤال بينما يمسك جريدة بين يديه قائلًا:

- سيدي، هل أنت بخير؟

أومأ له ليوناردو برأسه ولكنه كان بالفعل عاجزًا عن التنفس، كان يتمنى لو يستطيع الصراخ في وجه أبيه والاعتراض على تدميره لحياته لا لشيء إلا للانتقام من والدته التي حرمها من ابنها الوحيد، نهض الضابط من مقعده وقال لليوناردو في رفق:

- يمكنك الجلوس قليلًا يا سيدي، سوف أذهب لإحضار بعض الماء البارد لك حتى تهدأ قليلًا.

خرج الضابط الشاب من الغرفة بعد أن وضع الجريدة التي كان يقرأ فيها على المكتب أمام ليوناردو الذي حانت منه التفاتة نحو الجريدة ليرى ذلك الإعلان الذي يحتل صفحة كاملة، والذي يقول بكلمات كبيرة واضحة وكأنها موجَّهة له هو شخصيًّا:

- ماذا تنتظر؟ إذا كنت مغامرًا وتبحث عن إثبات ذاتك وكتابة اسمك في تاريخ البشرية، شارك.

...

- هل هذا أفضل ما لديكم؟ جدتي المشلولة تستطيع السباحة أسرع منكم، هيا أَسْرِعوا.

نطقها توماس وهو يتابع تدريبات الضباط الجدد في حمام السباحة داخل قاعدة البحرية الملكية، كان يتابع التدريبات بينما يمسك بين يديه اللوحة التي يسجل عليها تقييمه لكل فرد على حِدَة، كان بجانبه صديقه جورج والذي يعمل معه في القاعدة، كانت فترة تدريبهم التي يُشْرِف عليها قد قاربت على النفاد ولم يصلوا بعدُ للمستوى الذي يريده منهم؛ لذا صاح فيهم مرة أخرى بغضب:

- إذا ظللتم على هذا المستوى المزري لن تكونوا جديرين بوجودكم في بحرية جلالته الملكية، هيا، أريدكم أن تبهروني لا أن تخذلوني.

همس جورج في أذن صديقه قائلًا:

- لا تَقْسُ عليهم لهذه الدرجة، إن مستواهم ليس بالسيئ.

- جورج، إذا شعروا أنني مقتنع بما يقدمونه لي فلن يعطوني المزيد، يجب أن تدفعهم بالقوة ليكونوا ضباطًا أكفاء ويعطونك أفضل ما لديهم.

بعد عدة ساعات من التدريبات الشاقة والمرهقة وقفوا صفًّا واحدًا أمام كلٍّ من توماس قائدهم المباشر وضابطه المساعد جورج، كان المتدربين في قمة تعبهم وإرهاقهم ولكنهم لا يملكون الاعتراض، كانوا يعرفون شخصية توماس جيدًا خلال الفترة التي قام بتدريبهم فيها، لو شعر بأدنى درجة من الشكوى منهم كان سيذيقهم الأمرَّين حتى يعجزوا عن الحركة فعليًّا، ولكنه يبدو أنه اكتفى بما حققوه اليوم، بعد انصرافهم تنهَّد جورج تنهيدة ارتياح، ثم قال وعلى وجهه ابتسامة:

- حسنًا، حمدًا لله أنك اكتفيت لهذا اليوم، هيا، لنذهب إلى الحانة لنستريح قليلًا، المشروبات الليلة على حسابي.

لم تمر ساعة إلا وكان الصديقان في أحد الحانات الصاخبة في دين هيلدر والمزدحمة، كانت تلك الحانة هي المفضَّلة لرجال ونساء القاعدة البحرية الملكية، بعضهم كان يلعب البلياردو بينما يحتسي بعض الجعة، والبعض الآخر يرقص على أنغام الموسيقى الصاخبة، لكن توماس لم يكن في مزاج يسمح له بالاشتراك في أي من تلك الأنشطة، فقط اكتفى بالجلوس على البار واحتساء الجعة، بينما كان صديقه جورج يمزح بجواره مع أحد الزملاء في القاعدة، في الحقيقة كان يشعر بالضجر الشديد وكأنه في صحراء قاحلة وحده وليس في حانة صاخبة، كل ما يراه حوله الآن قد رآه ربما آلاف المرات من قبل، نفس الروتين اللعين كل يوم، تدريبات في الصباح وحانات بالمساء ربما يكون سعيد الحظ هذه الليلة ويرجع مع سيده لمنزلة تجعله يشعر ببعض الإثارة وتُلقِي حجرًا صغيرًا في نهر حياته الراكد، ولكن حتى هذا الأمر كان يفقد لذته بالوقت، كان يشعر وكأن حياته كلها انحصرت في يوم واحد يتكرر كل يوم دون أي أحداث جديدة أو أي إثارة تسيطر على حياته، كان بحاجة لأي تغيير مهما كان، حتى لو كان يمثل خطورة عليه، ربما كانت تلك الخطورة هي أفضل جزء في الإثارة، ألا تعلم ماذا يحمله لك القدر في اللحظة القادمة وتشعر أن كل حركة منك قد تكون الفيصل بين الحياة والموت، فكَّرَ توماس كثيرًا من قبلُ في الذهاب لرحلة صيد أخرى، ولكنه سرعان ما كان يَعْدِلُ عن هذه الفكرة، لقد قام بالكثير من الرحلات من قبلُ ولم يجد ما يبحث عنه، قام برحلات في براري أفريقيا وفي أدغال غابات الأمازون، وكان كل مرة يرجع من هناك مع شعور بوجود جزء بداخله لم يجد ضالته بعدُ، ما زال عقله يبحث عن المزيد من الإثارة والمغامرة، مغامرة قد تقلب حياتك رأسًا على عقب، ربما كانت هذه هي لعنة من يولد في البلاد الغنية مثله، لعنة أن يكون لديك كل شيء وتجرب كل شيء، لا يتذكر توماس أنه حُرِمَ من شيء أراده في يوم من الأيام، كل ما أراده يومًا كان موجودًا أمامه وبوفرة، المخدرات والنساء والمال والحرية في فعل أي شيء يفكر فيه، ثم تكتشف بعد أن تتجاوز الثلاثين أنك قمت بكل حلم قد يحلم به رجل طوال حياته في دولة من دول العالم الثالث، حينها تكتشف كم أن حياتك خاوية ومضجرة، حينها تحاول البحث عن المزيد ولا تجده، هذا هو ما يشعر به الآن، وبينما هو غارق في أفكاره أتاه صوت جورج قائلًا في مرح:

- أين أنت يا صديقي؟ ألم تسمع ما كنا نتحدث عنه أنا وإروين؟

رد عليه توماس بنبرة لا تخلو من السخرية:

- لا، لم أنتبه عزيزي جورج ولكني واثق في أنه كان حديثًا بالغ الأهمية بالتأكيد.

لم يلاحظ جورج نبرة السخرية؛ لذا أكمل في مرح:

- بالطبع كان حديثًا هامًّا، كنا نتحدث عن هذا البرنامج الجديد الذي أصبح حديث العالم الآن، هذا البرنامج الذي يزعجوننا بإعلاناته كل عدة دقائق.

بدأ الحديث أن يسترعي انتباه توماس الذي نظر نحو جورج بعيون فضولية وسأله:

- أي برنامج هذا الذي تتحدث عنه؟

ضحك جورج كثيرًا وتناول بعضًا من جعته قبل أن يردَّ عليه:

- ماذا؟ ألا تعلم هذا البرنامج؟ إنهم يبثون الإعلان الخاص به على كافة المحطات، حتى إروين كان يفكر في الاشتراك في ذلك البرنامج، لقد أصبح حديث العالم بأسْرِه في الفترة الماضية وأنت لا تعلم عنه أي شيء، استيقظ يا صديقي.

كان توماس على وشك الانفجار في وجه صديقه ولكنه تمالك أعصابه وقال بهدوء:

- لا، أنا لا أعلم عنه أي شيء، لِمَ لا تخبرني أنت؟

لم يَرُدَّ عليه جورج مباشرة، بل اتجه بالحديث لأحد أصدقائه بجواره الذي أعطاه حاسوبه النقال.

نظر توماس بعينيه الزرقاوين نحو الشاشة بينما هذا الإعلان يبدأ قائلًا:

- ماذا تنتظر؟ لقد بدأ العد التنازلي، شاهد كل ما قرأت عنه يومًا، عِشْ معنا مغامرة عمرك، شارك.

...

توقف سليم بسيارته أمام مدرسة ابنته الصغيرة كيرين، كان في انتظار خروجها من المدرسة كعادته كل يوم ولكن اليوم كان مختلفًا عن المرات السابقة، نظر إلى ساعته ليجد أنه لا زال أمامها عشر دقائق على الأقل حتى تخرج له، ترجَّل من السيارة وأخرج علبة سجائره ليشعل إحداها وهو يستند على السيارة، أغمض عينيه للحظات وهو ينفث دخان سيجارته ويتذكر ما حدث من ساعة واحدة، يتذكر بألم وحزن عميقين.

- أنا آسف سيد سليم، كنت أتمنى أن أحمل لك أنباءً أفضل ولكن نتائج التحاليل والأشعة جاءت اليوم بما كنا نخشاه، لقد انتشر الورم السرطاني في عدة مناطق أخرى من جسدك، ربما لو كنا اكتشفنا وجود السرطان مبكرًا لكان الوضع أفضل ولكُنَّا استطعنا السيطرة على نموه وتقليصه بالعلاج، ولكنك جئت متأخرًا بعد أن بدأ السرطان في الانتشار في مناطق أخرى من جسدك، أنا آسف بحق سيد سليم، لقد تباحثت مع عدة أطباء متخصصين سواء هنا في مدينتنا أو في باقي أنحاء تركيا وجميعهم أجمعوا على نفس الرأي.

انهار سليم على المقعد المقابل لمكتب الطبيب، زاغت عيناه وبدأت شفتاه في الارتعاش، صحيح أن الموت يمكن أن يأتي لنا في أي لحظة ولكن أن تعلم أن حياتك تقترب من الانتهاء رويدًا رويدًا، أن تعلم أن كل نظرة أو ضحكة أو حركة لك قد تكون الأخيرة، ذلك كفيل بالقضاء عليك قبل أن يقضي عليك الموت بكثير، بعد عدة دقائق من الصمت المطبق تحدَّث سليم قائلًا للطبيب بحروف مرتعشة:

- كم من الوقت أملكه، أقصد كم لديَّ من الوقت قبل أن ...

لم يستطع نطق تلك الكلمة، لم يَعْتَدْ عليها بعدُ حتى يستطيع قولها أو حتى الاعتراف بها، فقط نظر للطبيب الذي فهم ما يرمي إليه مريضه، فقال له:

- لا أحد يعلم ذلك سيد سليم، عِلم ذلك عند الله عز وجل، أعلم أن الصدمة صعبة ولكن حاول أن تتما ...

قاطعه سليم مكررًا نفس السؤال مرة أخرى، وهو يوشك على البكاء:

- كم لديَّ من الوقت؟

نظر الطبيب له بأسف، ثم نظر لنتائج تحاليل سليم نظرة أخيرة قبل أن يقول له:

- بحسب تحاليلك الموجودة أمامي، ربما ستة أو ثمانية أشهر على الأكثر، ربما تصل الفترة لعام ونصف إن بدأنا بالعلاج الإشعاعي، ولكني لا أنصح بذلك، سوف تكون فترة العلاج صعبة جدًّا عليك وسوف تتدهور صحتك بشدة حينها، وفي كل الأحوال ستكون النتيجة واحدة، ولكن إذا رغبتَ في العلاج بالإشعاع فسوف نفعل ذلك، أنا أعتذر لك مرة أخرى على تلك الأنباء، أعلم أنها صدمة لك ولكن ربما أفضل ما تفعله الآن هو التحلي بالإيمان.

أمسك سليم برأسه وهو ما زال غير مستوعب لما سمعه الآن، حاول الوقوف ولكن خانته قدماه، كانت قدماه ترتعشان بقوة، حياته تمر الآن أمام عينيه، كان يرى عائلته الجميلة وزوجته فاطيما، ترى كيف سيستطيع إخبارها أنه سيتركها وحيدة مع طفلتهما عندما يرحل عن كل ما له معنى وقيمة وأهمية في حياته، في النهاية وقف سليم ليجد الطبيب يمد إليه يده بورقة قائلًا له:

- لقد كتبت لك بعض المسكنات القوية، بمرور الوقت ستزداد الآلام صعوبة وقسوة مع الأسف؛ لذا فيجب عليك الالتزام بتلك الأدوية.

تذكر سليم كل ذلك وهو أمام مدرسة ابنته بينما أصابعه المرتعشة تقبض بقوة على السيجارة المحترقة، نظر للسيجارة وهي تكاد تنتهي كحياته، لسبب ما لم يرمها ويسحقها بحذائه كما هو معتاد على فعله، وجد نفسه يضعها بجوار حائط المدرسة ويُخْرِجُ منديلًا من جيبه ويضعه فوقها وكأنه يدفنها، أو ربما يدفن نفسه، ثم أخذ يبكي في صمت وهو يفكر في ابنته، تُرى مَنْ سيُقلِّها من المدرسة بعد رحيله؟ هل ستغضب منه لأنه رحل ولن يُحْضِرَ لها الحلوى التي تحبها كل يوم؟ أم إنها ستفهم أنه رحل رغمًا عنه؟ حينها سمع جرس المدرسة وهو يعلن انتهاء اليوم الدراسي وبدأ الصغار في الخروج ركضًا من المدرسة وهم يمزحون ويتضاحكون، مسح دموعه بسرعة قبل أن تراها كيرين التي خرجت راكضة فاتحة ذراعيها للدخول في حضن أبيها الدافئ كما هي عادتها كل يوم، احتضنها سليم كما لم يحتضنها من قبلُ، طوَّق ذراعيه حول خصرها الصغير بقوة، بينما يده تداعب شعرها البني الناعم الطويل، تَشَمَّمَ رائحتها الذكية ورغمًا عنه سالت دموعه في صمت، شعرت الصغيرة بالقطرات الدافئة لدموعه تسيل على رقبتها فنظرت إليه وسألته:

- أبي، لماذا تبكي؟ هل عاقبتك معلمتك أنت أيضًا؟

ابتسم سليم وهو ينظر إلى وجهها الملائكي وقال لها:

- لا، لم يعاقبني أحد يا حبيبتي ولكنني سعيد لرؤيتك فحسب.

مسحت كيرين بكفِّها الرقيق دموع والدها وهي تقول له ببراءة:

- أنا أيضًا سعيدة لرؤيتك يا أبي، ولكنني لا أبكي.

لم يستطع سليم الرد على طفلته، اكتفى باحتضانها مرة أخرى برفق هذه المرة وهو ما زال يحملها، واستدار نحو سيارته ليضعها في المقعد الأمامي بجواره ويُحْكِم حزام الأمان عليها قبل أن يبدأ بالتوجه نحو منزلهما، كان من حين لآخر ينظر لصغيرته بينما أصابعها تداعب الحاسب اللوحي وهي تلعب أحد الألعاب، كان يريد أن يُشبِع عينيه من صغيرته دون جدوى، كيف سيستطيع ترك ذلك الملاك الصغير وحده في هذا العالم القميء؟ كيف سيتركها دون أن يُؤَمِّنَ لها المال الذي يكفيها لحياة رائعة تستحقها هي وزوجته؟ كيف لن يراها تكبر أمام عينيه لتصبح فتاة كبيرة ناضجة؟ كيف لن يستطيع رؤيتها في حفل زفافها بثوبها الأبيض بياض قلبها؟ انتزعته كيرين من أفكاره وهي تقول له:

- أبي، هل رأيت ذلك الإعلان؟ إنهم يتحدثون عنه في المدرسة، حتى المدرِّسات يتحدثن عنه، هل تريدني أن أريه لك؟

ابتسم في وجهها وداعَبَ شعرها بيده قبل أن يقول لها:

- أنا أريد ما تريدين يا حبيبتي، سأفعل ما تريدين.

ابتهج وجه كيرين ذات التسع أعوام لرد والدها وقالت له:

- حسنًا، توقف على جانب الطريق حتى أريه لك يا أبي.

وبالفعل توقف سليم بسيارته لينظر لكيرين ويقبِّل رأسها بحب وعطف قبل أن يقول لها:

- حسنًا، أريني ما تتحدثين عنه يا حبيبتي.

حينها رأى الإعلان لأول مرة، الإعلان الذي سيغير كل حياته.

- ماذا تنتظر؟ اشترك الآن واربح المال في أضخم برنامج قد تراه في حياتك.

...

- يا لكم من أوغاد لصوص، لا شيء إلا مجرد حفنة من مصاصي الدماء.

كان هاريسون يردد تلك الكلمات بينما هو يترنح يمينًا ويسارًا من فرط ما شربه في الداخل، داخل كازينو كانبيرا الذي أنفق بداخله آخر ما تبقى لديه من المال، كان يظن أن الليلة ستكون مختلفة وسيستطيع تسديد جزء من ديونه التي يدين بها لذلك المرابي رامون الذي يدين له بالآلاف، كان يرغب في التفاخر على ذلك الثعبان عندما يرمي في وجهه المال الذي يدين له به، ولكن بدلًا من ذلك خرج خالي الوفاض مثل كل ليلة، كان هاريسون الآن يجتاز شارع بينارا على قدميه؛ لأنه خسر سيارته في لعبة قمار لعينة، كان يهذي بكلمات غير مفهومة ويصرخ بغضب في الشارع وهو يحاول الوقوف على قدميه دون جدوى، رفع زجاجة الجعة على شفتيه ليرتشف منها المزيد، ولكنه اكتشف أنها فارغة مما أصابه بالجنون، أمسكها بقوة وأطاح بها لتصطدم بنافذة أحد المنازل في الشارع وتحطمها في عنف، ما هي إلا لحظات وخرج له مالك المنزل الغاضب وهو يقول له بينما زوجته تحاول إيقافه:

- ماذا فعلت أيها الوغد؟ لقد حطمت نافذتي، ستدفع ثمنها رغمًا عنك أيها المخمور القذر.

قالها وهو يتجه بخطوات واسعة نحو هاريسون الذي ابتسم ورفع قبضتيه أمام وجهه كالملاكمين، وأخذ يتراقص في محاولة لاستفزاز الرجل، كانت زوجته تحاول إثناءه عن العراك، ولكن ضحكات هاريسون وحركاته قد نجحت بالفعل في إثارة الغضب داخل الرجل الذي اقترب منه وهو يصيح بغضب:

- تريد العراك أيها القذر، حسنًا، لك ما أردت.

اقترب الرجل حتى أصبح أمام هاريسون، وبمجرد أن رفع قبضته لتتجه نحو وجه هاريسون المبتسم انحرف هاريسون بسرعة لتضرب قبضة الرجل الهواء قبل أن ينهال هاريسون على الرجل بلكمات متعاقبة وسريعة على وجهه، سقط الرجل أرضًا ولكن خصمه لم يكتفِ بذلك،، أكمل هاريسون على الرجل وظل يكيل له اللكمات التي ملأت وجه الرجل بالدماء التي تفجرت من فمه وأنفه بغزارة، كان الرجل فاقدًا للوعي وزوجته تصرخ بقوة وهي تبكي، ولكن ذلك لم يشفع لزوجها الذي بَدَا وكأن هاريسون مصممًا على قتله، ينتقم منه لخسارته في الكازينو الليلة، ربما يصبُّ عليه جام غضبه لما آلت إليه حياته، ولكن بالنسبة للرجل لم يكن يعنيه السبب، كان يوشك على الموت تحت قبضة ذلك العملاق وأمام عائلته، حينها خرج ابن الرجل، وهو طفل لم يتعدَّ العاشرة من العمر خرج وهو يحتضن دُبَّه المفضل ليجد والده على تلك الحالة بينما هاريسون ما زال يضرب والده حتى الموت، انطلق الطفل دون تفكير وركض نحو والده وهو يبكي قائلًا:

- اترك والدي، توقَّف وإلا سأضربك.

حينها فقط توقفت قبضة هاريسون عن سحق وجه الرجل، نظر للطفل الصغير الذي يدافع عن والده بينما أصوات أبواق الشرطة تقترب من المكان، يبدو أن أحد السكان قد اتصل بالشرطة وهي الآن قادمة نحوه، ولكن هاريسون لم يتوقف بسبب الشرطة، لقد توقف بسبب الصغير، توقف لأنه تذكر ابنه جاك الذي لم يره منذ سنوات، نظر له طويلًا ومد يده نحوه بينما الصغير يحتضن دبَّه أكثر لعله يحميه من هذا الغريب، كان يوشك على لمس وجه الصغير عندما اكتشف أن يده ملوثة بالكامل بدماء والد الصغير، حينها تراجعت يده بسرعة ونظر للرجل الراقد على الأرض يوشك أن يموت، وانطلق في الجري باتجاه متنزَّه جليب في نهاية الشارع للاختباء من الشرطة التي اقتربت كثيرًا من المكان، وبالفعل وصل هاريسون إلى المتنزَّه وهو يلتفت خلفه حتى تأكد من أن أحدًا لا يتبعه، حينها بدأ في المشي ببطء محاولًا ألا يدع الخمر يؤثر على طريقته في المشي كي لا يثير الشبهات، لم يكن فخورًا بما فعله منذ قليل ولكنه احتاج لأي شيء لإخراج الغضب بداخله، كان يعلم أن رامون لن يظل صبورًا لفترة طويلة من الزمن، حينها ستسوء الأمور كثيرًا بالنسبة لهاريسون، لم يكد ينتهي من التفكير حتى رأى ذلك الرجل ذي المعطف الجلدي الأسود والبنطال المموَّه أمامه، لسبب ما لم يشعر بأنه أحد مرتادي المتنزَّه، خاصة مع تأخر الوقت والحذاء العسكري الذي ينتعله، إن الرجل واقف على بُعْدِ عدة خطوات من هاريسون مستندًا على أحد الأشجار وهو يدخن سيجارته، نظر له هاريسون مليًّا بعيون مرتابة قبل أن يكمل طريقه على الممشى في المتنزه ولكن الرجل وبمجرد أن اقترب منه هاريسون توجَّه نحوه ووقف أمامه مباشرةً ليعيق طريقه، ابتسم هاريسون في وجه الغريب وقال له بطريقة ساخرة:

- لا أعلم إن كنت غبيًّا أم لا، ولكنك إن لم تتنحِ جانبًا فسوف تؤكد لي أنك غبي بالفعل، صدقني لست الشخصَ المناسب للعبث معه.

سمع الغريب كلمات هاريسون ثم قام بنفْثِ الدخان في وجهه غير مبالٍ بتهديده، ثم قال له:

- هل تملك أي مال أيها القوي؟

أزاح هاريسون الدخان بيده ثم اقترب أكثر من الرجل حتى كاد وجهاهما أن يتلامسا وقال:

- لا، ولكنني سأكون ممتنًّا إذا أعطيتني بعضًا مما معك.

وفجأة هَوَتْ تلك الضربة العنيفة على مؤخرة رأس هاريسون الذي سقط أرضًا من شدة الضربة، لم تُفْقِدْه وعيه ولكنها بالتأكيد جعلته غير قادر على التركيز في أي شيء لا سيما القتال، حينها سمع ذلك الصوت من خلفه وهو يقول:

- أهلًا هاريسون، يبدو أنك لم تفقد روح الدعابة حتى وأنت مفلس، أرجو أن تحتفظ ببعضها عندما تقابل رامون، إنه مستاء جدًّا منك، كيف تتهرب من صديقك يا رجل، هل من اللائق ألا تريد مقابلته خاصة بعد كل ما فعله معك؟

لم يكد ينهي الرجل جملته حتى كانت قدمه تهوي بركلة في وجه هاريسون الذي تفجَّرت منه الدماء بغزارة، بصق الدماء من فمه لتخرج أحد أسنانه مع الدماء، ثم تحدث بألم قائلًا:

- وهل تظن أن رامون سيأخذ ماله وأنا ميت؟! يا لك من وغد غبي!

حينها انطلقت الركلة الثانية لتستقرَّ في جانبه بينما الصوت يقول له:

- حتى وأنت توشك على الموت تطلق النكات، هذا ممتاز، صدِّقني كنت أتمنى أن أكون مثلك، ولكن أنت على حق، لن تموت الليلة يا عزيزي، فقط ستتعلم درسًا بالطريقة القاسية حتى تفكر مليًّا في كيفية رد المال الذي تدين به لرئيسي.

هنا فُتِحت أبواب الجحيم على مصراعيها ترحب بهاريسون، العشرات من اللكمات والركلات هبطت عليه من كل حدب وصوب من الرجال الملتفِّين حوله كمجموعة من الضباع الجائعة حول فريستها، لم تستغرق الحفلة التي أُقِيمت على جسد هاريسون أكثر من خمس دقائق، ولكنها كانت كفيلة بتحويله إلى كتلة من اللحم البشري المختلط بالدماء والملقاة على الأرض دون حركة.

- هذا آخر إنذار لك يا عزيزي، بعد ذلك سنقوم بزيارة عائلتك التي هَجَرَتْكَ وأنت تعلم كم نستطيع الاستمتاع بوقتنا معهم، وبعدها سنزورك أنت وصدِّقني لن تستطيع حينها إطلاق النكات والتمتع بروح الدعابة؛ لأننا حينها سنأخذ روحك نفسها معنا للجحيم هدية لرامون.

رَكَلَهُ الرجل ركلة أخيرة وسط ضحكات الرجال من حوله قبل أن ينصرفوا تاركين هاريسون كقطعة بالية من القماش، بصعوبة نظر أمامه بعيون متورمة، ولكنه كان بصعوبة يرى الضوء القادم من المصابيح القليلة المضاءة في الحديقة، استلزم الأمر نصف ساعة فقط لكي يستطيع النهوض على قدميه ويبدأ التحرك نحو منزله الذي يبعد عشر دقائق عن المنتزه، كان يترنح بشدة ولكن هذه المرة من شدة الضرب ليس من شدة السُّكْر، وجد محطة للأتوبيس أمامه فاتجه إليها ليستريح قليلًا قبل أن يكمل طريقه، ارتمى على أحد المقاعد في المحطة الخالية من الركاب وأغمض عينيه لفترة ليست بالقليلة، كان كل جسده يئنُّ من المعركة غير العادلة التي خاضها منذ قليل، بعد فترة من الراحة فتح عينيه ليجد تلك اللوحة الإعلانية الكبيرة على الناحية المقابلة من الشارع، اللوحة التي غَيَّرَت حياته، والتي كان مكتوب عليها:

- ماذا تنتظر؟ اشترك الآن وكن الأول ولا تدع فرصة الفوز تضيع من بين يديك.

...

كانت الساعة قد تجاوزت السادسة صباحًا ببضع دقائق عندما أنهى كامل ورديته المسائية بالمصنع الذي يعمل به، خرج من بوابة الشركة الكبيرة ليرى الشوارع الهادئة العذراء التي لم يغتصبها البشر بعدُ، على الأقل حتى الآن، تنسَّم بعمق تلك النسمات الباردة المميزة للهواء في الصباح الباكر، هواء لم تلوثه بعدُ عوادم السيارات أو عوادم البشر أنفسهم، ترك الهواء المنعش البارد يصطدم بوجهه في رفق بينما هو مغمض عينيه في استمتاع بتلك اللحظة، شعر لحظة خروجه من تلك البوابة الحديدية وكأنه يخرج من السجن الذي سُجِنَ به منذ الأبد؛ لذا كان سعيدًا بانتهاء ليلة أخرى من الجحيم، أيقظه صديقه هشام الذي كان واقفًا بجواره يتأمله مبتسمًا حين قال له:

- أين أنت يا صديقي؟ يبدو أنك شردت بعيدًا.

فتح كامل عينيه واتجه بنظره لهشام وهو يقول:

- ألا أستطيع التمتع بتلك اللحظة؟ هذا هو الوقت الوحيد الرائع في اليوم كله، أن ترى الشوارع وهي خالية من البشر وهمومهم وأطماعهم وتفاهاتهم، أن تشعر وكأن الشارع وربما العالم كله ملكك أنت فقط حين تسير فيه وحيدًا دون أن ترى أي شيء قد يزعجك.

ابتسم هشام وهو يسير بجوار صديقه وقال:

- لم أكن أعلم أن الصباح الباكر يجعلك فيلسوفًا لهذه الدرجة.

ودَّعه صديقه مبتسمًا واتجه نحو باقي زملائه ليستقلُّوا الأتوبيس في طريقهم لبيوتهم، أكمل كامل طريقه وهو ينظر للأشجار التي تترنَّح ببطء مع نسمات الهواء، بينما تغرِّد الطيور على استحياء فرِحة باليوم الجديد، كان بحاجة لبعض الهدوء والسكينة خاصة بعد انتهاء عمله البغيض بالنسبة إليه، لم يكن كامل من النوع المناسب لهذا العمل الذي يقوم به رغم أنه يعمل بشهادته الجامعية، ولكن شخصيته كانت تختلف تمامًا عن باقي من يعمل معهم، كان مضطرًّا للعمل يوميًّا مع أناس لا يطيق معظمهم، ربما ما يخفف عليه حنقه قليلًا هو وجود أشخاص مثل هشام معه في المكان، أشخاص محترمين في مكان غير محترم، مكان لن تنجح به إلا لو كنت منافقًا أو جاسوسًا لرئيسك أو كانت لديك واسطة قوية، لا يهمُّ أن تعمل بكدٍّ أو تصبر؛ لأنك في النهاية لن تنجح مهما تعبتَ أو صبرتَ، فَكَّرَ كامل كثيرًا في مغادرة هذا المكان العفن ولكن بالنسبة إليه كانت المشكلة ستظل قائمة إن ذهب لمكان آخر ليعمل به، ستختلف الأسماء ولكن الشخصيات ستظل كما هي، نفس النفاق والظلم والحقد والحسد والتصنُّع والزيف، الحل الوحيد الذي رآه مناسبًا هو أن يكون له مشروع خاص به وحده، مشروع يجعله متحكمًا في مصيره وقراره لا أن يكون تابعًا لأحد بقية حياته، ولكن هذا كان بعيد المنال بالنسبة إليه نظرًا لعدم امتلاكه المال لكي يقدم على تلك الخطوة، كان بحاجة

لمعجزة حقيقية لكي يستطيع ترك عمله والبحث عن حلمه وسعادته التي هربت منه منذ آمد بعيد، منذ عمل في تلك الشركة التي سلبته شيئًا فشيئًا كل السعادة والفرحة التي كانت يومًا بداخله.

- واصل كامل مشيه في الشارع الهادئ الذي بدأت السيارات في غزوه بالتدريج، وحاول ترك همومه تتطاير مع نسمات الهواء البارد ولكن بازدياد الضجة في الشارع بدأ في الرجوع لأرض الواقع، وهو ما لم يكن مستعدًّا له بعدُ، أخرج هاتفه من حقيبته التي يحملها معه دومًا وأخرج سماعات الأذن وقام بتوصيلها بالهاتف لكي يستطيع تشغيل المذياع من هاتفه، أخذ يغيّر المحطات حتى استقر على أغنية يحبها، حاول الاستمتاع بها بينما يكمل سيره حتى انتهت الأغنية وبدأت مجموعة من الإعلانات، كان على وشك تغيير القناة حين بدأ ذلك الإعلان، حينها توقفت يده قبل تغيير المحطة وبدأ يصغي باهتمام إلى الإعلان الذي غيَّر كل شيء.

- ماذا تنتظر؟ هل ستدع الفرصة لتغيير حياتك تفلت منك بسهولة؟ معنا ستحقق حلمك الذي طالما وددت تحقيقه، اشترك الآن وربما تصبح أنت من نبحث عنه، شارك معنا في أضخم مغامرة قد يعرفها العالم في التاريخ، كن جزءًا من التاريخ واصنعه معنا واحصل على فرصتك للفوز بملايين الدولارات لكي تحقق كل ما حلمت به يومًا، لا تتردد وكن معنا المحارب الذي سيغير كل شيء، لتصبح معنا «محارب الزمن».

أنت من نبحث عنه

كان العمل يجري على قدم وساق داخل أستديو التصوير، لم يتبقَّ إلا بضع دقائق على انطلاق الحلقة الجديدة من البرنامج؛ لذا نرى العديد من العمال يركضون حاملين بعض المعدات من هنا وهناك بينما القائمين على المكياج يقومون بعملهم مع الضيوف الذين على وشك الظهور بعد قليل على الشاشة، كانت تلك الفتاة الشقراء تضبط المكياج على وجه دكتور جايمس الذي تحدث بضيق قائلًا:

- هل كان من الضروري قدومي معك الليلة؟ أنت تعلم أنني لا أحب البرامج ولا الاجتماعيات سيد هاوارد.

كان الأخير مسترخيًا على مقعده يتبادل الابتسامات مع الفتاة التي تصفف شعره، كان قد ظهر في العديد من البرامج من قبل؛ لذا فلم يكن متوترًا على عكس الطبيب؛ لذا فقد قال له توماس وهو يبتسم:

- أنت تقلق كثيرًا يا عزيزي، نعم، وجودك الليلة ضروري من أجل شرح ما توصلنا إليه، وكذلك شرح كل ما يتعلق بالبرنامج الذي سنقوم به، جايمس، أعلم أنك غير مرتاح وغير راغب في وجودك هنا ولكن صدقني، ما نحن بصدد فعله وفَّر للشركة ولأبحاثك المليارات، هل تسمعني يا جايمس؟ مليارات، لا توجد شركة في العالم كله لا تريد أن تضع إعلانها في برنامجنا، آلاف الاتصالات تنهال على الشبكة التي ستبث البرنامج من كافة الشركات حول العالم، من آسيا وأفريقيا وأمريكا وأوروبا وأستراليا، الجميع مستعد لدفع الملايين حتى يصبح جزءًا من هذا الحدث التاريخي، أنت طلبت المال والوقت والمتطوعين لإكمال أبحاثك، وها أنا بضربة واحدة قد وفرت لك كل ما تريد، بدون محارب الزمن عزيزي جايمس يمكن لكل ما سهرت وتعبت من أجله طوال السبع سنوات الماضية أن يذهب أدراج الرياح وكأنه لم يكن موجودًا في يوم من الأيام، أنا أحتاج البرنامج لإسكات المساهمين الذين سال لعابهم بمجرد أن طرحت عليهم الفكرة وأخبرتهم بكمية الأموال التي ستملأ جيوبهم عند طرح البرنامج، وأنت كذلك لإكمال ما بدأته لكي تصبح العالِم الأشهر في التاريخ البشري، ألا ترى ذلك معي يا دكتور؟

لم يستطع الطبيب الرد على سؤال إدوارد، كان يعلم أنه محق فيما قاله، ربما لم تكن فكرة البرنامج مستساغة بالنسبة إليه؛ لأنه لم يُرِدْ أن يكون العلم والأبحاث المصاحبة لأكبر وأعظم إنجاز علمي في التاريخ؛ وسيلة للترفيه وجلب المال، ولكنها فعلًا قد وفرت له كل ما أراده، لقد كان إدوارد سخيًّا معه بحق طيلة السنوات الماضية، وبمجرد أن بدأت الأموال تتدفق على الشركة عند طرح فكرة البرنامج كان سخاء رئيسه أكثر بكثير، واستطاع توفير جميع الأجهزة التي كان الطبيب يحتاج إليها دون تأخير أو مماطلة، بل واستقدم له كل العلماء والطاقم الذي طلبه منه جايمس بعد أن دفع لهم مبالغ يصعب أن يرفضها أي عاقل، لكل هذا لم يستطع الدكتور جايمس الرد على توماس؛ لذا لزم الصمت، فقط نظر لوجهه في المرآة الموجودة أمامه والتي يحيطها تلك المصابيح البيضاء بينما الفتاة تُكْمِلُ عملها، ما هي إلا دقائق ودخل الحجرة أحد الموظفين بالمحطة وهو يقول لهم:

- خمس دقائق ونكون على الهواء، من فضلكم اتبعوني.

وضع إدوارد يده برفق على كتف الطبيب قائلًا له:

- حسنًا، لقد حانت لحظتنا أيها العبقري، هيا بنا.

نهض دكتور جايمس وسار خلف رئيسه وأمامهما الفني المسئول عن إيصالهما لموقع التصوير، اقترب ثلاثتهم من الأستديو، بينما أشار لهم الفني بالتوقف وصوت المذيع يصل إلى مسامعهم وهو يقول:

- والآن اللحظة التي ينتظرها العالم بأَسْرِه، كما وعدناكم الليلة ستكون غير عادية؛ لأن ضيوفنا اليوم هم ضيوف فوق العادة، ضيوف استطاعوا فعليًّا قلب العالم رأسًا على عقب، ليس فقط بالاكتشاف العلمي التاريخي الذي وصلوا إليه، بل أيضًا بالبرنامج الذي سيراه العالم، البرنامج الذي سيكون علامة فارقة في تاريخ العالم وتاريخ الإعلام لعدة عقود قادمة، والذي سيكون بإمكانك مشاهدته فقط وحصريًّا على محطتنا الفضائية، ابقوا معنا ورحِّبوا بضيوفنا الخارقين للعادة: سيد إدوارد هاوارد ودكتور جايمس بارسون.

دخل إدوارد أولًا بينما تعلو وجهه ابتسامة كبيرة، كان خلفه دكتور جايمس الذي بَدَا مضطربًا بعض الشيء وسط كل تلك الإضاءة والكاميرات التي تملأ المكان، صافح المذيع كلًّا من الضيفين وأشار لهما بالجلوس، بدأ المذيع بالحديث قائلًا:

- سيد هاوارد، أنت رئيس مجلس إدارة شركة يور تكنولوجي والتي موَّلت ذلك البحث العلمي الهائل، ماذا يمكنك قوله لنا عن ذلك؟

- في البداية أحب أن أشكرك يا عزيزي على استضافتك لنا في هذا البرنامج الرائع، ثانيًا أحب أن أقول: إنه من دواعي فخري وسروري أن تكون شركتنا هي مَنْ توصلت لهذا الكشف العلمي الهام الذي سيغير الكثير من الأمور في عالمنا، لطالما تساءلنا عن بعض الأحداث التاريخية التي لم يتبقَّ هناك أحد ليذكر لنا ما هي الحقيقة بخصوصها، كنا دومًا نتساءل عن الكثير منها، هل نجت أنستاسيا فعلًا من إطلاق النار على عائلة القيصر في روسيا؟ أم كانت مجرد محتالة؟ من اغتال جون كينيدي؟، هل مات نابليون بونابرت ميته طبيعية في منفاه أم مات مسمومًا؟ لماذا انقرضت الديناصورات؟ ما الذي حدث في سيبيريا في مطلع القرن الماضي؟ هل شهدت تحطم سفينة فضاء أم كان نيزكًا هو مَنْ خَلَّفَ كل هذا الدمار الذي سُمِعَ دويُّه على بُعْدِ آلاف الأميال؟ وغيرها الكثير والكثير من الألغاز التي ظننا أنها ستظل ألغازًا، ولكن بفضل دكتور جايمس بارسون وفريقه العلمي العبقري سنتمكن من الإجابة على كل تلك الأسئلة، لن يبقى هناك لغز تاريخي يعجز البشر عن تفسيره بعد الآن.

حينها نظر المذيع نحو الدكتور قبل أن يقول له:

- هذا عظيم دكتور جايمس، ولكن هل يمكنك أن تشرح لنا كيف سيحدث ذلك؟ هل توصلت إلى كيفية السفر عبر الزمن، ذلك الحلم الذي راود العلماء قبل الأدباء أو العامة؟ هل هذا ما توصلت إليه؟

تنفَّس دكتور جايمس بعمق قبل أن يبدأ حديثه قائلًا:

- نعم ولا في نفس الوقت!

- نعم ولا! كيف ذلك؟ اشرح لنا من فضلك.

- فكرة الانتقال عبر الزمن كانت دومًا وبكل نظرياتها تفترض أننا بطريقة ما نستطيع السفر عبر الزمن للماضي أو المستقبل، بعض النظريات كانت تقول: إن ذلك ممكن والبعض الآخر كان ينفي ذلك بشدة باعتبار أن ما حدث قد حدث ولن يمكننا رؤيته مرة أخرى وأن ما سيحدث لم يحدث بعدُ ولم يولد بعدُ الأشخاص الذين سيكونون في المستقبل حتى نراه، ولكن عمومًا كانت الفكرة العامة عند المؤيدين لتلك النظرية أن يتم بناء آلة معينة قادرة على حمل إنسان لزمن آخر وإرجاعه مرة أخرى.

- وهل نجحت في صنع تلك الآلة دكتور جايمس؟

- لا بالطبع، ولكن ما استطعنا تنفيذه كان مغايرًا تمامًا لتلك الفكرة، لقد ابتكرنا جهازًا نستطيع من خلاله الوصول إلى نهر الذكريات ورؤية ما يحويه من ذكريات قد حدثت من قبل، أعلم أن الفكرة صعبة الفهم، ولكن يجب أن نفهم شيئًا: ما حدث من قبل لم يَفْنَ أو يختفِ تمامًا من عالمنا، كل شيء نفعله في يومنا، كل حركة تخرج من أجسادنا، كل كلمة تخرج من أفواهنا تظل موجودة حولنا، إنها ببساطة تتحول إلى طاقة، تلك الطاقة من الذكريات لما مررنا به من قبل تتجمع لتشكل نهرًا كبيرًا وواسعًا من الذكريات، هذا النهر يدور حولنا طوال الوقت، الأمر كالمذياع، موجات الإذاعة تحيط بنا طوال الوقت، صحيح، هي حولنا لا نراها ولا نشعر بها ولا نسمعها إلا بالجهاز المناسب الذي سيمكنك أن تسمع ما لا تسمعه، حينها ستتحول تلك الموجات المحيطة بك والتي لا تشعر بها إلى شيء ملموس، إلى كلمات وموسيقى وألحان.

- دكتور، دعني أستوقفك دقيقة، إذن كما فهمت فاكتشافك ببساطة أنك صنعت جهاز استقبال من نوعٍ ما يستطيع تحويل تلك الذكريات التي حدثت في الماضي إلى شيء ملموس نستطيع سماعه.

- ليس فقط سماعه، بل ورؤيته أيضًا، والشعور به كما لو أن ما حدث قد حدث لنا نحن، ولكن جسدك لن ينتقل إلى عالم آخر كما في أفلام الخيال العلمي، بل وعيك هو ما سينتقل.

- ماذا تقصد بذلك؟

- أعني أن جسدك سيظل كما هو، ولكن جزء كبير من وعيك سينتقل إلى ذلك النهر من الذكريات ويذهب داخل جسد ووعي شخص آخر، كان موجود بالفعل في تلك الحقبة الزمنية، لنفترض أنك أنت من ستذهب في تلك الرحلة العقلية، ستجد نفسك داخل جسد شخص من الماضي ولكن وعيك وعقلك أنت من سيتحكم فيه، ستشعر بأن كل ما يحدث معك حقيقي، تشم ما هو موجود في ذلك الزمن، ستسمع كل ما هو محيط بك وتراه أيضًا ولكن ذلك سيكون داخل عقلك، لن ينتقل جسدك بل وعيك فحسب؛ لترى عبر جسد وأعين شخص من الماضي.

- هذا عظيم دكتور جايمس، ولكن كيف تستطيع التحكم في الزمن الذي تريد الذهاب إليه؟

- هذا سؤال ممتاز ولكن إجابته معقدة، يمكنك تخيل أن الذكريات تلك عبارة عن مجموعة لا متناهية من عربات القطار المرتبطة ببعضها، كل عربة تخص زمن معين وهي متصلة بالعربة التي تليها والتي تسبقها، الأجهزة التي صنعناها تمكننا من ملاحظة تلك العربات المتعاقبة والدخول فقط للعربة التي نريدها دون غيرها، فلنفرض أنك تريد الذهاب ليوم معين، مثلًا الخامس والعشرين من يناير لعام ألف وتسع مئة، هناك ذكريات تحيط بالعالم لذلك اليوم، بواسطة ما توصلنا إليه سنضبط الجهاز على ذلك اليوم والمكان الذي نريد الذهاب إليه والجهاز سينقل وعي الشخص لتلك الذكريات التي تنتمي لهذا اليوم فقط دون غيره وللمكان المراد فقط دون غيره.

رفع المذيع حاجبيه بشدة وهو يستمع للدكتور جايمس، ثم وجَّه حديثه نحو توماس قائلًا:

- كل ما قاله دكتور جايمس رائع وعظيم بمعنى الكلمة، ولكن الكثير من المشاهدين يريدون أن يعلموا أمرًا ما، لماذا اخترتم أن يرى العالم ما توصلتم إليه عن طريق برنامج ترفيهي ليس عن طريق كشف نتائج الأبحاث في مؤتمر علمي مثلًا؟

- لقد فكرنا في ذلك بالطبع، ولكن المؤتمرات العلمية لن يشاهدها العامة من البشر، ستظل قاصرة على فئة معينة مهما كان حجمها؛ لذا فقد قررنا أن تكون في صورة برنامج يراه العالم بأسْرِه؛ لكي يرى بنفسه ما توصلنا إليه، لا مصطلحات علمية أنيقة ولا مؤتمرات متكلَّفة، كل إنسان على وجه الأرض سيرى بنفسه وبعينيه التاريخ الذي لم يره أحد ممن يعيش بيننا الآن، بالإضافة لذلك سيكون كل فرد له فرصة في المشاركة معنا في البرنامج مقابل جوائز مالية كبيرة، كل ما عليه فعله هو دخول الموقع الإلكتروني للبرنامج ورؤية ما إذا كانت الشروط تنطبق عليه أم لا، إن كانت تنطبق فربما يكون جزءًا من رؤية التاريخ كما حدث بالفعل منذ عشرات ومئات السنين.

- بالحديث عن المتنافسين معنا الآن مراسلنا في مدينة سيدني الأسترالية ومن أمام المستشفى الوحيد في أستراليا والتي تُخْضِع المتنافسين للفحوص الطبية لمعرفة إمكانية مشاركة المتنافس من عدمه، جيف، أنت الآن على الهواء، صِفْ لنا ما تراه الآن.

انتقلت الصورة على الشاشة للمراسل الموجود بأستراليا والذي بدأ حديثه قائلًا:

- أسمعك بوضوح جورج، أنا الآن كما قلت أمام مستشفى بمدينة ملبورن الأسترالية، وهي المستشفى التي تم التعاقد معها لفحص كافة الراغبين في الاشتراك في برنامج محارب الزمن وذلك في دولة أستراليا، الإقبال منقطع النظير كما ترى جورج، الآلاف قَدِموا من مختلف المدن الأسترالية للقيام بالتحاليل والفحوصات اللازمة لدخول البرنامج، المستشفى - كما يظهر خلفي يا جورج - تعج بالمتنافسين الذين يقفون في طوابير يُقَدَّر طولها بمئات الأمتار منذ الصباح الباكر، وبعضهم جاء منذ أيام طمعًا في الستة ملايين دولار، وكما يحدث هنا يحدث نفس الأمر في الكثير من دول العالم، تم تخصيص مستشفى واحد في كل دولة من الدول ذات التعداد السكاني الكبير؛ لكي يقوم بفحص الراغبين في الاشتراك في البرنامج، ما نراه الآن أمامنا يمكنك رؤيته في العديد من الدول الأخرى في قارات العالم المختلفة، الكل يسعى خلف الجائزة المالية، وبعضهم - وأقول بعضهم - جاء من أجل الاشتراك في اكتشاف التاريخ بغضِّ النظر عن إغراء المال، معك الكلمة مرة أخرى عزيزي جورج.

- شكرًا لك جيف مراسلنا من مدينة ملبورن الأسترالية، والآن السؤال لك إدوارد، أعلم أنكم وضعتم الشروط الواجب توافرها في المتقدمين، ولكن هل لك أن تكررها علينا أمام المشاهدين الآن، هل هي شروط صعبة؟

- على الإطلاق جورج، فقط يكفي أن يكون لك خلفية عسكرية سواء حاليًّا أو سابقًا وأن يكون عمر المتنافس من خمسة وعشرين عامًا إلى خمسة وثلاثين، والأهم ألا يكون متعاطيًا لأي نوع من المخدرات، وبالطبع يجب على المتسابق إجادة اللغة الإنجليزية؛ لأن المحاربين سيكونون من دول وقارات مختلفة، الإنجليزية هي اللغة التي سيتحدث بها المحاربون فيما بينهم، هذه هي فقط الشروط المطلوبة في المرحلة الأولى من المنافسة، من سيجتاز الاختبارات الطبية سوف يدخل المرحلة الثانية من المنافسة، وهي المهارات البدنية وحينها سيتم اختيار الستة أبطال، سيتم اختيار رجل من كل قارة حتى تكون هناك منافسة أقوى بين جميع القارات على وجه الأرض، وحينها سنبدأ البرنامج سعيًا خلف الجائزة المالية ذات الستة أصفار.

- بالحديث عن الجائزة سيد توماس، كيف سيتم توزيعها على المتبارين؟

- حسنًا، أنا سعيد لأنك سألتني هذا السؤال، سيتم اختيار ستة متسابقين من بين الآلاف الذين يتقدمون للمنافسة، هؤلاء الستة سيدخلون مراحل البرنامج المختلفة، مَنْ يستطيع إكمال المهمة حتى النهاية سيأخذ الجائزة، لو أكمل البرنامج أربعة أشخاص سيتقاسمون الستة ملايين دولار، وإن أكملها واحد فقط سيأخذ وحده الستة ملايين، الأمر في منتهى الوضوح والسهولة.

- ربما كان واضحًا، ولكن صدقني لن يكون سهلًا سيد توماس، على كل الأحوال نشكر ضيوفنا في نهاية البرنامج، ونكرر مرة أخرى أن محارب الزمن سيكون حصريًّا على محطتنا ولن تشاهده سوى على قناتنا، سارع بالاشتراك لأنك ستندم إن لم تفعل ذلك، إلى اللقاء الآن وعمتم مساءً.

...

في الطابق الحادي والعشرين من تلك البناية الفاخرة التي تمثل شركة يور تكنولوجي كان ذلك الاجتماع على وشك البدء، راجع الطبيب الأشيب ملفاته لمرة أخيرة قبل أن يتوجه إلى غرفة الاجتماعات لحضور ذلك الاجتماع، كان يشعر بالضيق ولكن لم يكن بيده شيء لفعله، انتزع الدكتور جايمس نفسه من أفكاره الساخطة ووضع ملفاته في حقيبته الجلدية ومضى في طريقه نحو غرفة الاجتماعات، كان الاجتماع قد بدأ بالفعل حينما دخل جايمس الغرفة التي كانت تحوي طاولة رمادية طويلة عليها الكثير من الوجوه والبذلات لبعض أكبر القيادات في الشركة، بالإضافة لبعض البذلات الأخرى التي لا يعلم أصحابها، بمجرد أن دخل الطبيب عاجَلَهُ السيد إدوارد رئيس مجلس الإدارة بقوله:

- أن تأتي متأخرًا أفضل من ألا تأتي على الإطلاق، أليس كذلك جايمس؟

ابتسم الأخير ابتسامة خفيفة ولم يَرُدَّ وهو في طريقه نحو مقعده على الطاولة بالقرب من إدوارد الذي أكمل حديثه:

- حسنًا، يمكننا إكمال ما بدأناه، ماذا كنت تقول سيد فوستر؟

وقف ذلك الشاب الذي لم يتعدَّ الثلاثين من عمره والذي يمثل القناة التليفزيونية المسئولة عن نقل البرنامج، وقال وهو يوجه نظراته وكلماته للجميع:

- كما كنت أقول قبل مجيء دكتور جايمس، منذ بدأنا الإعلان عن محارب الزمن منذ بضعة أشهر انهالت علينا الإعلانات من كافة أرجاء العالم، الكل مستعد لدفع الملايين من أجل بضع ثوانٍ على شاشتنا عند عرض البرنامج، وقد تقدم الآلاف من مختلف الدول للاشتراك معنا في البرنامج، وطوال تلك الأشهر المنصرمة كان فريقكم العلمي بالتعاون مع فريق من المتخصصين الذين قامت محطتنا بجلبهم يقومون باختيار الأنسب من المترشحين للوصول إلى المرحلة الثانية من التصفيات وهي مرحلة الاختبارات البدنية، الآن استطعنا الوصول إلى عدد أقل بكثير مما بدأنا به، حاليًّا يوجد ثلاث مائة مرشح مناسب للاشتراك في البرنامج.

- تقصد ثلاث مائة مرتزق.

نظر الجميع نحو قائل تلك الجملة التي أثارت انتباههم، لم يكن سوى دكتور جايمس نفسه الذي قالها بكثير من الضيق والحنق، بينما أكمل حديثه قائلًا:

- لِمَ تنظرون لي بهذه الطريقة؟ هذا هو ما حصلنا عليه، مجرد مجموعة من المرتزقة الذين عملوا في المجال العسكري قبل ذلك، الكل يطمع في ملايينكم الستة ليس أكثر، هل هؤلاء هم المرشحون المناسبون كما تقولون؟! إنهم مجموعة لا تعبأ ولا تهتم إلا بالمال الذي سيحصلون عليه في النهاية.

لم يكن إدوارد يريد إغضاب الرجل الذي جعل كل ما يحدث الآن ممكنًا؛ لذا فقد قال له بهدوء:

- دكتور جايمس، ما نفعله الآن هو ما سيجعلك تكمل أبحاثك ومهمتك، لقد تعبتَ كثيرًا ولعدة سنوات من أجل تحقيق ذلك الحلم، ولكن صدقني حين أقول إنه بدون ما تراه الآن لن يكتمل جهدك ووقتك ولن تكلل بالنجاح، أنت من بدأت الحلم ونحن نكمله لك، وعلى أي حال ومنعًا لحدوث أي مشكلات أخرى ستكون أنت والميجور باتريك لوكوود - وهو المسئول عن الاختبارات العسكرية - المسئولان الوحيدان عن تقييم واختيار المحاربين، لن يتدخل أحد في اختياراتكما، هو سيكون مسئولًا عن الاختبارات البدنية وأنت عن النفسية، ومعًا سوف يكون لكما الكلمة الوحيدة في اختيار مَنْ ترونه مناسبًا ولن أرفض أيًّا منهم، فقط دع رجالنا يُنْهُون الاختبارات البدنية للثلاث مائة متنافس، وحين الانتهاء من ذلك ستراجع أنت بنفسك ومن تراه مناسبًا من فريقك العلمي أسماء ونتائج اختبارات المتنافسين، وحينها ستختار من سيكون معنا محارب الزمن، هل هذا يكفي لك دكتور أم لا؟

تردد الطبيب لبضع لحظات نظر خلالها لوجه إدوارد قبل أن يجيبه:

- حسنًا، ولكن لن أسمح بالاعتراض على قراري حين أختار الستة رجال، لن أسمح بوجود مرتزقة في البرنامج.

أجابه إدوارد بسرعة:

- لك ذلك، والآن لنكمل الاجتماع يا سادة.

اثنان في المئة

- النداء الأخير لركاب الرحلة رقم ٥٣٢ المتجهة إلى ميونخ، النداء الأخير لركاب الرحلة رقم ٥٣٢ المتجهة إلى ميونخ، شكرًا.

ترددت تلك الكلمات في مطار بينيتو خواريز في العاصمة المكسيكية مكسيكو، نظر مانويل نظرة أخيرة لزوجته قبل أن يُقَبِّل رأسها بحنان ويحتضنها وهو يهمس في أذنها:

- لا تقلقي، سأفعل أي شيء لإحضار المال، أي شيء يا عزيزتي.

ثم نظر إلى ولده وطَبَعَ قُبْلَةً على جبينه قائلًا له وهو يحتضنه:

- فلتعتنِ بوالدتك أليهو، أنت الآن رجل العائلة حتى أرجع من تلك الرحلة.

تساءل أليخاندرو قائلًا وهو يحتضن والده:

- هل ستغيب طويلًا يا أبي؟

أمسك مانويل وجه ابنه برفق قبل أن يقول له:

- لن أتأخر يا بنيَّ، سوف أحضر الدواء الذي طلبه الطبيب لعلاجك ثم أرجع مباشرة.

قال له ابنه ببراءة:

- ولكني لا أريدك أن ترحل يا أبي.

ترقرقت عينا مانويل بالدموع قبل أن يحاول السيطرة على مشاعره، ويقول:

- ألا تريد أن تتحسن أليهو؟ إذن يجب أن أذهب، لا تقلق، سوف أحدثك كل يوم حتى أَطمئنَّ عليك، لا تقلق على والدك، أنا كبير كفاية لأعتني بنفسي كما أعلم أنك ستعتني بنفسك وبأمك.

كانت أول مرة يترك عائلته ويسافر منذ فترة طويلة، منذ كان ضابطًا في الجيش، ولكن لا بد من فعل ذلك، نظر مانويل للمرة الأخيرة لعائلته الصغيرة قبل أن يحمل حقيبته ويتوجه نحو بوابة الرحلة التي ستأخذه إلى ميونخ حيث سيتم اختيار الرجال الذين سيشاركون في البرنامج، اتجه بخطوات سريعة نحو البوابة وهو يناول ذلك الضابط جواز سفره وتذكرة الطيران، وبينما كان الضابط يراجع جواز السفر تَنَفَّسَ مانويل بعمق وهو يمسح دموعه بيده، أعطاه الضابط جواز السفر والتذكرة ليبدأ مرة أخرى في المشي مبتعدًا عن أغلى ما يملك في حياته؛ عائلته.

بدأ ليوناردو في صعود سلم الطائرة المتوجهة إلى ميونخ، كانت المرة الأولى التي يذهب فيها إلى ألمانيا، كان سعيدًا باختياره ضمن المتنافسين على البرنامج، صعد السلم ولم ينظر خلفه؛ لأنه يعلم أنه لم يكن هناك أحد ليودعه، بالتأكيد لن يأتي والده لوداع ولده الوحيد وإن أتى فسيكون لإيقافه وليس وداعه، لم يُرِدْ ليوناردو إخبار والدته عما ينوي فعله حتى لا يفتعل والده معها مشكلة بزعم أنها مَنْ شجعته على ذلك، هو مَنْ سيفعل ذلك وبمفرده، أعطى تذكرته للمضيفة الحسناء التي توجهت معه لمقعده في الطائرة قبل أن تساعده على وضع حقيبته أعلى المقعد، جلس ليوناردو وأغلق عينيه بقوة وهو يتنهد تنهيدة ارتياح، كان يعلم أن والده جُنَّ جنونه عندما علم بأنه خالف إرادته واشترك في هذا البرنامج، كان يعلم أنه يستطيع بعلاقاته ومركزه في الدولة أن يمنع سفره خارج البلاد، ولكنه كان أذكى من والده وتوجه مباشرةً لمن هو أعلى من والده وطرح عليه الفكرة مبررًا بأنه لو تم اختياره ستكون دعاية جيدة جدًّا للجيش الأرجنتيني وضباطه الذي هو من ضمنهم، خاصة مع اتجاه أنظار العالم أجمع لبرنامج محارب الزمن، ولو استطاع ليوناردو الفوز بالبرنامج فبالتأكيد سيكون ذلك بفضل الخبرات والتدريبات التي تلقاها في جيش بلاده، كان قد فكر في كل شيء قبل دخوله لذلك الجنرال الذي تحمَّس للفكرة بشدة، لم يكن أمام الجنرال إلا الموافقة على اشتراك ليوناردو في البرنامج، وها هو الآن في الطائرة التي ستحمله لذلك الحلم الذي يودُّ تحقيقه، ربما هناك يستطيع إيجاد نفسه بعيدًا عن نفوذ وسلطات وسطوة والده على حياته، أغلق عينيه بينما قائد الطائرة يقول بصوت هادئ:

- أهلًا بكم على متن الخطوط الجوية الأرجنتينية، على متن الرحلة المتجهة نحو ميونخ، ستستغرق الرحلة ست عشرة ساعة تقريبًا، أرجو أن تتمتعوا معنا بالرحلة، شكرًا.

بعد ساعات من السفر حَطَّت الطائرة في مطار ميونخ الدولي، بدأ الركاب في جمع أمتعتهم ومتعلقاتهم استعدادًا للنزول من الطائرة، وكذلك فعل توماس، بدأ في سحب حقيبته من أعلى ووضعها على كتفيه، ولكنه انتظر قليلًا حتى يقلَّ الزحام قليلًا على باب النزول من الطائرة، لم يكن قلقًا على الإطلاق، بالنسبة إليه لم تكن تلك هي رحلته الأولى لميونخ أو لألمانيا، فقد جاء عدة مرات بحكم عمله في الجيش الملكي الهولندي، ولكن هذه المرة كانت مختلفة، لن يكون هناك تدريبات مملَّة أو محاضرات مضجرة مثل المرات السابقة، هذه المرة هو قادم باختياره من أجل بعض المغامرة التي يستحقها، ربما يجد الإثارة التي يبحث عنها منذ زمن دون جدوى، بالنسبة إليه لم يكن غريبًا أن يكون ضمن الثلاث مائة متسابق الذين تم اختيارهم ليشاركوا في المرحلة الثانية من البرنامج، كان يعلم إمكانياته جيدًا وواثقًا منها ومن نفسه للغاية؛ لذا ظل في مقعده لبضع دقائق قبل أن يبدأ نزوله من الطائرة بخطوات واثقة سريعة، كان يتصرف وكأنه متأكد من فوزه بالجائزة والتي لم تكن هي همُّه على الإطلاق، كان كل ما يعنيه هو التحدي والإثارة المصاحبة لتلك المغامرة، أن تكون حياته على المحك ليعلم حينها كم هي غالية وثمينة بالنسبة إليه، كان قد قرأ على موقع الشركة المنظِّمة للبرنامج تفاصيل عامة لما سوف يحدث، وقد راق له ما قرأه، ربما كانت تلك هي المغامرة الكاملة التي لطالما انتظرها، أكمل توماس درجات السلم حتى وصل إلى أرضية المطار قبل أن يتوجه إلى الباص الذي سيأخذه إلى بوابته لإكمال الإجراءات المتعلقة به، وبينما هو جالس لم يَفُتْ عليه النظر إلى تلك المضيفة الحسناء التي كانت ترمقه بنظرات الإعجاب من حين لآخر، ربما لو كان شخص آخر لتَوَجَّهَ إليها وحاول مصادقتها، ولكنه لأنه توماس يانسن لم يفعل ذلك، أغمض عينيه مبتسمًا وهو يعلم أنها تراقبه عن كثب، لم يكن بالفعل مهتمًّا بالنساء أو بأي شيء في الحقيقة، لقد جرب طوال حياته كل ما يتمنى المرء تجربته، ومع ذلك لم يشعر بالسعادة أو الرضا الذي يبحث عنه، هو فقط يريد ملء ذلك الجزء الفارغ من روحه، وكان البرنامج هو وسيلته لذلك، أو هكذا ظن توماس.

- أهلًا بك في ميونخ سيد سليم أكمل، أتمنى أن تكون قد استمتعت برحلتك من تركيا لميونخ سيدي، أنا مونيكا موظفة البرنامج والمسئولة عن إنهاء إجراءات السفر لك، رجاءً أعطني جواز سفرك وخلال بضع دقائق سنكون في طريقنا نحو المجمع الذي ستستقر فيه خلال المرحلة التالية من البرنامج.

ابتسم لها سليم ولم يَرُدَّ عليها، فقط اكتفى بإعطائها جواز سفره حتى تقوم بعملها بينما أخرج من جيبه صورة صغيرة يحتفظ بها دائمًا لزوجته وابنته الوحيدة، داعب الصورة بأنامله مبتسمًا وهو يتساءل هل سيرجع مرة أخرى لمن بالصورة أم لا، قبَّل الصورة للحظات قبل أن يقوم بإرجاعها مرة أخرى إلى جيبه، ثم أخذ يتطلع لوجوه من حوله لفترة من الزمن، المئات من البشر يمرون أمامه وكل منهم منشغل بما يخصه، كان يحسدهم على أنهم لا يعلمون متى النهاية بالنسبة إليهم، ربما ذلك الرجل العجوز الذي يمر أمامه الآن يموت الليلة ولكنه لا يعلم ذلك؛ لذا تراه يمشي بتؤدة وكأن لديه العمر كله ليحياه، أو تلك الشابة التي تتحدث في الهاتف مع شخص ما، ربما تسقط طائرتها اليوم وتموت ولكنها لا تعلم ذلك؛ لذا تراها تتحدث بسعادة في الهاتف، هو فقط يعلم متى ستكون النهاية، نهايته هو على الأقل، وكم كان هذا مرعبًا بالنسبة إليه، أن يعلم أنه خلال بضعة أشهر سيُحرم من عائلته إلى الأبد دون أن يملك فرصة لقتال ذلك السرطان اللعين، كم نحن ضعفاء أمام الطبيعة، ولكننا لا ندرك ذلك إلا بعد فوات الأوان، ربما لا يملك فرصة للقتال ولكن على الأقل يملك فرصة لتأمين حياة كريمة لعائلته، حياة يستحقونها بعد أن يرحل عنهم، انتزعته المساعدة الحسناء من أفكاره السوداء وهي تناوله جواز السفر وتقول له في أدب:

- سيد سليم، كل شيء على ما يرام الآن، سنتوجه فقط لتفتيش حقيبتك، ثم نستقل السيارة لمكان الإقامة، هيا بنا.

أخذ السائق الحقيبة من هاريسون ليضعها في الخلفية، بينما استقلَّ هاريسون السيارة مع تلك المساعدة الحسناء، بدأ السائق بالسير عندما توجَّه هاريسون بسؤالها قائلًا:

- هل وصل جميع المشتركين من بلادهم أم لا؟

- ليس بعدُ سيد هاريسون، من المقرر أن يحضر الجميع خلال ثلاثة أيام واليوم هو اليوم الثاني، غدًا سيحضر الباقي ليكتمل العدد وتبدأ المرحلة الثانية من البرنامج.

- وإلى أين نحن متجهين الآن؟

- إلى مقر الإقامة والذي سيتم فيه إجراء المرحلة الثانية، هو عبارة عن مجمع عسكري قديم على حدود ميونخ سمحت لنا المدينة باستخدامه، لا تقلق، لن نستغرق الكثير من الوقت للوصول إليه.

لم يعقِّب هاريسون على حديثها، اكتفى بالصمت والنظر من النافذة، كان يعلم أنها الفرصة الأخيرة له للحصول على المال الذي يدين به لذلك المرابي رامون، لقد أخطأ كثيرًا في حياته من قبل، قامر وخسر الكثير من كل شيء، الكثير من المال، الكثير من كرامته أمام نفسه وأمام الآخرين، والأهم خسر عائلته التي لم تستطع تحمُّله أكثر من ذلك، لقد صبرت سوزان طليقته كثيرًا عليه من قبل، صبرت حين خسر عمله بسبب الخمر والمراهنات، صبرت حين تغيَّرت طباعه ليصير عصبيًّا وربما مجنونًا في بعض اللحظات، ولكن عندما وصل الأمر لولديها لم تستطع الصبر أكثر من ذلك، هَجَرَتْهُ حينها للأبد وأخذت طفليها معها، ولم يعترض هو على ذلك، كان يعلم أن حالهما معها أفضل بكثير مما لو بقيا معه، تركهما خلفه وترك معهما ما تبقى من كرامته واحترامه لنفسه، ولكن الآن ذلك الوغد رامون يهدده بهما، بأن يدفعا ثمن أخطائه، لا يمكن لذلك أن يحدث، يكفي ما مرَّا به وهما يشاهدان والدهما يتغير للأسوأ شيئًا فشيئًا حتى أصبح كحيوان هائج لا يهتم حتى بأطفاله، يكفي ما عاناه بسببه حتى الآن، ربما كان هذا البرنامج هو الفرصة التي أتت له لتصحيح كل شيء، لتصحيح حياته ومحاولة إرجاعها لما كانت عليه من قبل، ربما ينجح في يوم من الأيام في كسب احترام ولديه له كما كان من قبل، ربما.

...

- ها قد وصلنا إلى مهجع النوم، ستجد رقمك على الفراش المخصص لك سيدي.

ابتسم كامل وشَكَرَ المساعِدة التي تركته أمام تلك القاعة الفسيحة الممتلئة بالأسِرَّة المرتَّبة بعناية، كل فراش توجد فوقه ورقة باسم صاحبه، وكذلك على الدولاب المجاور له، كان البعض قد حضر بالفعل وبدأوا في إفراغ أمتعتهم، نظر البعض نحو الوافد الجديد الذي لم يُثِر انتباههم كثيرًا، بعد لحظات رجع كل شخص لما كان يفعله، البعض كان يتحدث في الهاتف مع شخص آخر والبعض يقوم بنقل ملابسه من الحقيبة إلى الدولاب الخاص به، والبعض مستلقٍ على الفراش في محاولة للاسترخاء، بدأ كامل في السير والبحث عن الفراش الخاص به حتى وجده ووضع عليه الحقيبة وجلس للحظات على الفراش، أخذ في التطلع في وجوه مَنْ حوله، كانت الملاحظة الأولى أن أغلبهم من الأفارقة ذوى البشرة الداكنة، البعض أسود تمامًا والبعض الآخر لهم بشرة بنية اللون، وقليل مَنْ كانت بشرته بيضاء، لم يفهم كثيرًا سبب ذلك حتى أتاه ذلك الصوت من خلفه الذي قال بلغة عربية فصحي:

- إنه مهجع الأفارقة.

نظر خلفه ليجد شابًّا حليق الرأس ذا وجه بشوش، كان يبدو من لهجته أنه تونسي أو مغربي.

- أخوك منير من تونس، منذ رأيتك تدخل القاعة عرفت أنك عربي مثلي.

- أهلًا بك منير، أنا كامل من مصر، ولكن ماذا قصدت بقولك مهجع الأفارقة؟

جلس منير بجوار كامل وقال له بمرح:

- يبدو أنه لا زال أمامك الكثير لتتعلمه هنا، هذا هو مكان النوم المخصص للخمسين متسابقًا الذين تم اختيارهم من قارة أفريقيا، أماكن النوم هنا مقسَّمة لستة أماكن، كل مكان يحوي خمسين فراشًا لخمسين متسابقًا من قارة واحدة، لقد ظنوا أن هذه الطريقة أفضل فرصة لإيجاد من يتحدث بنفس لغتك، مثلما حدث معك ومعي.

ابتسم كامل ثم قال لزميله:

- يبدو أنك تعلم الكثير، منذ متى وأنت هنا؟

- لقد حضرت البارحة فقط ولكن كما ترى لا نملك الكثير لفعله حتى يقومون بإحضار الجميع من بلدانهم؛ لذا فأنا أتجول في المكان منذ أمس، وعرفت الكثير مما يدور هنا، أنا سعيد لوجود عربي آخر معي في هذا المكان.

رَبَتَ كامل بمودة على كتف منير قبل أن يقول:

- وأنا أيضًا يا صديقي، وأنا أيضًا.

▪ ▪ ▪

آنا الميجور باتريك لوكوود

دخل كامل تلك القاعة مع صديقه الجديد منير، كانت مكبرات الصوت المنتشرة في المجمع العسكري الذي يقطنون به الآن تواصل الطلب من المتسابقين بالتوجه إلى القاعة رقم ٢ للأهمية، كانت المرة الأولى لكامل أن يرى جميع المتسابقين المشتركين في البرنامج، جميع الثلاث مائة، يبدو أن البعض وصل للتو؛ لأن بعضهم كانوا يحملون أمتعتهم معهم في القاعة، قاعة فسيحة خشبية الجدران والمدرجات أيضًا، كان البعض يتحدث مع الوافدين الجدد بينما كان البعض الآخر يجلس وحيدًا دون أن يفعل شيئًا سوى التأمل في الموجودين حوله.

اتجه كلٌّ من كامل ومنير نحو أحد المدرجات وجلسا في انتظار معرفة سبب تجمعهم الآن، لم يمر الكثير من الوقت حتى دخل ذلك الرجل، كان يبدو عليه كمن اعتاد إعطاء الأوامر طيلة عمره، رغم لباسه المدني إلا أنه كان يبدو عليه أنه رجل عسكري، قامته المفرودة وكفيه المعقدوتين خلف ظهره ونظراته الحادة التي كانت وكأنها تفحص بعناية كل شخص من الثلاث مائة، رجل في منتصف الأربعينيات أو أوائل الخمسينيات ولكن الحيوية التي تبدو عليه كانت تجعله وكأن عمره يقترب من سن الشباب الماثلين أمامه، اتجه مباشرةً نحو مقدمة القاعة ليصعد تلك السلالم الثلاث ويطرق ثلاث طرقات حازمة على الميكروفون، بدأت أصوات المتسابقين في الخفوت والنظر باتجاه ذلك الضيف الجديد، انتظر الجميع أن يتفوه بأي كلمة ولكنه لم يفعل، فقط ظل واقفًا في مكانه، بينما ينظر كصقر جائع نحو الحضور وكأنها مجموعة من الأرانب التي يوشك على الانقضاض عليها، ظل واقفًا يتمعَّن في وجوه الجميع دون أن ينبس ببنت شفة، كان البعض ما زال يتحدث سواءً في الهاتف أو مع شخص ما بجواره، ولكن الرجل لم يطلب من أحد الصمت، كان يكتفي بالنظر لمن يتحدث بتلك النظرات النارية، والغريب أن كل من كان ينظر إليه يتوقف بالفعل عن الحديث أو يقوم بإغلاق هاتفه وهو ينظر أرضًا دون سبب واضح، كان يبدو على الرجل أنه يملك شخصية كاسحة، بعد حوالي خمس دقائق من الصمت التام منه ومن المتسابقين الذين شعروا بأهمية ذلك الرجل حتى دون أن ينطق كلمة بدأ بالحديث قائلًا:

- الآن يمكنني التحدث، الكثير منكم لا يعرفني، ربما مَنْ خدم يومًا في القوات الملكية البريطانية يعرف مَنْ أنا، ربما حتى عملوا تحت إمرتي في يوم من الأيام، وصدِّقوني تلك ليست تجربة لطيفة على الإطلاق لكي تخوضها، أنا الميجور باتريك لوكوود من القوات الخاصة البريطانية، أنا الآن متقاعد ولكني لا أزال وغدًا معتوهًا كما كنت من قبل، أنا لا أحتمل في حياتي شيئان: الغباء وعدم إطاعة الأوامر، إن ابتعدت عنهما ستكون علاقتنا على ما يرام، ولكن إن كان بك صفة من هاتين اللعنتين فأنا أطلب منك بكل لطف أن ترحل الآن؛ لأنك إن مكثت معنا لن أرحمك وأنا أقصد دائمًا ما أقول، سوف أكون المسئول الأول عن الاختبارات القتالية والتي ستؤهل بعضًا منكم لدخول البرنامج ليصبحوا محاربي الزمن ومن ثَمَّ الحصول على المال وكل هذا الهراء، لقد قرأت ملفاتكم قبل أن أحضر هنا وأعلم أن منكم ضباطًا سابقين في الجيش والبعض حاليين والبعض كانوا جنودًا في مرحلة ما في حياتهم، ولكن هنا لا وجود لضابط أو جندي، جميعكم سواء أمامي فلا تحاول التبختر برتبتك العسكرية أمام الآخرين؛ لأنها هنا لا تساوي شيئًا بالنسبة لي، في هذا المجمع سيتم تقييمكم ليس بدنيًّا فقط ولكن أيضًا سيكون هناك تقييم نفسي مستمر على مدار الساعة لكل شيء تفعلونه هنا، يجب أن تعلموا أنه منذ اللحظة التي دخلتم فيها تلك القاعة قد بدأت الاختبارات، وهذا ببساطة لأن كل مكان في المجمع مراقَب بكاميرات مراقبة سرية موضوعة بعناية حتى لا تستطيعوا التعرف على أماكن وجودها؛ لذا أرجو من كل شخص توخي الحذر؛ لأنك مراقَب طوال الوقت من عشرات الأشخاص.

من منتصف القاعة صدر ذلك الصوت الذي قال بسخرية:

- فلتجعل من يراقبني سيدات، أظن عندما أستحمُّ سيجدن لديَّ ما سوف يفقدهنَّ عقولهنَّ.

دوَّت بعض الضحكات الخافتة في القاعة، ولكن نظرة نارية واحدة من الميجور جعلت تلك الضحكات تختنق في حناجر مَنْ قام بإطلاقها، بعد لحظات بدأ صوت الميجور في الارتفاع وهو يقول:

- يبدو أن لدينا شخصًا مرحًا في القاعة، لمَ لا يعرِّفنا بنفسه حتى نتشرف به؟

بدأ الجميع في الالتفات ولكن لم يتحرك أحد أو يقف، ظل الجميع كما هم دون أن يملك أحد القدرة على الوقوف، حينها تابع الميجور حديثه قائلًا:

- حسنًا، يبدو أن الشخص المرح خجول بعض الشيء، لنساعده قليلًا.

اتجه الميجور نحو الحاسوب الموضوع على الطاولة أمامه وبدأ في نقر الأزرار بسرعة وما هي إلا لحظات حتى صاح في انتصار:

- ها هو، فلنرى جميعًا زميلنا الذي يحب المزاح.

ضغط على الحاسوب ليجد الجميع صورة كبيرة على الشاشة الموجودة خلف الميجور لأحد الأشخاص الموجودين في القاعة.

- هل يمكن الآن أن يقف صاحب الصورة الجميلة حتى يتسنى للجميع رؤيته؟

حينها وقف ذلك الشخص الموجودة صورته على الشاشة، كان يحاول أن يبدو وكأنه غير مكترث لما يحدث، ولكن التوتر كان يسيطر على صوته حين قال:

- حسنًا، أنا من قلت، ما الضرر من ذلك؟

نزل الميجور الدرجات الثلاث وبدأ في الاتجاه نحو الشاب حتى وصل إليه ووقف أمامه مباشرة وهو يقول:

- لو كنت تملك الشجاعة للوقوف عندما طلبت منك ذلك ربما كنت عفوت عنك، ولكنك جبان لا تستطيع تحمُّل عواقب أفعالك، يمكنك الانصراف، لقد تم للتو طردك من الاختبارات.

اتسعت عينا الشاب في دهشة وقال:

- ماذا؟ تم طردي؟ كيف؟ لقد وصلت للتو وأنت تقول لي الآن: إنه تم طردي! يبدو أنك فقدت عق...

قبل أن يكمل جملته فوجئ الجميع بباب القاعة يُفْتَحُ بقوة ويدخل منه أربعة رجال بملابس سوداء ومدججين بالهراوات والصواعق الكهربائية، دخلوا أو ربما يمكنك القول اقتحموا القاعة واتجهوا ركضًا نحو مكان وقوف الميجور والشاب دون أن ينطقوا كلمة واحدة لذلك الشاب الذي لم يستطع إكمال جملته، حينها سأله الميجور:

- ماذا كنت تقول؟ كنتَ تقول: إنني فقدت عق... وصمتَّ قبل أن تكمل الكلمة، هل تريد إكمالها الآن؟ أم تفضِّل قول شيء آخر مرح حتى نستمتع ببعض الضحكات السخيفة؟

لم ينطق الشاب ولم يعلق، فقط أمسك حقيبته بعصبية وهو ينظر بحقد نحو الميجور، ثم نظر إلى المتسابقين نظرة أخيرة قبل أن يتوجه لباب القاعة، بينما الرجال الأربعة يتبعونه في صمت، رجع الميجور مرة أخرى لمكانه ثم تابع حديثه قائلًا:

- حسنًا، من الجيد أن ذلك حدث اليوم أمام الجميع حتى تتأكدوا أنني لا أمزح، أنا مستعد لطرد أي منكم دون حتى إبداء أسبابي إذا شعرت بأنك لا تستحق مكانك هنا، أنت هنا تحت رحمتي طوال الأربع وعشرين، لا يحق لك الاعتراض على أي شيء ولا طلب أي شيء، أنت تنفذ فقط ما تؤمَر به دون مناقشة، إذا لم يعجبك الأمر يمكنك دومًا اللحاق بزميلك الذي غادر للتو، ستوفر عليَّ عناء اختبارك وتقييمك، كما كنت أقول: المكان بأكمله مراقب طوال الوقت؛ لذا نصيحة مني حاولوا أن تحسنوا التصرف وتُظْهِروا أفضل ما فيكم خلال الأيام القليلة المقبلة حتى أرضى عنكم، حينها ربما أسمح لك أن تصبح واحدًا من محاربي الزمن ومن ثَمَّ الحصول على المال الذي تلهثون جميعكم خلفه، أنتم ثلاث مائة شخص، أو على الأقل كنتم ثلاث مائة قبل رحيل ذلك الأحمق، سيتم اختيار ستة فقط منكم، هذا يعني أن فرصة كل واحد منكم اثنان بالمئة، واحد فقط من كل خمسين متسابق سيكون محارب الزمن، واحد فقط، لا تنس أنك تمثل اثنان في المئة، لا تنس ذلك لأنه بإمكانك زيادة تلك النسبة لصالحك، كل تدريب تنجح فيه وكل اختبار تتقنه سيزيد من الاثنين بالمئة الخاصة بك، كل ما ستفعله هنا في الأيام القادمة هو ما سيحدد إذا ما كنت ستكمل معنا أم لا، لقد رأيتم منذ قليل كم أنا جاد وأرجو أن تكونوا أنتم أيضًا جادِّين فيما أنتم مقبلون عليه، أعلم أن بعضكم جاء فقط منذ قليل من دولته؛ لذا فاليوم لن يكون هناك اختبارات، الجميع سيأخذ راحة اليوم، وغدًا سنبدأ وتبدأ المرحلة الثانية من البرنامج، حظ سعيد لكم جميعًا، يمكنكم الانصراف.

▪ ▪ ▪

دَوَّت بعض الطَرَقَات الحازمة والقصيرة على باب الدكتور جايمس الذي كان يطالع بعض التقارير في مكتبه حينما سمع الصوت وقال:

- ادخل.

لم يكن الزائر سوى الميجور لوكوود الذي دخل الغرفة وأغلق الباب خلفه بإحكام قبل أن يقول للطبيب العجوز:

- لقد تم إعلامي بأنك تريدني في أمر هام.

نهض الطبيب من مقعده واتجه نحو الميجور ليصافحه بحرارة وترحاب قبل أن يشير إليه بالجلوس، بينما جلس هو على المقعد المقابل للميجور وبدأ حديثه قائلًا:

- نعم ميجور لوكوود، لقد طلبتك بالفعل وأشكرك على استجابتك السريعة لطلبي.

- لا عليك، هل لي أن أعلم سبب طلبك إياي في مكتبك؟

تردد الطبيب للحظات وهو يحاول انتقاء كلماته قبل أن يقول:

- أنت تعلم أيها الميجور أننا هنا لتقييم واختبار هؤلاء المتسابقين لاختيار المناسب منهم ليكون محارب الزمن كما يطلق عليهم السيد هاوارد، لقد قرأت ملف كل شخص منهم على حِدَة وحتى الآن أنا عاجز عن تحديد مَنْ يستحق فعلًا أن يكون جزءًا من التاريخ، هذا الأمر بالنسبة لي وللعلم يتخطى مجرد كونه وسيلة لجلب المال والترفيه عن البشر، إننا بصدد التعرف على بعض من أشهر وأكثر الألغاز غموضًا في التاريخ، بصدد رؤية ما لم نره من قبل، هذا إنجاز تاريخي وعلمي بكل ما تحتويه الكلمة من معنى سيد لوكوود، هل توافقني على ذلك؟

أومأ الميجور برأسه بحزم قبل أن يردَّ قائلًا:

- بالطبع دكتور جايمس، أعلم ذلك وأوافقك تمامًا رغم أنني لا أعلم هل هؤلاء الفتية مؤهلون لما نحن مقبلون عليه أم لا، معظمهم لم يأت إلا من أجل المال والشهرة فحسب.

هنا نهض الطبيب في حماس وهو يقول:

- بالضبط سيد لوكوود، بالضبط هذا هو ما أعنيه، أعلم أنك المسئول عن الاختبارات القتالية وأنا عن الاختبارات النفسية، ولكن كل منا على حدة لن يستطيع تحديد الأشخاص المناسبين لما هو آت؛ لذا أظن أننا يجب أن نتحد حتى نصل إلى الاختيار الأمثل لمن يستحق إكمال الطريق معنا، معظم من شاهدناهم هم في رأيي مجموعة من المرتزقة والقتلة الذين جاؤوا من أجل المال، وللأسف من جاء بهم هو رئيسي ورئيسك الآن، أعلم أن من بين هؤلاء الثلاث مائة بعض الأشخاص الذين يحملون الصفات المطلوبة، الصفات التي يستحقون من أجلها مكانًا في المرحلة المقبلة، هؤلاء فقط من أريدهم كمتطوعين في بحثي، هؤلاء من سيستطيعون مساعدتنا على إجابة الكثير من الأسئلة والألغاز والجدل والغموض الذي حدث منذ عشرات أو مئات السنين، ولكني بمفردي لن أستطيع الوصول إليهم ولا أنت أيضًا لوحدك، لقد علمت ماذا فعلت في القاعة اليوم عندما طردت ذلك الأحمق الذي يظن نفسه قادم لنزهة، هذا هو ما شجعني للحديث معك بخصوص هذا الأمر، نحتاج لانتقاء من يصلح فقط لما هو قادم، هل تفهمني سيد لوكوود؟

التمعت عينا الميجور قبل أن تتسرب لشفتيه شبح ابتسامة، ثم قال:

- أظنني أفهم ما تلمح إليه دكتور جايمس، أظنني أفهمك.

▪ ▪ ▪

في تمام الساعة العاشرة مساءً تم إطفاء الأنوار في قاعات النوم، ظل كامل مستيقظًا رغم الظلام الدامس المحيط به، كانت قد بدأت عيناه على اعتياد الظلام وبدأ يرى حدود أجسام الموجودين، لم يستطع نسيان كلمات الميجور، كل منكم نسبته اثنان بالمئة وفي يدك أنت فقط زيادة تلك النسبة لصالحك، ابتسم رغمًا عنه وهو يتخيل ذلك الرقم مرسومًا أمامه فوق كل شخص من الخمسين فردًا، واحد فقط من كل قاعة سينجح فيما سيفشل فيه الآخرين، منهم السريع ومنهم مفتول العضلات والجريء والقوي، هل سيستطيع تخطي كل هؤلاء والعبور فوق قدراتهم ليصبح هو المحارب الذي يبحثون عنه، لم يكن كامل متأكدًا من ذلك، ولكنه متيقن أنه سيفعل كل ما في وسعه لتحقيق ذلك، هو لا يريد العودة مرة أخرى لحياته كما هي، كان يشعر أنه من المقدَّر له أن يكون مختلفًا عن الآخرين، جميعنا نتصرف في الحياة مثل بعض الحيوانات، البعض منا يتصرف كالدجاجة، كل ما يفعله في يومه هو الاستيقاظ مبكرًا من أجل اللهث خلف بعض المال ويظل يجري ويلهث حتى يسقط من التعب أو من ضربات الحياة له، وإن كان محظوظًا فسيحصل على بعض ساعات النوم ليبدأ بعدها يوم جديد من اللهث خلف لقمة العيش، وهكذا هي حياته كل يوم حتى يوم نهايته، والبعض الآخر من البشر مثل الضباع، لا تأنف أن تأكل الجيفة واللحم الميت، كل ما يهمها هو بقاؤها على قيد الحياة لأطول فترة ممكنة وبأي طريقة ممكنة، والبعض القليل من البشر مثل الصقور، شامخة ومهيبة وتستحق مكانة أفضل بكثير من الدجاج، هذا ما كان يشعر به كامل حينها، كان العالم يرغمه على تقبُّل دور الدجاجة وهو الأمر الذي يرفضه، هذه هي فرصته ليقول لعالمه أنه ليس كباقي البشر الذين يقنعون بالقليل حتى مماتهم، هو يستحق الأفضل وسيصل إليه يومًا ما، وهذه هي تذكرته للعبور نحو عالم الصقور، فرصته ليُحدِّد مصيره لا أن يتحدد مصيره، نظر نظرة أخيرة للنائمين في القاعة قبل أن يردد بصوت خافت محدِّثًا نفسه وكأنه يشجعها:

- أنت المختار يا كامل، أنت محارب الزمن، ولكنهم لا يعلمون ذلك بعدُ، أنت وحدك مَنْ تعلم ذلك أيها البطل.

أغمض عينيه وعلى شفتيه ابتسامة عريضة توحي بالثقة والتفاؤل الشديد، نام كامل لينتهي اليوم عند هذا الحد، مضت ساعات على نومه هو ومَنْ معه.

كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة صباحًا بقليل عندما دخل هؤلاء الأفراد الملثمين قاعة النوم، كانوا محترفين ولم يبدر منهم أي صوت وهم يتسللون بهدوء ويقف كل منهم أمام فراش واحد من المتسابقين، وقف كل منهم وهو ينظر للميجور وينتظر إشارته، نظر الميجور حوله في القاعة قبل أن يومئ برأسه معلنًا موافقته على البدء، حينها انهمرت على رؤوس النائمين، الجميع دون استثناء، دلو وراء الآخر من الماء البارد انهمر فوق رؤوس النائمين الذين شهق بعضهم بينما بعضهم الآخر انتفض من فراشه كأنه لدغه عقرب ليستيقظ الجميع على تلك المفاجأة المثلجة، حينها قال لهم الميجور بصوت تردَّد صداه في المكان:

- فلتستيقظن أيتها الفتيات، لا أملك اليوم بأكمله، أمامنا الكثير لفعله اليوم.

اقترب أحد المتسابقين من الميجور ونظر له وكأنه يوشك على ضربه، كان عملاقًا أسود ذي رأس صلعاء تلمع بفضل المياه الباردة التي تشعر وكأنها ستتحول لبخار من فرط غضبه، عملاق من الطراز الذي يُفضِّل ألا تثير غضبه على الإطلاق، اقترب من الميجور حتى أصبحت المسافة بينهما معدومة تقريبًا وقال له بغضب:

- ما هذا الهراء؟ هل جُنِنْتَ أيها الوغد؟ سوف أجعلك تدفع ثمن ذ ...

لم يستطع العملاق الأسود إكمال جملته حيث فوجئ بلكمة قوية من قبضة الميجور تتوجه نحو حلقه، وقبل أن يستطيع الرد على ما حدث والانتقام لنفسه أمسك الميجور برأس العملاق من الخلف ودفعها بقوة نحو أحد الحوائط ليسقط العملاق الأسود فاقد الوعي بدويٍّ صاخب على الأرض بقوة وكأنه جوال من الرمل لا أكثر، نظر إليه الميجور وهو يُعَدِّل من ثيابه قائلًا له:

- أنت مطرود من البرنامج، شكرًا للوقت القصير الذي قضيته معنا يا عزيزي.

ثم نظر للجميع والذين اتسعت عيونهم في دهشة مما حدث ثم قال:

- هل من شخص آخر يريد إبداء رأيه؟ أنا أحب دائمًا الآراء الجيدة.

بالطبع لم يَرُدَّ أي شخص على كلمات الميجور الساخرة، كان الجميع يفكر في الملايين التي سيربحها إن فاز بجائزة البرنامج، هذا ما جعل الجميع يصمت تمامًا معلنًا فوز الميجور في هذه الجولة، بدأ الميجور في المشي ببطء أمام المتسابقين ثم قال:

- يبدو أننا سنتفق جميعًا، أنتم هنا تحت قيادتي والأهم تحت رحمتي، إذا كنت ترى أساليبي مستفزة فلترحل الآن؛ لأنني فقط بدأت بالإحماء وما زال أمامي الكثير لفعله بكم، إذا كنت تظن أنك تستطيع الاعتراض على أي شيء أقوم به فلترحل الآن، الطائرة التي سترحل بزميلكم هذا بها الكثير من المقاعد الفارغة التي تريدكم أن تملؤوها، أنا لا أقوم بتدريب مرتزقة بل مقاتلين، مقاتلين يستطيعون السيطرة على مشاعرهم والأهم غضبهم عند اللزوم.

ثم نظر لساعة يده قبل أن يكمل:

- أمامكم نصف ساعة بالضبط للإفطار والاستعداد لتدريبات اليوم، لا أظنكم تحتاجون للاستحمام بعد هذا الحمام البارد المنعش.

انصرف الميجور بخطوات سريعة يتبعه جنوده، بمجرد أن خرج من القاعة بدأت الصيحات الغاضبة والشتائم تنهال عليه من المتسابقين، بالطبع لم يكن يملك أي شخص توجيه مثل تلك الإهانات له في وجوده، اتجه البعض نحو زميلهم الفاقد لوعيه لمحاولة إفاقته، بينما البعض الآخر اتجه لخزانة ملابسه لجلب منشفة لتجفيف نفسه، وكان من بينهم كامل، كان يقوم بتجفيف وجهه قبل أن يتوجه له منير بالحديث قائلًا:

- هل تصدِّق ذلك المعتوه؟ من يظن نفسه لفعل ذلك؟

أجاب كامل قائلًا:

- هو كما قال بالضبط، هو من يمكنه طردنا أو السماح لنا بالبقاء، كلما تقبلنا ذلك سريعًا كلما كان ذلك أفضل لنا يا صديقي.

لم يعلق منير على ما قاله كامل، فقط أكملا ما يفعلانه وقاما بتغيير ثيابهما والتوجه إلى قاعة الطعام، في طريقهما إلى القاعة

لاحظ كامل تلك الغرفة المغلقة والتي كَتِبَ عليها من الخارج (غرفة المحاربين)، اعترى كامل الفضول حول تلك الغرفة، وسأل منير الذي أجابه بقوله:

- هذه هي الهدف من وجودنا هنا يا صديقي، تلك الغرفة هي التي سينتقل إليها المحاربون الستة بعد اختيارهم، الجميع يحلم بدخول تلك الغرفة التي تعني المال والشهرة، لقد وضعوا تلك اللافتة خصيصًا لتحفيز الجميع على التدرب بقوة لنَيْل مكانهم في غرفة الفائزين، الجميع يراها من الخارج ولكن ستة فقط سيستطيعون رؤيتها من الداخل، أرجو أن أكون منهم.

أكمل كلٌّ من كامل ومنير طريقهما حتى وصلا إلى قاعة الطعام، لاحظ فور دخوله حالة السخط التي تسيطر على الجميع كما لاحظ رؤوسهم المبللة، ابتسم كامل بعدما علم أن زيارة الميجور لقاعة الأفارقة لم تكن الوحيدة، يبدو أنه زار الجميع وأعطاهم نفس الحمام البارد المنعش كما وصفه الميجور، أمسك كامل صينية فارغة وبدأ في وضع الطعام بها من الأطباق الموجودة أمامه.

جلس كلٌّ من كامل ومنير على إحدى الطاولات وبدآ في تناول إفطارهما وهما يتجاذبان أطراف الحديث، بمجرد أن انتهى وقت الإفطار بدأت التدريبات مباشرة، لم تكن بهذا السوء في البداية، كانت البداية هي تدريبات على الرماية، كانت نتائج كامل جيدة إن لم تكن ممتازة بها، بالتدريج بدأت التدريبات في الصعوبة، مثل ذلك التدريب الذي يقضي بدخول كل فرد على حِدَة لمنزل من طابقين وإصابة الأشرار مع عدم إطلاق النيران على المدنيين الأبرياء، كان اختبارًا صعبًا ولكن كامل لم يكن سهلًا هو الآخر، كان يعلم أنه يجب عليه استجماع شجاعته وتركيزه ورباطة جأشه للتغلب على هذا الاختبار، ولكنه اجتازه في النهاية، اجتازه في الوقت الذي فشل فيه الكثيرون، مع كل اختبار ومع كل يوم في المجمع العسكري كان كامل يرى الكثير من الوجوه المغادرة والحقائب المسافرة لبلدانها خالية الوفاض، كل يوم كانت الاختبارات تزداد صعوبة وقوة، وكل يوم كان يتم استبعاد المزيد من المتسابقين، هذا بخلاف المتسابقين الذين كان يتم استبعادهم بسبب نتائجهم في الاختبارات النفسية التي كان يقوم بها دكتور جايمس بارسون بنفسه، كان يقوم بالاختبارات على المتسابقين بشكل يومي وبشكل فردي، كل يوم كان كامل قبل أن يخلد للفراش يتطلع أولًا لوجوه المتسابقين المتبقين معه في القاعة، كان في البداية يرى رقم الاثنان في المئة فوق كلٍّ منهم، مع كل يوم كانت تلك النسبة تتزايد والرقم يتضاعف مع كل طرد يحدث لمتسابق جديد من القاعة، القاعة التي بدأت مزدحمة، والآن يوجد بها الكثير من الأسرَّة الفارغة التي رحل أصحابها دون عودة، كانت أيام التدريبات قاربت على النفاد وبدأت أعداد المتسابقين في الانخفاض بشدة تاركة الأمل يتزايد في قلوب وعقول الباقين منهم، وكأن كل شخص يرحل يترك خلفه الأمل الذي جاء به لباقي زملائه من المتسابقين لكي ينعموا به ويقسموه فيما بينهم كغنيمة لهم، تبقى يومان فقط على نهاية التدريبات والاختبارات، ومعه تبقى خمسون فقط من الرجال لكي يتم إعلان الفائزين منهم في البرنامج وهم محاربو الزمن الستة.

...

لن أسمح لنفسي بالفشل

وقف الخمسون رجلًا أمام أحد حمامات السباحة الكبيرة في المجمع العسكري بعتادهم كاملًا في انتظار تدريب هذا اليوم، لم يَطُل انتظارهم حيث رأى الجميع الميجور لوكوود والدكتور جايمس قادمين سويًّا بينما يطالعان بعض الأوراق، منذ بداية التدريبات لم يجتمع الميجور والطبيب في أحد الاختبارات سويًّا، ربما هذا ما أشْعَرَ الجميع بالقلق حيال اختبار اليوم، بعد لحظات وقف الميجور أمام المتسابقين المتبقين بحزم وبدأ حديثه قائلًا:

- صراحة لم أتوقع أن يصل منكم هذا العدد الكبير لهذه المرحلة، يبدو أنني قلَّلت من قيمتكم كثيرًا ولكن لا تفرحوا كثيرًا، أعلم أنه متبقي يومان فقط على نهاية الاختبارات ولكن ليعلم الجميع أن هذين اليومين سيكونان بمثابة الجحيم لكم يا سادة، لن تروا رحمة أو شفقة خلالهما، سأضغط على كل منكم بكل ما أوتيت من قوة لأرى من سينكسر منكم أولًا، تظنون أنكم أوغاد أشداء لأنكم أمامي الآن ولم أطردكم بعدُ؟ إذن فكِّروا ثانيةً وماليًّا؛ لأنكم عند نهاية اليومين سيكتشف كل واحد منكم أن مَنْ رحل أولًا كان سعيد الحظ ممن أعقبه، وبالتأكيد كان سعيد الحظ عن كل واحد منكم، هل يريد أحد منكم الانسحاب أو مراجعة نفسه للمرة الأخيرة؟ لا تريدون الانسحاب؟ حسنًا، فلنبدأ اليوم أيها السادة وليعلم الجميع أنني حذرتكم.

وبمجرد انتهاء كلمات الميجور بدأ بعض رجاله في دخول المكان وهم يجرُّون خلفهم بصعوبة عربات مليئة بالأصفاد الحديدية، أصفاد تنتهي بكرات معدنية كبيرة، بدأ رجال الميجور في ربط الأصفاد في قدم كل متسابق من الخمسين والذين أخذوا في النظر لبعضهم البعض غير مستوعبين لما يحدث، حينها تحدث الميجور قائلًا للجميع:

- ما يتم ربطها بأقدامكم الآن بينما نتحدث هي كرات معدنية تزن كل واحدة منها عشرين كيلو جرامًا، المطلوب من كل واحد منكم هو السباحة في حمام السباحة الموجود أمامكم لمسافة كيلو متر واحد، طول الحمام خمسون مترًا وعمقه عشرة أمتار، أي إن المطلوب من كل منكم القيام بعشرين دورة وهو مرتدٍ بزَّته العسكرية بكامل عتادها بالإضافة لهذا الثقل المعدني المربوط بقدمك، ولكن ليس هذا كل شيء، يجب أن تعلموا من البداية أنه لن يساعدكم أحد، إذا قررت النزول لتلك المياه لن يكون هناك أي مساعدة حتى لو واجهتك مشكلة وقررت الانسحاب، إذا قررتَ الاستسلام للجاذبية ورأيناك تسقط نحو القاع لن يهرع أحد لإنقاذك ولو حاول أحد المتسابقين الآخرين أن يصبح بطلًا وينقذك فسوف يتم طرد كليكما من الاختبارات، أتمنى أن يكون كلامي واضحًا للجميع، كل منكم سيتم تسجيل زمنه وعلى حسب ذلك سيتم إضافة النقاط لمجموعك الذي سيؤهلك للوصول حتى النهاية، ستخوضون السباق على خمس دفعات كل دفعة عشر متسابقين، فلنبدأ.

تقدم العشرة الأوائل من المتسابقين نحو حمام السباحة وهم يجرُّون خلفهم تلك الكرات الثقيلة التي تم ربطها في أقدامهم، كانت المسافة وحدها كفيلة بأن يعيد كل منهم التفكير في نزول المسبح من عدمه، ولكن غرور الرجال الذي يمنعهم من الانسحاب حتى لا يبدوا كالجبناء، وكذلك التفكير في الفوز جعل الجميع يقرر عدم التراجع رغم أن التردد كان باديًا في عيون الكثيرين منهم، وقف العشرة على طرف المسبح في انتظار الإشارة، الجميع كان متوترًا لأقصى حد، بمجرد أن أعطى الميجور الإشارة قفزوا جميعًا في المسبح، لم يصعدوا مباشرة نحو السطح لثقل ما يحملونه، ولكن بعد لحظات استطاعوا جميعًا الصعود للسطح والبدء في السباحة، البعض قرر السباحة بكل ما أوتي من قوة في البداية حتى يحصل على أفضلية منذ بداية السباق، والبعض الآخر قرر أن يقسِّم مجهوده على فترة السباق كاملة، بدأ الجميع في السباحة بينما تلك الأغلال المعدنية تجرُّه نحو الأسفل باستمرار ولكن لم يستسلم أحد، على الأقل في البداية، في النصف الثاني من السباق بدأ يبدو عليهم الإرهاق الشديد والإعياء، كانوا في البداية يبذلون جهدًا كبيرًا للسباحة، ولكنهم الآن يبذلون جهدًا أكبر لمجرد البقاء فوق سطح المياه، بدأت سرعتهم في الانخفاض الشديد بل إن بعضهم بدأ في الغوص لبضع ثوانٍ تحت الماء قبل أن يرفض الاستسلام ليصعد مرة أخرى نحو السطح، كان الميجور واقفًا عاقدًا كفَّيه كالعادة خلف ظهره ينظر لمن في المسبح دون اكتراث، كأنهم مجموعة من الفئران التي تحاول النجاة من الغرق، لم يكن مازحًا حين قال: إنه لن يتم مساعدة أحد، كان بعض مَنْ بالمسبح يعاني بشدة لمجرد إبقاء رأسه فوق المياه لالتقاط أنفاسه، ورغم ذلك لم يحرك الميجور ساكنًا، ظل على وقفته الهادئة الواثقة دون أن يفعل أي شيء، البعض منهم قرر ألا يكمل السباق فبدأ بالاتجاه نحو أقرب حافة للمسبح نحوه ليخرج من ذلك القبر المائي، خرج أول المتسابقين من الماء وهو يلهث بشدة ويرتعش لينظر له الميجور نظرة متعالية ويقول له:

- كنت أعلم أنك ستستسلم أولًا، أنت مطرود.

ثم وجَّه حديثه لرجاله قائلًا لهم في لهجة حازمة:

- خذوه إلى غرفته ليجمع أغراضه استعدادًا للمغادرة.

اتجه رجلين نحو المتسابق المنسحب ووضعوه على كرسي متحرك بعد أن حرروه من الكرة المعدنية وبدأوا في التحرك به خارج الصالة الموجود به المسبح، مع مرور الوقت بدأت أعداد المنسحبين في الازدياد، كانوا قد وصلوا لدرجة من الإرهاق تجعلهم لا يأبهون بالجائزة أو الشهرة، كانوا يكترثون فقط بحياتهم؛ لذا فقد قرروا الانسحاب من السباق والخروج من المسبح، انتهت الجولة الأولى بانسحاب ستة متسابقين وإكمال أربعة فقط للسباق كاملًا، جاء وقت نزول العشرة التاليين وكان منهم منير صديق كامل، نظر منير لصديقه قبل أن ينزل للمسبح فابتسم كامل له ابتسامة مشجعة، لم يكن يملك غير ذلك لتشجيع منير، كان يبدو التردد علي الدفعة الثانية من المتسابقين، ولكن الأمل في النجاح كان أكبر من الخوف من الفشل، تكرر نفس المشهد للمرة الثانية، نصف أول جيد ونصف آخر من العذاب والتعب والإرهاق واليأس أحيانًا، بدأ المنسحبون بالخروج من المسبح، وأكمل ثلاثة فقط مسافة السباق كاملة، وكان من بينهم منير الذي بمجرد أن خرج من المياه انهار على الأرض من التعب لتلتقطه يَدَا كامل قبل وقوعه أرضًا وهو يقول له:

- لقد نجحت يا صديقي، لقد فعلتها.

لم يعلق منير واكتفى بابتسامة مرهقة مليئة بالإعياء، ساعده كامل على النهوض ليقوم بعدها بإجلاسه على الكرسي المتحرك تمهيدًا لنقله إلى قاعة النوم ليستريح قليلًا، ونزلت الدفعة الثالثة وحدث مثل السابق، الكثير من المنسحبين والقليل من الفائزين، ثم جاء وقت نزول الدفعة الرابعة والتي كان من ضمنها كامل، وقف على حافة المسبح وهو يتأمل وجوه باقي المتسابقين المجاورين له، بعضهم كان يتنفس بصعوبة وكأنه يغرق قبل أن ينزل للمياه، وبعضهم الآخر كان يمسح عرقه الذي يتساقط منه بغزارة المطر، نظر كامل للمياه وتنفَّس بعمق وأغمض عينيه وهو يقول لنفسه:

- يجب أن أنجح، لن أسمح لنفسي بالفشل، لن أتخلى عن حلمي، لن أفشل.

حينها انطلقت إشارة الميجور، قفز الجميع للمياه التي أصبحت تحمل الكثير من اليأس والإحباط الذي سقط من زملائهم قبلهم

في تلك المياه التي تشبَّعت بتلك المشاعر، قفز كامل وهو مصمِّم على إنهاء السباق مهما شعر بالتعب أو تملّكه الإرهاق، شعر كامل منذ البداية بهذا الثقل الرهيب الذي صنعته ملابسه وتلك الكرة الحديدية اللعينة، ولكنه صعد لسطح المياه وبدأ في السباحة بسرعة معقولة، لم يكن يهمه أن يكون الأول ولكن ما يهمُّه هو إنهاء السباق، سبح بكل ما أوتي من قوة وهو يشعر بأن كل حركة من يده هي بطولة في حد ذاتها، كان يجبر يديه على التقدم للأمام حتى لو لم تَقْوَ على ذلك، بعد وقت بَدَا كالدهر انتهى النصف الأول من السباق وبدأ التعب يحلُّ بالجميع، من هنا فصاعدًا لم تعد القوة هي المسيطرة على مجريات اللعبة ولكنه التصميم على إنهاء ما بدأوه، بدأ الرجال في التساقط واحدًا تلو الآخر، والاستسلام للتعب الذي حلَّ بالجميع دون استثناء، في الدورة الأخيرة لم يتبقَّ سوى أربعة رجال كان كامل في مقدمتهم، كامل الذي كان حرفيًّا يجبر يديه وقدميه على عدم الاستسلام، لم يتبقَّ لديه سوى بضع عشرات من الأمتار وينتهي كل هذا التعب والإعياء، حينها لاحظ ما يحدث على بُعْدِ أمتار أمامه للمرة الأولى، كان المتسابق الأول غير قادر على المقاومة أكثر من ذلك، حتى إنه لم يعد قادرًا على الوصول لأي حافة للمسبح حتى يخرج منه، كانت رأسه تخرج للحظات قليلة خارج المياه ولحظات طويلة تحتها نتيجة الأثقال التي يحملها، كان الرجل يغرق بالفعل دون أن يملك أي فرصة للنجاة، توقفت قدماه عن العمل تمامًا، نظر كامل إليه ليجد الرجل يختفي تحت المياه ولا يظهر مرة أخرى، توقف كامل عن الحركة رغم إعيائه الشديد ونظر باتجاه الميجور الذي كان يرى كل ما يحدث دون أن يفعل أي شيء لإنقاذ المتسابق، كان ينظر له وكأنه يستجديه بإنقاذ الرجل من الغرق، ولكن الميجور ظل كما هو بنظراته الباردة الخالية من المشاعر، كان كامل يعلم أنه إن حاول إنقاذ الرجل سيتم طرد كليهما من الاختبارات، حينها ظهرت في عقله تلك الصور التي لا يود رؤيتها، صورته وهو يعود خاوي الوفاض لحياته التي لطالما تمنى تغييرها، ولكن في نفس الوقت رأى صورته وهو يرجع منتصرًا ثريًّا بعد أن ربح الكثير من المال ولكن خَسِر الكثير من إنسانيته وآدميته إن ترك ذلك الرجل يغرق أمامه دون أن يحاول مساعدته، نظر أمامه ليرى أن الرجلين الآخرين قد وصلا بالفعل لنهاية السباق معلنين فوزهما فيه، لم يحاولا التوقف أو مساعدة الرجل الذي يصارع الغرق، كان يعلم أنه سيخسر كل شيء سعى لتحقيقه ولكنه لم يكن على استعداد لخسارة نفسه؛ لذا فقد بدأ في السباحة رغم إرهاقه صوب الرجل الأخير بالمسبح وأمسك بسترته ليجذبه فوق سطح المياه، كان الأمر شاقًّا بحق خاصة مع المجهود الذي بذله حتى الآن، كان عليه في البداية أن يسبح بكل الأثقال التي يحملها والآن عليه السباحة بالرجل الآخر بكل ما يحمله هو الآخر، كانت عشرون مترًا فقط هي المسافة المطلوبة منه للوصول لنهاية السباق، ولكنها بَدَتْ له وكأنها بالكيلومترات، ولكن في النهاية استطاع اجتيازها وخرج من الماء وقام بشدِّ الرجل الآخر الذي لم يكن يتحرك على الإطلاق، بسرعة بدأ كامل في فك سترته العسكرية ليقوم بعمل تنفس صناعي للرجل الموشك على الموت، ولكن أسرع نحوه بعض المسعفين بأجهزتهم الطبية، جلس كامل أرضًا وهو يحاول بصعوبة التقاط أنفاسه ولكن عينيه كانتا على المسعفين الذين يحاولون إنقاذ الرجل، مرت دقائق قليلة قبل أن يسعل الرجل بشدة ويُخْرِج من فمه كمية كبيرة من المياه، حينها فقط سمح كامل لنفسه بالاستلقاء على ظهره وهو يبتسم، سمع أحد المتسابقين يقول بسخرية: يا لك من أحمق! لم يعلق عليه كامل لعدم قدرته على الجدال، ربما كان أحمق ولكنه على الأقل ما زال إنسانًا ويستحق أن تُطْلَقَ عليه تلك الصفة؛ صفة الآدمية.

قام رجلان من رجال الميجور بمساعدة كامل على الجلوس على المقعد المتحرك ليتم نقله إلى غرفته، استوقفهم الميجور بإشارة من يده ووقف أمام كامل ونظر له مطولًا قبل أن يسأله:

- هل تعلم ماذا فعلتَ في نفسك؟

نظر له كامل نظرة تحدٍّ واضحة قبل أن يجيبه:

- نعم أعلم، لقد طردت نفسي من اختباراتك الغبية.

بَدَا شبح ابتسامة على وجه الميجور قبل أن يعاود سؤال كامل:

- ولِمَ فعلتَ ذلك؟ لقد كنتَ في المركز الثاني وعلى وشك أن تصبح في المركز الأول إذا تركتَ ذلك المتسابق لمصيره وكنتَ ستنهي السباق في زمن ممتاز، لماذا أطحتَ بكل ذلك من أجل رجل لا تعرفه؟ رجل لم يكن ليفعل معك مثل ما فعلت معه.

رد عليه كامل باقتضاب:

- لأن ما فعلته هو الصواب، هذا سبب كافٍ بالنسبة لي.

لم يعلق الميجور، ظل صامتًا في الوقت الذي بدأ رجاله في دفع المقعد المتحرك ليذهبوا بكامل نحو قاعته لنَيْل قسط من الراحة، في منتصف المسافة وقبل خروجه من المكان سمع كامل صوت الميجور ينادي عليه، استدار بالمقعد ليواجه الميجور الذي ابتسم وقال له:

- لقد قلت إنك طردت نفسك، أنت لا تملك ذلك، وأنا لم أقل: إنك مطرود، على الأقل ليس بعدُ، ستكمل الاختبارات لأنك بالنسبة لي نجحت وبامتياز في اختبار اليوم، فلتَنَلْ قسطًا من الراحة الآن وسنتحدث لاحقًا.

انتهى الاختبار بالنسبة لكامل ولكنه لم ينتهِ لعشرة متسابقين يمثلون الدفعة الخامسة والأخيرة في السباق، ولكن حالة كامل لم تكن تسمح له بمشاهدة هذا السباق الأخير، لقد عاصره بنفسه منذ لحظات ويعلم ما هم مقبلون عليه بالضبط، اتجه بمساعدة رجال الميجور لقاعة الأفارقة ليستريح من عناء ما عاناه منذ قليل، على الرغم من سعادته بعدم طرده من المسابقة ولكنه لم يفهم سبب ذلك، لقد كانت تعليمات الميجور واضحة وهو على ما يبدو عليه ليس رجلًا من الذين يحنثون بوعودهم، ولكنه الآن وفي حالته تلك لم يكن يملك رفاهية التفكير، فقط استرخى على المقعد المتحرك حتى وصوله إلى القاعة، التي أصبحت خالية تقريبًا من جميع أفرادها، القاعة التي أصبحت كالمدينة المنكوبة التي هجرها أهلها تاركين خلفهم أحلامهم وذكرياتهم بلا رجعة، فور دخوله القاعة تهلَّلت أسارير منير رغم إعيائه عند رؤيته لكامل، لم ينطقا حرفًا ولم يحاولا فعل ذلك حتى، فقط اكتفى كل منهم بالابتسام، ابتسامة منتصرة مليئة بالتعب، ابتسامة قالت كل شيء يمكن أن يقال بينهما، تمدد بل يمكننا القول ارتمى كامل على الفراش وأغلق عينيه للحظات وهو مستمتع بانتصاره على الأقل انتصاره هذه الجولة، حين فتح عينيه وتطلَّع للقاعة رأى المشهد، مشهد الرجال الخاسرين وهم يحزمون أمتعتهم في أسى واضح وببطء يوحي بمقدار المرارة التي يشعرون بها الآن، بعضهم لم ينتهِ بعدُ وبعضهم الآخر انتهى وظل جالسًا على فراشه ممسكًا وجهه بيديه وهو غير مصدِّق أن الحلم انتهى اليوم وبهذه القسوة، لم يكن هناك سوى اثنين من الفائزين بخلاف منير وكامل، مسترخيان في فراشهما يستمتعان بالنصر المؤقت الذي حدث اليوم، ما هي إلا لحظات حتى غرق كامل في سبات عميق جراء الإرهاق الذي يعصف به، الإرهاق واسترخاء الانتصار جعلاه يغيب عن الوعي لساعات لا يعلم عددها، ما يعلمه هو تلك اليد التي أخذت تحركه برفق ليستيقظ، عندما فتح عينيه وجده منير الذي ابتسم في وجه كامل بمودَّة وقال له:

- يؤسفني أن أوقظك ولكن الميجور يطلبك في مكتبه الآن، استفِقْ واغسل وجهك واتجه إليه لترى ماذا يريد ذلك العجوز.

أومأ كامل برأسه وبدأ في القيام ببطء من فراشه، كانت عضلاته ما زالت تؤلمه من مجهود الصباح، ولكنه كان في حال أفضل بكثير من ذي قبل، نهض وما هي إلا دقائق وكان كامل يطرق باب مكتب الميجور الذي سمع صوته من الداخل يأذن له بالدخول، فتح الباب ليجد كلًّا من الميجور والدكتور جايمس يجلسان على الأريكة الموجودة يمين المكتب ويناقشان بعض الأوراق الموضوعة أمامهما، أغلق كامل الباب وانتظر للحظات أن يتحدث الميجور في سبب طلبه إياه، ولكن لم يحدث شيء، وكأنه غير موجود، لم يتوقف العجوزان عن مناقشة الأوراق، طال انتظار كامل الذي ظل واقفًا دون حراك لعدة دقائق، كان يشعر بالإهانة، وكأن الميجور جاء به هنا فقط لكي يهينه على ما فعله صباحًا، ولكن رغم ذلك لم يحاول إصدار صوت أو الاعتراض على وقوفه بهذه الطريقة أمامهما وكأنه تلميذ فاشل أمام ناظر مدرسته، كان يشعر بأن الميجور يريد استفزازه ولكن كامل لم يكن من ذلك النوع سريع الغضب؛ لذا قرر الصمت والانتظار.

مرت خمس دقائق بالضبط على وجوده في غرفة المكتب عندما وجد الميجور ينظر في ساعة يده ويقول للطبيب:

- يبدو أنني خسرت الرهان بالفعل دكتور جايمس، لم ينفعل أو يحتج على وقوفه أمامنا تلك الدقائق دون أن تُعيره اهتمامنا، يبدو أنك محق في رأيك عنه دكتور.

ابتسم الأخير وهو ينظر لكامل نظرة إعجاب واضحة، نهض الطبيب من مكانه ليصافح كامل بحرارة وهو يقول له:

- تفضل بالجلوس من فضلك.

جلس كامل على أقرب مقعد له، بينما تابع الطبيب حديثه قائلًا:

- أعلم أن لديك الكثير من الأسئلة التي تدور بذهنك الآن، في البداية أود أن أعتذر لك على تجاهلنا إياك لتلك الدقائق ولكنني راهنت الميجور على ذلك، قلت له: إن رأيي النفسي بخصوصك أنك لست من الأشخاص سريعي الانفعال والعصبية، بينما كان الميجور يخالفني الرأي؛ لذا كنت بحاجة لإثبات رأيي ولم أجد أفضل من تلك الطريقة وها أنت برهنت لكلينا على أنني لم أكن مخطئًا بشأنك، ثانيًا أريد أن أسألك سؤالًا قبل أن نكمل حديثنا عن سبب إحضارك الآن، لِمَ قمت بإنقاذ هذا الشاب في المسبح اليوم، أنت لا تعرفه ولا تعلم أي شيء عنه.

أجابه كامل قائلًا:

- اعلم أنه إنسان وهذا يكفي، في البداية لم أكن أريد فعل ذلك، كنت أعلم أنني سيتم طردي من المسابقة، صدقني لم أفعل ذلك لأكون بطلًا أمامه أو أمام نفسي، ولكني فعلت ما لم يُردْ شخص آخر فعله، كنت أتمنى أن يتدخل الميجور لإنقاذه ولكنه لم يفعل؛ لذا فعلت ما يجب عليَّ فعله، حتى لو كلفني ذلك مكاني في المسابقة.

هنا تدخل الميجور في الحديث قائلًا:

- وهذا بالضبط ما جعلك تتفادى الطرد من المسابقة، أنك عصيت أمرًا مباشرًا مني لكي تفعل ما تراه صوابًا، لقد أنقذت حياة ذلك الرجل رغم علمك لما سوف تخسره، لقد أردت ذلك منك اليوم، كنت أعلم أن السباق شاق للغاية وأن الكثيرين لن ينجحوا باجتيازه، قلت لكم: لا تحاولوا إنقاذ أحد ولكن في الحقيقة كنت أتطلع لأن أراكم تفعلون ذلك، أن تعصوا أوامري في سبيل ما هو صواب، في زمن المعركة لن تنجو بفضل اتباعك للتعليمات والأوامر الصادرة إليك بحذافيرها، ولكنك ستنجو بفضل ما تراه مناسبًا وصحيحًا في ساحة المعركة، ما فعلته اليوم هو ما كنت أريده حقًّا منكم، أن تفعلوا الصواب مهما كلفكم ذلك، ولكن للأسف لم يفعله غيرك اليوم، أنت هنا ولم ترحل لأنك فعلت ما كنا نريده منك، أن تتبع عقلك وقلبك لا أن تتبع حفنة من الأوامر التي قد تكلف أحد رجالك أو زملائك حياته، أنا ودكتور جايمس متفقان على أننا لا نريد مرتزقة يطمعون فقط في المال والملايين التي سيدرُّها عليهم البرنامج، ولكننا نريد مقاتلين حقيقيين يعلمون ما يجب فعله عند مواجهة مأزق حقيقي يتعلق بأقرانه في أرض المعركة.

لم يعلق كامل على ما قاله الميجور، فقط اكتفى بالصمت ولكن في داخله كان يشعر بالرضا عن نفسه، أخرجه الطبيب من تفكيره حين قال له:

- كامل، أنا أريد أشخاصًا على شاكلتك في البرنامج، كل من تم إقصاؤهم حتى الآن لم يستحقوا الوجود هنا من الأساس ولكنك من القلائل الذين استحقوا مكانهم بيننا، أتمنى بحق أن تستطيع إكمال الاختبارات والوصول حتى النهاية؛ لأننا نحتاجك هناك، حين تبدأ المعركة الحقيقية، صدقني، ربما أنت لا تشعر بذلك بعدُ ولكنك تحمل في داخلك صفات القائد الذي يمكنه إنجاح المهمة، يمكنك الآن الانصراف؛ لأن غدًا ينتظرك آخر يوم من الاختبارات، وأتمنى بحق يا بنيَّ أن تجتازه.

ابتسم كامل ابتسامة قصيرة قبل أن ينهض ويستأذن من الميجور في الانصراف، أمسك كامل مقبض الباب في طريقه للخارج عندما أتاه صوت الميجور مناديًا اسمه:

- كامل، إن لم تقدم اليوم على إنقاذ زميلك الذي أوشك على الغرق لكان هرع رجالي لإنقاذه، لم أكن لأتركه يموت، أنا لست وغدًا عديم الرحمة كما تظن، ولكنني أحب أن يشعر الرجال تحت إمرتي بذلك حتى أستطيع السيطرة عليهم.

غادر كامل المكتب بينما تعلو وجهه ابتسامة عريضة، كان يشعر حتى قبل انتهاء الاختبارات أنه قد أصبح بالفعل واحدًا منهم، واحدًا من محاربي الزمن.

▪ ▪ ▪

اليوم الأخير

اليوم الأخير، نهاية ذلك الطريق الطويل الذي سلكه الكثيرون، منذ فترة قليلة كان يوجد في هذا المجمع العسكري ثلاث مائة حلم، ثلاث مائة طموح وأمل متجسدين في ثلاث مائة شخص من جميع أنحاء العالم، الآن انخفض كل ذلك لستة عشر فقط، وقف من تبقى من المتسابقين أمام الميجور مرتدين ثيابهم العسكرية السوداء، ستة عشر يحلمون نفس الحلم ولكن من سيرى الحلم يتحول لحقيقة هم ستة منهم فقط، أخذ الميجور يمشي أمامهم ببطء وينظر إليهم، كان يشعر بالتوتر والقلق الذي يغلي ويتصاعد داخل عروقهم، ولكنهم كانوا يحاولون إخفاء ذلك، بعد فترة من الوقت بدأ الميجور بالتحدث.

- اليوم هو يوم الحقيقة، اليوم الذي سيعلم كل واحد منكم مكانه الحقيقي بيننا، عشرة منكم سيرحلون كما رحل زملاؤهم والباقي هم من سيحملون الاسم، الاسم الذي تجمَّعنا بسببه وله اليوم، الاسم الذي فعلتم الكثير لكي تحملوه، اسم محارب الزمن، قبل أن نبدأ أريد أن أقول لكم: إن بعض محاربي الزمن قد تم اختيارهم بالفعل بغض النظر عن اختبار اليوم، بعضكم قد حمل بالفعل ذلك اللقب حتى لو فشل اليوم، ولكن لن يتم إعلانه فائزًا الآن، سيدخل الاختبار مثل الجميع وسيعاني مثل الجميع، أنتم أفضل المتسابقين حتى الآن، فليفزْ أفضل الأفضل.

بدأ رجال الميجور في توزيع الأسلحة على المقاتلين بينما صوت الميجور يقول لهم:

- في هذا الاختبار ستتعلمون كيفية العمل الجماعي، سيتم تقسيمكم لأربع فرق من أربع أشخاص، ستدخلون ذلك المنزل الموجود أمامكم لإنجاز الاختبار الذي يتلخص في حماية زملائك، سيهاجمكم رجالي في الداخل بكل ضراوة، لن يرحمكم أحد ولن يتوانى رجالي عن محاولة سحقكم، هدفكم هو حماية أنفسكم وباقي أفراد الفريق، من سيفشل في واحدة من المهمتين سوف يلحق بمن رحل من قبل، أي متسابق ستتم إصابته من رجالي سيخرج مباشرة من المسابقة، وسيتم خصم نقاط من فريقه الذي فشل في حمايته، عندما يصبح الفائزون منكم محاربي الزمن ستعلمون فائدة ذلك الاختبار، لن تستطيع النجاة دون باقي فريقك، لن تنجو إلا عندما تتأكد أن زميلك سيضحي بحياته من أجلك، كما ستضحي بحياتك من أجله، كل فريق أمامه عشر دقائق للقضاء على عشر من أفضل رجالي بالداخل، تذكروا أن هذه تذكرتكم الأخيرة لنيل الجائزة التي جئتم من أجلها، فلنرى ما أنتم قادرون على فعله.

بدأ الفريق الأول في الاستعداد للدخول للمنزل، كان كامل من ضمن ذلك الفريق، تَنَفَّس بعمق قبل أن يشدَّ أجزاء سلاحه ويتحرك مع باقي الفريق نحو المنزل، حينها جاءهم صوت الميجور الساخر في السماعات المتصلة بآذانهم:

- عذرًا أيها السادة، يبدو أنني نسيت أن أخبركم شيئًا، إنه ليس بالأمر الجلل ولكني لا بد أن أخبركم كما تقتضي القواعد، الطلقات التي ستُطْلَقُ عليكم في الداخل بعضها طلقات حقيقية، هذا يعني مزيدًا من المخاطرة لكم ومزيدًا من المتعة لي، فلتحترسوا جيدًا حتى لا تكون رحلتكم للمنزل باتجاه واحد دون عودة، صيدًا موفقًا.

نظر الرجال خلفهم ليجدوا تلك الابتسامة الساخرة تملأ وجه الميجور الذي كان ينظر باتجاه عدد من شاشات الحاسب الآلي والتي تنقل له ما يحدث داخل المنزل عبر كاميرات المراقبة الموجودة بالداخل، بدأ الرجال في الدخول من الباب الأمامي بحذر، كان المكان صامتًا كالقبر، ولكنهم كانوا يعلمون أن هناك عشر بنادق تنتظر اصطيادهم كحيوانات في الغابة.

في الخارج كان الطبيب العجوز ينظر للشاشات في قلق قبل أن يقول للميجور:

- هل تظن أنه سينجح في ذلك الاختبار؟

أشعل الميجور سيجاره وأخذ نَفَسًا عميقًا منه قبل أن يجيب:

- إنه فتى صلب وسينجح، أعلم ذلك.

قبل أن تمر العشر دقائق رآهم الميجور يخرجون من المنزل، شتان ما بين مشاعرهم المتوترة والمتحفزة وهم يدخلون المنزل وبين مشاعرهم الآن البادية على وجوههم وهم يخرجون منتصرين والسعادة تغمر وجوههم المرهقة، اقترب كامل من الميجور قبل أن يقول له بثقة:

- لقد قضينا على الأعداء داخل المنزل يا سيدي، لكن أظن بعضهم يحتاج لبعض العناية الطبية، على الأقل لكبريائهم الذي أصيب بشدة.

ابتسم الميجور ابتسامة قصيرة قبل أن يعطي الأمر للفريق الثاني بالدخول، وبينما يهمُّ الفريق بدخول المنزل اقترب كامل من الميجور، وقال له بصوت خافت:

- أعلم أنه لا توجد رصاصات حقيقية بالداخل، ولكنني لم أبُحْ بذلك حتى لا أفسد مفاجآتك، أنت لست وغدًا عديم الرحمة سيدي الميجور.

دون أن ينظر له الميجور سأله:

- وما الذي جعلك تتأكد من ذلك؟

أجابه كامل:

- بينما رجالك يطلقون علينا الرصاص بكثافة في الداخل اصطدمت بعض الطلقات بالحائط بجواري، لم يلحظ ذلك غيري، كان الجميع منهمكًا في القتال، ولكنني حينها رأيت تلك البقعة الحمراء التي تكونت على الحائط، إذن هي ليست طلقات حقيقية، هي فقط طلقات تحوي طلاءً أحمر وربما بعض المخدر لإقناع المتسابقين بأن الطلقات حقيقية وقاتلة، إما ذلك وإما أن معجزة ما حدثت جعلت الحائط يدمي.

نظر الميجور نحو كامل الذي كان واثقًا من نفسه أكثر من أي وقت مضى، ربما بسبب انتهاء الاختبارات، أو ربما بسبب ثقته في الفوز بلقب محارب الزمن، ولكنه كان فعلًا مستعدًّا لأن يكون محاربًا من محاربي الزمن.

انتهى الاختبار الأخير بخروج الفريق الرابع من المنزل ليقف الجميع أمام الميجور الذي قال لهم:

- حسنًا، كنتم ستة عشر متسابقًا، والآن أصبحتم تسعة، فشل سبعة منكم في الاختبار في الداخل وتعرضوا للإصابة، هؤلاء السبعة فليذهبوا الآن استعدادًا للرحيل، لقد كافحتم بطريقة مشرفة للوصول للنهاية، أنا آسف حقًّا لرحيلكم الآن.

ثم نظر الميجور لباقي الرجال قبل أن يقول لهم:

- أعلم ما يفكر فيه بعضكم الآن، لقد قلنا من قبل: إنه سيكون هناك متسابق من كل قارة ليمثلها في البرنامج، وأنتم تسعة تمثلون ست قارات، معنى ذلك أن بعضكم قد نجح بالفعل في الوصول للقب محارب الزمن؛ لأنه أصبح المتسابق الوحيد من قارته، وهذا يعني حصوله على لقب محارب الزمن، هؤلاء الأشخاص هم ليوناردو سانتي عن قارة أمريكا الجنوبية، مانويل جوميز عن قارة أمريكا الشمالية، والثالث هو ممثل قارة أستراليا المدعو هاريسون بيكر.

بمجرد أن قال الميجور اسمه صاح هاريسون في انتصار:

- نعم أيها الأوغاد، يمكنكم أنتم الستة أن تنتظروا الرابح والخاسر منكم ولكنني لن أنتظر، أنا محارب الزمن القادم أيها الملاعين.

أما مانويل فلم يعلق بأي شيء، فقد كان يحاول جاهدًا السيطرة على مشاعره أمام الجميع، لقد اجتهد كثيرًا وتحمَّل فوق طاقته لكي ينجح في الاختبارات، بينما كان الجميع يضع المال نصب عينيه كان هو يضع ولده أمامه طوال الوقت حتى يتم إجراء تلك العملية له والتي ستنقذ حياته، بينما ظل ليوناردو في مكانه دون حركة، بالنسبة له كانت تلك خطوة أولى فقط نحو ما يريده، ولكن ما زال الكثير ينتظره ليكمل مهمته، ويثبت لنفسه أنه أكثر من مجرد ابن جنرال كبير في الجيش.

...

- لا يمكننا السماح لهذا المأفون بأن يصبح جزءًا من الفريق، لن أسمح بذلك.

خرجت تلك الكلمات بمنتهى الغضب من الطبيب العجوز وهو في ذلك الاجتماع الذي سيتم فيه تحديد باقي محاربي الزمن، كان في قمة سخطه؛ لذا لم يحاول السيد هاوارد استفزازه لحاجته إليه، تحدث الأخير بصوت هادئ ليقول:

- دكتور جايمس، لقد كانت شروطنا واضحة منذ البداية، سيتم اختيار متسابق عن كل قارة من القارات، وهاريسون بيكر هو الوحيد الذي ظل حتى النهاية عن قارة أستراليا، ولا يمكن الآن تغيير القواعد التي وضعناها لمجرد أنك لا توافق عليه، قرار مثل هذا سيدمر مصداقيتنا وسيفتح علينا أبواب الجحيم من الإعلام وحتى حكومة بلده.

- بل ستُفْتَحُ علينا تلك الأبواب إنْ سمحنا له أن يكون أحد المحاربين، شخص مثل هذا يستطيع تدمير كل شيء بمنتهى السهولة، يجب علينا اختيار من يستحق حقًّا أن يصبح أحد محاربي الزمن.

حينها سأله السيد هاوارد:

- وهل اختيار مريض بالسرطان اختيار أمثل دكتور جايمس؟

- ماذا تقصد بذلك؟

- أقصد سليم أكمل، لقد اخترته بنفسك ليكون ممثلًا لقارة آسيا رغم علمك أنه مريض ويحتضر، هل هو اختيار أمثل كما تقول؟

- بالنسبة لي هو كذلك، الغرض من التجربة هو معرفة ردود أفعال كل فرد من المتسابقين خلال رحلة وعيهم للماضي، سليم أكمل هو فعلًا مريض بالسرطان وهذا ما يجعله اختيارًا مناسبًا للتجربة، ليس من أجل صحته ولكن من أجل دوافعه، هو يفعل ذلك من أجل تأمين المال لعائلته بعد وفاته، وهذا هو ما أبحث عنه بالضبط، اختلاف الدوافع للمشاركين في التجربة يعني اختلاف ردود أفعالهم أثناء رحلة وعيهم للماضي، كما أن السيد أكمل قد أبلى بلاءً حسنًا في التدريبات التي أشرف عليها الميجور، أنا لا أعرفه معرفة شخصية كي تتهمني بمحاباته سيد هاوارد، ولا تنسَ أنك قلتَ بنفسك أنك لن تتدخل في اختياراتي للمحاربين.

هنا تحدث الميجور للمرة الأولى منذ بداية الاجتماع قائلًا:

- عذرًا على مقاطعتي لحديثكما، ولكن أظن أنه يمكن الوصول لتسوية ما ترضي كليكما.

نظر إليه كلٌّ من الدكتور جايمس والسيد هاوارد في انتظار ما سيقوله الميجور الذي تابع حديثه قائلًا:

- السيد هاوارد معترض على الرجل التركي ودكتور جايمس معترض على الأسترالي، أليس كذلك؟ لذا أظن أنه من الأفضل إشراك الاثنين محاولةً لترضية الجميع، حينها سيحصل الدكتور على الرجل التركي كما يريد، ومن خلاله يقيس ردود أفعال مريض يحتضر وكيفية تأثير ذلك على ما سيفعله عندما تبدأ التجارب، وفي نفس الوقت يحصل السيد هاوارد على رجله الأسترالي الذي يحتاجه حتى لا تقع مشاكل للشركة وللبرنامج نحن في غنى عنها كما يقول، ما رأيكما يا سادة في هذا الاقتراح؟

صمت كلٌّ من الرجلين قليلًا قبل أن يقول الطبيب:

- على الرغم من رفضي لمشاركة هذا المتعجرف الأسترالي في التجارب، ولكنني موافق على هذا الحل إن كان سيعني مشاركة سليم أكمل في التجارب.

نهض السيد هاوارد من مقعده ومدَّ يده لمصافحة الطبيب وهو يقول بينما الابتسامة تعلو وجهه:

- وأنا أيضًا موافق على ذلك أيها الطبيب العبقري حتى لا تتهمني بتصلب الرأي، الآن قد حصلنا على أربعة متسابقين، يظل فقط اثنان أيها الطبيب لاختيارهم، فلتنتهي من ذلك سريعًا لكي نبدأ أكبر وأروع برنامج وتجربة في العالم بأَسْرِه، لكي نبدأ محارب الزمن.

▪ ▪ ▪

ستة محاربون

جلس التسعة متسابقين المتبقين في القاعة التي شهدت من قبل مجيء الثلاث مائة متسابق منذ عدة أيام، نظر بعضهم إلى الصفوف المتراصَّة من المقاعد الخالية التي كانت ممتلئة عن آخرها منذ أيام، كان الجميع في انتظار كلّ من الميجور والطبيب، على الأقل كان ينتظرهما ستة، أما الثلاثة الذين تأكدوا من مشاركتهم في المسابقة فكانوا لا يأبهون كثيرًا بما سوف يحدث في الدقائق المقبلة، ولا داعي لأن يقلقوا بخصوص أي شيء، بعد فترة مرت كالدهر على المتسابقين الستة دخل الميجور ودكتور جايمس القاعة وهم يتطلعون في وجوه الجميع: اثنان من أفريقيا هما: كامل ومنير، اثنان من قارة أوروبا، وآخرين من قارة آسيا، نظر الميجور نظرة أخيرة للجميع قبل أن يقول بصوت هادئ:

- قبل أن أبدأ بتسمية من نجحوا في الاختبارات ووصلوا إلى ما جاؤوا من أجله أريدكم جميعًا أن تعلموا أنه كان مدعاة لسروري أن أقوم بتدريبكم جميعًا، لقد رأيت هنا معكم كم أن العزيمة والإصرار على النجاح قد يفعلا المستحيل، بالنسبة لي كلكم فائزون، أعلم أن ثلاثة منكم سيعتبرون أنفسهم خاسرين وأنهم سيلحقون بمن سبقوهم بنفس العار واليأس والإحباط، ولكن دعوني أقول لكم: إنكم مخطئون، من سيرحل اليوم سيرحل لأننا مضطرون لذلك، ولو كان الأمر بيدي لأصبحتم جميعًا من محاربي الزمن.

ثم نظر إلى هاريسون الأسترالي الذي بَدَا مسترخيًا وهو يضع ساقيه على المقعد الموجود أمامه قبل أن يقول باشمئزاز واضح:

- لو كان الأمر بيدي لأقصيت أحدكم على الأقل وأدخلت شخصًا آخر يستحق ذلك المكان بدلًا منه.

نظر هاريسون حوله بطريقة ساخرة قبل أن ينظر مجددًا للميجور ويقول:

- هل تقصدني أنا؟ لقد فطرتَ قلبي أيها الميجور، فطرته حقًّا.

ثم ضحك ضحكة عالية ساخرة ملأت أرجاء القاعة، لم يعلق الميجور على تصرف هاريسون وأكمل حديثه للجميع:

- والآن مع اللحظة التي تنتظرونها جميعًا، على الأقل ستة منكم ينتظرونها.

ناول الطبيب الملف الذي كان يحمله للميجور الذي فتحه وبدأ في إعلان الأسماء بصوت قوي:

- المتسابق الأول هو توماس يانسن عن قارة أوروبا.

لم يَبْدُ الكثير من التأثر على وجه توماس وكأنه كان متوقعًا لفوزه، فقط اكتفى بالوقوف والانحناء بطريقة مسرحية أمام الجميع وكأنه يحيي جمهوره غير الموجود ثم جلس دون أدنى كلمة منه وكأن شيئًا لم يحدث.

- المتسابق الثاني هو سليم أكمل عن قارة آسيا.

لم يقف سليم كما فعل سابقه ولكن عينيه اتسعتا في سعادة قبل أن تمتلئ بدموع صامتة معبرة عما يجيش في صدره الآن، نظر للميجور والطبيب وهز رأسه مبتسمًا وكأنه يقول لهما شكرًا على منحي تلك الفرصة.

- المتسابق الثالث والأخير هو كامل يوسف عن قارة أفريقيا.

تنهَّد كامل تنهيدة ارتياح طويلة وأرجع رأسه إلى الخلف وأغلق عينيه، بينما الابتسامة الهادئة تتكوَّن ببطء على شفتيه.

- هؤلاء الثلاثة بالإضافة للثلاثة الذين فازوا من قبلُ هم محاربو الزمن، اليوم راحة بالنسبة إليهم للاحتفال بما حققوه حتى الآن، وغدًا سيتم عمل اجتماع لهم لإطلاعهم على تفاصيل البرنامج، أما الذين لم يفوزوا معنا أود أن أقول لهم: إنكم لم تخسروا كل شيء كما تظنون، لقد تم الاتفاق مع الشركة الراعية للبرنامج على حصول كل منكم على مئة ألف دولار أمريكي نظير مجهودكم الرائع في الاختبارات، معنى ذلك أن مجهودكم لم يذهب سُدًى بالكامل، ولكنكم ستضطرون للبقاء معنا لمدة يومين إضافيين لإنهاء بعض الأوراق قبل حصولكم على المال الذي استحققتموه بشرف، أما بالنسبة للمحاربين فسيتم نقلكم إلى الغرفة الخاصة بكم حتى يتسنى لكم التعرف على بعضكم بعضًا قبل بدء البرنامج، أنتم فريق واحد منذ تلك اللحظة ويجب أن تبدأوا التعامل على هذا الأساس، الآن يمكنكم الانصراف يا سادة.

بدأ المتسابقون في النهوض من مقاعدهم للاتجاه خارج القاعة، نهض منير وضمَّ إليه كامل في حب حقيقي وهو يقول له:

- مبارك لك يا صديقي، أنت استحققت ذلك المكان فلا تفرط فيه.

ربَتَ كامل على ظهر منير وهو يحتضنه قبل أن يقول له بصوت خافت:

- لا أعلم حقًّا ماذا يجب أن أقول يا منير، أعلم أنك كنت تريد الـ ...

قاطعه منير بقوله:

- لا تقل شيئًا يا صديقي، لقد فاز الأفضل وكان عربيًّا مثلي وهذا يكفيني، يكفيني أن من فاز هو أنت، ثم لا تنس أنني لم أخرج خالي الوفاض تمامًا، لقد ربحت مئة ألف دولار لم أكن أتوقعهم، ما يؤلمني حقًّا أنني سأفتقدك بعد رحيلي ولكنني سأتابعك أولًا بأول وأدعو لك بالتوفيق فيما أنت مقبل عليه، صدِّقني ستحتاج الكثير من الدعوات حينما يبدأ الاختبار الحقيقي، والآن هيا بنا لنحتفل بك، لقد أصبحت من محاربي الزمن، وهذا يستدعي الاحتفال أيها المحارب العربي.

حَزَمَ كامل أمتعته استعدادًا للذهاب إلى غرفة المحاربين، يا له من اسم سعى إليه جاهدًا، كان ينتظره أحد رجال الميجور ليرشده لمكان غرفته الجديدة الآن، انتهى من حزم الأمتعة وسار خلف الرجل حتى وصل إلى باب الغرفة ليرحل بعدها الرجل ويترك كامل أمام الغرفة التي كتب عليها من الخارج (غرفة المحاربين) بحروف ذهبية كبيرة باللغة الإنجليزية، فتح الباب ليجد أن باقي المحاربين قد سبقوه إلى المكان وبدأوا في فك حقائبهم في غرفتهم الجديدة، ابتسم كامل وهو يخطو أولى خطواته داخل الغرفة، منذ أيام كان يخطو نحو غرفة أخرى وهو لا يعلم مصيره عندما دخل قاعة الأفارقة، وها هي الأيام تمر ويدخل غرفة جديدة تحمل الاسم الذي كان يتمنى الحصول عليه منذ سمع عن هذا البرنامج الذي قد يغير كل شيء في حياته، استقبلته العيون الفضولية للخمسة محاربين الآخرين مما جعله يشعر ببعض الارتباك، اتجه نحو الفراش الذي كُتِبَ عليه اسمه ليضع حقيبته ويبدأ

في التعرف على الآخرين لأول مرة، ليبدأ التعرف على من سيقاتل بجانبهم بعد فترة قليلة، اتجه في البداية نحو الفراش المجاور له والذي استقبله صاحبه بابتسامة كبيرة وهو يمد يده ليصافحه قائلًا:

- أهلًا بك أيها المحارب العربي، أُدْعَى إيمانويل جوميز.

- وأنا كامل يوسف، أهلًا بك.

- أهلًا بك، لقد رأيت ما فعلته عندما أنقذت حياة المتسابق في المسبح منذ يومين، وهو تصرف أحمق بعض الشيء، ولكنه شجاع.

ابتسم كامل ولم يعلق، اتجه نحو المحارب التالي الذي لم يكن سوى سليم أكمل المحارب التركي الذي استقبله بابتسامة حاول أن تكون ودودة، ولكنها خرجت منه حزينة دون أن يعلم كامل السبب، صافحه ليتجه بعدها نحو المحارب الثالث وكان هو المدعو هاريسون بيكر المحارب الأسترالي، مدَّ كامل يده لمصافحته ولكن هاريسون نظر إليه نظرة استخفاف ولم يصافح كامل الذي شعر بالإهانة والإحراج، قال كامل بصوت حاول أن يكون هادئًا:

- ألا تريد أن نتعرف على بعضنا البعض، بعد ساعات سنحارب سويًّا و ...

قاطعه هاريسون وهو يشعل سيجارته قائلًا:

- أنا لست هنا من أجل التعارف يا صاح، أنا هنا من أجل المال فحسب، لا تظن أننا سنكون أصدقاءً، الآن اغرب عن وجهي واذهب لمعانقة شخص آخر.

ابتعد كامل وهو ينظر نظرات احتقار لذلك المغرور قبل أن يتوجه للمحارب الأرجنتيني الذي قابله بابتسامة وقال له:

- لا تأبه بحديثه، إنه لا يستحق التعامل معه بطريقة جيدة من الأساس، أنا ليوناردو سانتي، أهلًا بك.

صافحه كامل مبتسمًا وقام بتعريفه بنفسه قبل أن يتوجه لآخر المحاربين، المحارب الهولندي توماس يانسن الذي كان يطالع كتابًا وهو يضع في أذنيه سماعات أذن تنبعث منها موسيقى صاخبة، مدَّ كامل يده لمصافحة توماس الذي نظر للحظات ليد كامل الممدودة قبل أن يصافحه هو الآخر ولكن دون أن ينطق بأي كلمة ترحيب أو حتى ابتسامة.

رجع كامل مرة أخرى لفراشه وهو يشعر ببعض خيبة الأمل، ربما كان يتوقع بداية أفضل من تلك مع باقي المحاربين، ولكنها على الأقل بداية لا بأس بها مع الودود والحزين والمغرور والمبتسم والصامت، لم يمر الكثير من الوقت حتى دخل مجموعة من رجال الميجور الذين كانوا يحملون حقائب بلاستيكية مُثبت عليها بطاقات بأسماء المحاربين الست وبداخل كل منها رداء أبيض شبيه برداء المستشفيات إلى حد كبير، تم توزيع الحقائب بينما قائد المجموعة يقول:

- سيدي الميجور يطلب منكم ارتداء تلك الملابس، ثم سنتوجه إلى المعمل الرئيسي للدكتور جايمس بارسون، ارتدوها الآن وسأكون في انتظاركم في الخارج، سنتحرك بعد عشر دقائق.

وبالفعل بعد عشر دقائق تمامًا كان الجميع بدأوا التحرك نحو المعمل للقاء الطبيب العجوز، بدأوا في الدخول تباعًا إلى غرفة يوجد بها مائدة خشبية أنيقة للاجتماعات في الوسط، وكان عليها ستة مغلفات مغلقة وقد كُتِبت أسماؤهم على كُلٍّ منها، كانت الغرفة فارغة إلا من المحاربين فقط، أحد جوانب الغرفة كان عبارة عن حاجز زجاجي كبير بطول الجدار، ومن خلفه كان المعمل الذي سيشهد المسابقة التي جاء من أجلها الجميع، علم ذلك من الستة أسرَّة الموزعة في المعمل والتي تدخل إليها وتخرج منها العشرات من الأسلاك والأنابيب وكأنها عشرات الأفاعي التي تنتشر حول كل فراش منهم، بينما كان الكثير من مرتدي المعاطف البيضاء يتحركون كخلية نحل كبيرة في المكان بأكمله، البعض كان منهمكًا في التحقق من الحواسيب، والبعض يتأكد من تركيب الأسلاك بطريقة صحيحة، الكل كان يعمل بمنتهى النشاط والسرعة، يبدو أن اللحظة التي ستبدأ فيها المسابقة فعليًّا قد اقتربت للغاية، أخرجهم صوت الباب وهو يُفتَح من أفكارهم، لم يكن سوى الثنائي الذين اعتادوا على رؤيته كثيرًا في الفترة الماضية: الميجور والطبيب، أشار إليهم الأخير بالجلوس في أماكنهم المحددة، وبمجرد أن جلسوا بدأ الطبيب في التحدث:

- حسنًا أيها السادة، حانت اللحظة التي ينتظرها العالم بأكمله، اليوم سيكون اليوم الأول لكم في أول رحلة لكم عبر الزمان والمكان؛ لذا فأرجو أن تنتبهوا جيدًا لكل ما أقوله قبل أن نبدأ تجهيزكم لرحلتكم الأولى، الفكرة الأساسية للبرنامج هي انتقال وعيكم عبر الزمن، كما قلنا من قبل فإن ما حدث في الماضي من أحداث لم تَفْنَ ولكنها تحولت إلى طاقة، سبب وجودكم ووجودنا هنا الآن، هو أننا استطعنا معرفة كيف ندخل إلى تلك الذكريات ونعيد إحياءها من جديد عن طريق نقل جزء من الوعي البشري إلى ما يمكن أن تطلقوا عليه نهر التاريخ أو الذكريات، سينتقل جزء من وعيكم إلى تلك الذكريات وتعاصروا ما عاصره الشخص الذي كان موجودًا في تلك الحقبة الزمنية، وسبب قولي جزء من وعيكم؛ لأنه من المهم أن يوجد جزء آخر منه هنا حتى يتسنى لنا إرجاعكم، أو بالأحرى انتشالكم من ذلك النهر لزمننا الحالي مرة أخرى بعد انتهاء مدة بقائكم هناك، ستكون هناك ست محطات لكم هي عمر البرنامج، ست محطات بست معارك سوف تخوضونها كوحدة وفريق واحد، مدة بقائكم في المعركة الواحدة ستكون أربع وعشرين ساعة، بعد تلك الفترة سيتم تحفيز الوعي للرجوع إلى هذا المكان مرة أخرى، وبعدها ستحصلون على يوم للراحة قبل المعركة التالية، تذكروا كلامي جيدًا، سوف تظلون في المعركة لمدة يوم كامل مهما حدث لكم هناك ومهما رأيتم في عقولكم، ما سوف تمرون به سيكون بمثابة حلم بالنسبة إلينا هنا، ولكنه سيكون واقعًا بالنسبة إليكم، ستشعرون بكل شيء، بالألم والخوف وحتى الموت، سترون وتسمعون وتشعرون بما قد يفوق قدرتكم على التحمل، ولكن على كل واحد منكم أن يحذر؛ لأنك لن تستيقظ من هذا الحلم في الوقت الذي تريده، ستظل حبيس ذلك الحلم لمدة يوم قبل أن نستطيع إرجاع وعيك مرة أخرى لجسدك الذي سيكون دومًا مستلقٍ على هذه الأسرَّة خلفكم، ما سيحدث لكم بالضبط هو أنه سيتم تخديركم لإدخالكم في حالة من السكون الجسدي الذي سيسهّل عملية نقل وعيكم إلى الماضي، ستستيقظ من النوم لتجد نفسك في زمن آخر ومكان آخر لم تره من قبل، هذا المكان هو ساحة المعركة التي وقعت منذ مئات وربما آلاف السنوات، ستستيقظون سويًّا لتجدوا كل ما حولكم يعود للماضي، ما عليكم فعله هو القتال لمدة يوم وعندما ترجعون سنستطيع بواسطة أجهزة خاصة نقل ما رأيتموه في عقولكم إلى شاشات تجعلنا نرى ما رأيتم حتى يتسنى للعالم بأسْرِه مشاهدة الماضي عبر عيونكم أنتم، ستكونون أنتم الكاميرات التي ستجعلنا نرى حقيقة ما حدث في تلك المعركة، يجب أن تعلموا أنكم لن تصمدوا إلا بواسطة عملكم كفريق واحد يرعى كل منكم الآخر، الآن هل لديكم أي أسئلة قبل البدء؟

ارتفع صوت مانويل المكسيكي الذي قال:

- أنت لم تتحدث معنا حول الجائزة المالية دكتور جايمس.

ابتسم الطبيب وهو يقول:

- كنت أعلم أن هذا أول سؤال سيتم طرحه، على أي حال سأجيبك، الجائزة المالية هي ستة ملايين دولار أمريكي كما تعلمون سيتم تقسيمها على مَنْ سيكمل المعارك الست، معنى ذلك أن المنسحب منكم بعد معركة أو أكثر لن يحصل على أي شيء حتى لو خاض خمس معارك كاملة، يجب أن تكمل الست معارك للحصول على حصتك من الجائزة، بمعنى أنه إذا انسحب اثنان من المعارك سيتم تقسيم الجائزة على الأربعة المتبقين ليحصل كل منهم على مليون ونصف المليون من الدولارات إذا أكملوا الست معارك وهكذا.

- السؤال التالي.

كان السؤال الثاني من ليوناردو الأرجنتيني الذي قال:

- هل تم اختيار المعارك جميعها بالفعل أم لا؟ وعلى أي أساس تم الاختيار؟

أجاب الطبيب:

- هذا سؤال جيد، بالنسبة للشق الأول من السؤال فالإجابة هي نعم، بالطبع كان لزامًا علينا اختيار المعارك مسبقًا حتى يتسنى لنا التحضير وضبط الأجهزة على الأزمنة التي ستنتقلون إليها، وبالنسبة للشق الثاني فقد كان الاختيار عشوائيًّا من حيث الأماكن، ولكننا راعينا بعض الاعتبارات أثناء الاختيار منها بالطبع استبعاد الستة بلدان التي أتيتم منها، لن نطلب منك قتال مواطنيك بالطبع للفوز بالجائزة، كما تم اختيار أزمنة مختلفة، ولكن الجانب المشترك بين المعارك هي أنها جميعها معارك كبرى غيَّرت العالم ربما حتى الآن، المعارك ستظل مجهولة بالنسبة إليكم، ستعلمون كل معركة على حِدَة قبل انتقالكم إليها مباشرة.

- السؤال التالي.

هذه المرة صدر السؤال من كامل المصري:

- ماذا سيحدث إذا أصيب شخص منا في تلك المعركة أو قُتِلَ؟ ماذا سيحدث له حينها؟

تبادل الميجور والطبيب النظرات قبل أن يجيب الميجور الذي تحدَّث لأول مرة قائلًا:

- إذا تمت إصابة أحدكم في المعركة فسيشعر بالألم وكأنه أصيب في الحقيقة؛ لأن وعيك حينها سيكون مرتبطًا بالجسد الذي ستحلُّ ضيفًا عليه والذي سيتحرك ويتفاعل بناءً على أوامر عقلك أنت، أي إنك ستشعر بكل ما سيشعر به جسد المضيف؛ لأنه خلال الرحلة سيكون جسدك أنت، أما في حالة إذا قُتِلَ أحد منكم وأتمنى ألَّا يحدث ذلك فلا نعلم بالضبط ما يمكن حدوثه، ولكن توقعاتنا هي أن جسدك هنا سيدخل في غيبوبة طويلة؛ لأننا حينها لن نستطيع استعادة وعيك من الرحلة، وبالتالي ستظل في غيبوبة عميقة تنتهي ... تنتهي بالموت.

دوَّت الكلمة كالصاعقة على الجميع، لم يكن هذا ما توقعوه عندما فكروا في الانضمام للمسابقة؛ لذا فقد أخذوا يتبادلون النظرات لبعض الوقت حتى ارتفع أول صوت معترض على ما قيل، كان هو صوت هاريسون الذي قال بطريقة حادة:

- ما هذا الهراء الذي تقوله؟ أنا لم أشترك من أجل أن أموت في زمن آخر كي يحظى الطبيب بنتائجه بينما نحن نخاطر بحياتنا، وربما يتم قتلنا وكأننا مجموعة من فئران التجارب الحقيرة، هل تمزحون معنا أم تعتبروننا مجموعة من الأغبياء؟

أجاب الميجور بسرعة قبل أن تسود الفوضى المكان قائلًا:

- لا أحد يعتبركم أغبياء، ولكن تذكر ألا أحد أيضًا يجبرك على فعل ما لا ترغب فيه.

ثم اتجه الميجور نحو باب الغرفة وفتحه وهو ينظر نحو هاريسون نظرة تحدٍّ واضحة ويقول:

- ها هو الباب مفتوح أمامك، يمكنك المغادرة في أي وقت والرجوع مرة أخرى لحياتك المزرية التي كنت تحياها قبل قدومك هنا، هيا، ماذا تنتظر أيها القوي؟ ها هو الباب في انتظار أن يتم صفعه خلفك، أنت بالتحديد سوف أكون في قمة سعادتي وأنا أراك تخرج من هنا بغرورك وتطاولك وعدم احترامك لأي شيء، لماذا تظن أنني طلبت من الثلاثة المتبقين المكوث ليومين معنا؟ هل لأنني سأفتقدهم؟ أم صدَّقت أننا فعلًا نحتاج ليومين حتى نعطيهم جائزتهم؟ لقد مكثوا حتى يحلَّ أي منهم محل المنسحبين منكم، هم في انتظار أن يجبن أحدكم ليحل شخص آخر محله، شخص شجاع لا يرهب أي شيء، شخص يستحق الوجود في هذه الغرفة بالفعل.

ثم أضاف بصوت مرتفع حازم موجهًا حديثه للجميع:

- والآن هل يريد أحدكم الخروج؟ أم يمكنني إغلاق الباب كي نكمل حديثنا؟

ساد الصمت في الغرفة تمامًا بعد كلمات الميجور، حتى هاريسون المتعجرف صمت واكتفى بنظرة حانقة إلى الميجور الذي أغلق الباب بقوة قبل أن يرجع لمكانه بجوار الطبيب الذي حاول تلطيف الجو قليلًا، فقال بهدوء ومودة:

- أعلم أنها مخاطرة كبيرة تستحق التفكير بها بعناية، ولكن الجائزة أيضًا تستحق نفس التفكير وبعناية أكبر، نحن نعلم كل شيء عنكم، نعلم لِمَ اشترك كل منكم في المسابقة، ولكننا لن نصرح بها بالطبع حفاظًا على خصوصية كل منكم، ولكن ما أستطيع قوله: إن معظمكم بحاجة لهذا المال لشيء ما يرغب فيه، ما قاله الميجور بخصوص مسألة الغيبوبة والموت هو استنتاج لا أكثر؛ لأننا لا نعلم حقيقة ما يمكن أن يحدث، لم يحدث للأشخاص الذين ذهبوا في تلك الرحلة من قبل أن تُوُفِّي أحدهم خلال الرحلة

حتى نعلم يقينًا أن الموت في الواقع هو مصير من يموت في رحلة الوعي عبر الماضي، ربما يحدث شيء آخر لا نعلمه ولكن طبقًا للمعلومات المتوفرة لدينا حتى الآن فللأسف يمكن أن يحدث ذلك بالفعل، يمكنكم بالطبع الانسحاب الآن في حالة قررتم عدم المشاركة، لن يرغمكم أحد على أي شيء، ولكن يجب أن تقرروا الآن؛ لأن الرحلة الأولى على وشك البدء بعد قليل، من يرغب منكم في الانسحاب فليتفضل الآن بقول ذلك وسيحصل على المئة ألف دولار التي سينالها المتسابقين الثلاثة، لن يخسر كل شيء، ولكن من سيوافق على المضي قدمًا معنا سيوقع على الإقرار الموجود أمامه بأنه هو وحده المسئول عما يمكن أن يحدث له خلال الرحلة، لا نعلم حقًّا ما سوف تواجهونه هناك؛ لأننا لم نرسل أحدًا من قبل لمعركة، واليوم نطلب منكم ليست معركة واحدة ولكن ستة، أعلم أنها مخاطرة كبيرة، ولكن أنتم فقط ولا أحد غيركم ستختارون ما هو قادم.

بعد انتهاء الطبيب من حديثه أضاف الميجور:

- كما أن هناك أمرًا يجب أن يكون في غاية الوضوح، ستذهبون للقتال ومعنى ذلك أنه إذا حاول أحدكم الاختباء أو البقاء في مكان ما حتى مرور اليوم سيكون مطرودًا من البرنامج إذا كان حسن الحظ واستطاع الرجوع؛ لأن عقاب الفرار من المعركة هو الموت، فإذا حاول أحدكم التذاكي والاختباء كفأر صغير فأقول له من الآن: إنه غبي؛ لأننا سنرى ما سيحدث في المعركة لدى عودتكم واسترجاع ذكرياتكم في المعركة، فإذا اختبأت ونجوت من قائدك في المعركة الذي سيقتلك بتهمة الخيانة فلن تنجو من طردنا إياك إذا رجعت إلينا وعلمنا ما فعلته، لا طريق أمامكم إلا الاشتراك في كل معركة والقتال بكل ما أوتيتم من قوة، لا سبيل للتراجع أو الاختباء أو الاستسلام للعدو، إذا أردت ألا يتم طردك، فقاتِلْ كالجحيم في كل معركة.

كانت الموافقة صعبة ولكن الرفض أصعب، كان أول المتحدثين هو توماس الذي قال:

- لم آتِ إلى هنا وأكافح ليتم اختياري ثم أنسحب الآن.

ثم أمسك بالقلم ووقَّع على الإقرار الموجود أمامه، ترك القلم الذي صدر منه صوت معدني بَدَا عاليًا وسط كل هذا الصمت في المكان، كان ثاني الموقِّعين هو كامل الذي لم يتحدث، فقط نظر لبعض الوقت إلى الإقرار ثم وقَّعه وتراجع في مقعده، بَدَا أن الجميع بدأ باكتساب بعض الشجاعة أو ربما التهور، وبدأوا في توقيع الأوراق واحدًا تلو الآخر حتى لم يبق سوى هاريسون الذي نظر للجميع نظرة ساخرة قبل أن يقول:

- فجأة أصبحتم جميعكم لا تهابون الموت، حسنًا.

ثم أمسك القلم ونظر للميجور وقال له:

- هذا من أجلك أيها الميجور، سوف أوقِّع فقط لأستمتع بنظرة الخسارة على وجهك، سوف أظل من محاربي الزمن رغمًا عنك أيها العجوز.

قام هاريسون بالتوقيع لتكتمل التوقيعات، ضغط الطبيب زرًّا على المائدة أمامه، وبمجرد أن فعل ذلك وجد المحاربون ذلك الجدار الزجاجي الذي كانوا يتطلعون إلى المعمل عبره قد تم فتحه ليبدأوا بعدها في الوقوف، بينما صوت الطبيب يقول لهم:

- أهلًا بكم في معمل الزمن الذي سيشهد بداية أعظم رحلة عبر التاريخ.

أشار لهم الطبيب بالتقدم نحو المعمل الذي بدأت فيه حركة العاملين في الازدياد، بينما تمر الدقائق الأخيرة قبل بداية الرحلة الأولى.

خَطَا الطبيب بضع خطوات قبل أن يتوقف أمام الجميع ويقول لهم:

- الآن سوف يتم تجهيزكم لأول رحلة لكم عبر الزمن، لن تشعروا بأي شيء على الإطلاق، ما سيحدث أنكم ستنامون وعندما تستيقظون ستكونون في زمن آخر داخل عقولكم، أتمنى لكم جميعًا التوفيق.

ارتفعت يد كامل قبل أن يسأل الطبيب:

- أنت لم تخبرنا حتى الآن ما هي المعركة الأولى، لقد قلتَ: إنك ستخبرنا قبلها بقليل.

انتبه الطبيب أنه لم يخبرهم بالفعل حتى الآن فابتسم ابتسامة مرتبكة وقال:

- حسنًا، معركتكم الأولى حدثت منذ أكثر من أربع مائة وثمانين عامًا قبل الميلاد، حدثت في أوروبا ضد الفرس، حيث واجه ثلاث مائة رجل جيش فارسي بلغ عدده أكثر من مليون جندي.

نظر توماس للميجور والطبيب قبل أن يقول:

- ثلاث مائة يواجهون مليون، أنت لا تقصد معركة ...

قاطعه الميجور قائلًا:

- نعم، هي ما نقصدها، بالطبع جميعكم شاهدتم الفيلم السينمائي، الآن ستشاهدونه وأنتم في أرض المعركة.

كانت هناك علامات لعدم الفهم على وجوه بعض الرجال؛ لذا فقد توجهت عينا الميجور للجميع وهو يقول:

- المعركة التي نتحدث عنها هي معركة ثرموبيلي أو معركة البوابات الحارة، حيث وقف الملك ليونايدس بقواته التي بلغت ثلاث مائة جندي إسبرطي ومعهم سبع مائة جندي أركيدي أمام جيش الفُرْس الذي يقال: إنه بلغ المليون جندي تحت قيادة الملك زيركسيس، بالطبع نحن لا نعلم على وجه الدقة ما دار في تلك المعركة؛ لأن المصدر الوحيد للقصة أو ربما الأسطورة هي المؤرخ هوميروس وقد ذكرها بعد مائة عام من حدوثها، ربما لعدم معرفتنا لما حدث بالفعل فقد تم الاتفاق أن تكون تلك هي أول رحلة لكم في الزمن.

انطلق صوت مانويل المستنكر وهو يقول:

- ثلاث مائة جندي في مواجهة مليون، أنتم تريدون قتلنا بهذه الطريقة، ما الذي يفترض علينا فعله هناك في تلك المعركة الخاسرة؟

أجابه الميجور بهدوء:

- فقط أن تظل على قيد الحياة لمدة يوم كامل، هذا فقط ما هو مطلوب منك، ألا تستطيع فعل ذلك؟

صمت مانويل ولم يعلق، كان يودُّ أن يعترض أو يرحل وينطلق لزوجته وابنه، ولكنه كان يعلم أنه لا مجال للتراجع، إما هذا وإما موت ابنه الوحيد أليهو، إما مواجهة مليون جندي في معركة خاسرة وإما مواجهة عينا زوجته اللائمتين بعد أن يخسرا ابنهما للأبد، حينها بَدَتْ مواجهة مليون جندي فارسي أهون بكثير، بعد فترة صَمْتٍ تحدث مرة أخرى قائلًا:

- بلى، أستطيع فعل ذلك، أنا مستعد.

ابتسم الطبيب وهو يَرْبِتُ على كتف مانويل برفق، بدأ الطبيب في الإشارة لأفراد فريقه العلمي والطبي ليبدأوا تجهيز المحاربين لأولى رحلاتهم في الزمن المجهول بالنسبة إليهم، بدأ المحاربون في الاستلقاء على الأسرَّة البيضاء وتركوا أنفسهم تحت رحمة أيدي وعقول الأفراد المعاونين للدكتور جايمس، بدأت شاشات الحواسيب في تسجيل كل ما يخص درجات الحرارة، ضغط الدم، سرعة ضربات القلب، كان الجميع يعمل على قدم وساق للانتهاء من التجهيزات اللازمة قبل الرحلة، بعد فترة بدت كالدهر انتهت كل التحضيرات اللازمة، أعطى كل فريق مسئول عن محارب الضوء الأخضر لدكتور جايمس ليبدأ بحقن المهدئ في عروق المحاربين لكي تبدأ رحلتهم، نظر الطبيب لهم نظرة أخيرة قبل أن يقول بصوت دافئ وإن شابَهُ بعض التوتر:

- حسنًا أيها السادة، نلتقي بعد يوم من الآن، فلتصحبكم السلامة.

ضغط الطبيب زر الحقن بالمهدئات والتي سرعان ما بدأت في العمل ليبدأوا في الدخول في نوم عميق، قبل أن يتمتم الطبيب بصوت خافت:

- أراكم بعد يوم أيها المحاربون، أراكم بعد يوم.

▪ ▪ ▪

المعركة الأولى بعقل مانويل

حاولت فتح عيناي ببطء شديد، كان الدوار العنيف يعصف برأسي وكأنها انفجرت بها مئات الألغام في آن واحد، في البداية لم يستطع جفناي أن يستجيبا لأمري بالتباعد، ولكن بعد ثوانٍ استطعت فعل ذلك وفتحت عيناي لأرى المشهد لأول مرة وأبدأ استيعاب ما أراه أمامي، كنت ممددًا على الأرض المليئة بالحصى الدقيق والرمال، بينما صوت البحر يأتي من بعيد ليوقظني بدفء، كانت المشاعل تنتشر في المكان لتنيره بصورة جيدة في ظلام الليل، كان حولي العديد من الجنود الـ... الإسبرطيين، كيف علمت ذلك؟ لا أدري، ربما لأنني واحد منهم، كيف علمت ذلك أيضًا؟ لا أعلم، فقط رأيت ذلك داخل عقلي إذا كان هذا ممكنًا، كنت أعلم من داخلي أنني مانويل ذلك الأب المكسيكي الذي وافق على أن يكون فأر تجارب في برنامج محارب الزمن ليأتي بالمال اللازم لإنقاذ ولده، ولكن في نفس الوقت كنت أعلم كل شيء عن صاحب الجسد الذي يقبع عقلي داخله الآن، كنت مانويل المكسيكي وفي نفس الوقت كنت أرتيموس المقاتل الإسبرطي، كانت هناك صور داخل عقلي لكل ذكريات أرتيموس، الرجل الذي أحتلُّ جسده وذكرياته وعقله الآن، أرى زوجته الجميلة فيلوفا تلك الحسناء ذات الشعر الأسود الطويل الناعم الذي تود أن تضع رأسك عليه وترحل لعوالم أخرى لم تكن تعلم أنها موجودة، أرى ولده الوحيد فالينوس الذي كان كل حلمه أن يستطيع القتال بجانب والده في يوم من الأيام، كان يتدرب كل يوم فقط من أجل هذا الهدف، ولكن أوامر الملك ليونايدس كانت صارمة وحازمة كعادته، يجب أن يبقى أبناؤنا في إسبرطة لحمل اسمنا وسمعتنا وتاريخنا في حال حالفنا الحظ ومِتْنا في أرض المعركة، نعم في حال حالفنا الحظ ومِتْنا، هنا في إسبرطة ندعوه الموت الجميل kalos thenatos وهو أفضل وأروع ما يتمناه أي إسبرطي؛ لأننا وُلِدْنَا وعِشْنَا كمقاتلين، ولن يكتمل مجدنا إلا بموتنا مقاتلين كما حيينا، لا أعلم لِمَ أتكلم كأنني إسبرطي، أنا لا أعلم من أنا حاليًّا، كأن في داخلي عقلان اجتمعا في جسد واحد في آن واحد، شخص منهم يُدْعَى أرتيموس ويعلم كل شيء عن إسبرطة وملكها وسبب وجوده هنا الآن، وشخص آخر يُدْعَى مانويل جاء لإنقاذ ولده من الموت عبر رحلة داخل عقله، رحلة للماضي لإنقاذ المستقبل، مستقبل أليهو ابنه الوحيد.

بدأت في النهوض ببطء، بعد أن عانيت من الدوار العنيف لدقائق قبل أن أبدأ بفهم ما يدور حولي أو بالأحرى ما يدور داخلي، كان الوقت فجرًا، وكان محاربي الزمن يرتدُون نفس الملابس التي أرتديها، ولكن كانت وجوههم نفس الوجوه في عالمنا الحقيقي، كنت أتوقع أن نحمل نفس وجوه وأجساد الإسبرطيين الستة الذين سنحارب عبرهم ولكني كنت مخطئًا، على أي حال هذا أفضل حتى يعلم كل فرد باقي المحاربين الذين أتى معهم، نظر كل منا للآخر وبدأنا في التجمع في حلقة صغيرة دون أن نتحدث وكأننا نفهم ما يدور بخَلَدِ كل واحد منا، تحلَّقنا في دائرة صغيرة، وبصوت هادئ بدأنا حوارنا الذي بدأته أنا قائلًا:

- حسنًا، ماذا سنفعل الآن؟

أجاب المصري قائلًا:

- سوف نفعل ما جئنا من أجله، سنظل على قيد الحياة ونحارب لمدة يوم قبل أن نرجع مرة أخرى لزمننا.

ثم نظر ناحية الهولندي قائلًا:

- توماس، عند علمك بأن أول معركة لنا هي ثرموبيلي بَدَا أنك تعلم الكثير عنها، لِمَ لا تشاطرنا تلك المعلومات حتى نعلم ما نحن مقبلون عليه؟

استوى توماس في جلسته وكأنه مقبل على إعطائنا درسًا أو محاضرة، حينها قال:

- بالتأكيد جميعكم رأيتم ذلك الفيلم الذي يتحدث عن تلك المعركة، لكنه لم يذكر كافة التفاصيل التي حدثت أو يقال: إنها حدثت بحسب روايات المؤرخين، لقد درسنا تلك المعركة من قبل في معهد البحرية الملكي، وهي من أروع المعارك التي حدثت في الـ...

قاطعه الأسترالي قائلًا:

- لم نطلب منك إعطاءنا درسًا في التاريخ أيها المتحذلق، فقط قل لنا ما سيفيدنا في المعركة.

نظر له توماس شزرًا ولم يعلق على ما قاله، ثم أكمل حديثه قائلًا:

- لقد استمرت معركة ثرموبيلي ثلاثة أيام بالنسبة للإسبرطيين، يقال: إن الفرس بقيادة الملك زيركسيس جاء بجيش يقترب من المليون جندي نتيجة استفزازهم للسفن الفارسية بالقرب من السواحل التركية والتي كانت في هذا الوقت تابعة للفرس، جاء لإخضاع كامل بلاد اليونان لحكمه، ولكنه لكي يستطيع الدخول إلى اليونان برًّا لا بد له من المرور عبر البوابات الحارة وهي ما تسمى باليونانية ثرموبيلي، هي مضيق صغير يتسع لمرور عشرات قليلة من الجنود؛ لأن هذا المضيق يحده شرقًا جرف عالٍ مطلٌّ على خليج ماليا وغربًا مجموعة من الجبال؛ لذا قرر اليونانيون أن يوقفوا الزحف الفارسي في هذه المنطقة؛ لأن أعداد الفرس لن تساوي شيئًا في هذا المكان الضيق، استطاع الإسبرطيين الصمود في وجه الفُرْس لمدة ثلاثة أيام قبل أن يخونهم أحد السكان المحليين والذي يُدْعَى إيفيالتس، والذي ذهب لزيركسيس وأخبره عن ممر صغير يستخدمه رعاة الغنم والذي يلتف خلف جيش الملك ليونايدس، وبالفعل قام الجيش الفارسي بتطويق الإسبرطيين الذين لم يتركوا ميدان معركتهم حتى بعد أن علموا مسبقًا بما قام به إيفيالتس، فقط قام ليونايدس بتسريح الجيش اليوناني الذي كان يرأسه ليحاربوا في وقت آخر وظل هو مع رفاقه الإسبرطيين حتى تم قتلهم جميعًا في هذا المكان الذي نحن به الآن، هذا معظم ما أتذكره الآن.

حينها قال الأسترالي بحنق بالغ:

- إذن فقد أتوا بنا هنا لنواجه مليون جندي، ثلاث مائة يواجهون مليونًا، تبًّا لهذا الطبيب المجنون، لقد رمانا هنا لنلقى حتفنا في أول يوم.

حينها رد عليه توماس قائلًا:

- لا أظن أنه يجب علينا القلق حيال ذلك.

تطلّعَتْ إليه حينها عيوننا المتسائلة عن معنى جملته الأخيرة، نظر حوله ليتأكد من عدم وجود أحد بالقرب منا قبل أن يتابع:

- أظننا في اليوم الأول للمعركة، معنى هذا أننا لم نحارب بعدُ، وكما أتذكر، في اليوم الأول لم يلقَ مصرعه من الإسبرطيين إلا ثلاثة فقط.

قال له الأرجنتيني:

- ماذا يعني ذلك؟

- يعني أن هناك فرصة كبيرة ألا نموت اليوم، كل ما عليك فعله هو ألا تصبح من هؤلاء الثلاثة، فليتذكر كلٌّ منكم سبب مجيئه لهنا، ربما يحفزكم هذا على الحفاظ على حياتكم خلال اليوم.

كان كل منَّا مستغرقًا في أفكاره لبعض الوقت دون أن نتحدث، في نفس الوقت كان الجنود قد بدأوا في الاستيقاظ من نومهم استعدادًا لليوم الأول من معركة ثرموبيلي، المعركة التي يجهلون نهايتها على عكسنا نحن، أمامك المئات من الجنود الذي لن يروا مَنْ أحبُّوا مرة أخرى، هنا في هذا المكان لا وجود للفرص الثانية، كل من نراه الآن سيُقتل دفاعًا عن أرضه وشرفه خلال يومين لا أكثر، كل واحد منهم سيفقد حياته حتى لا يفقد عائلته وسمعته وشرفه كجندي ومدافِع عن اليونان بأكملها.

استيقظ جميع الجنود الإسبرطيين وبدأنا في تحضير طعام الإفطار لنا، كل مجموعة كانت مسئولة عن تأمين إفطارها بنفسها، لم يكن هناك أفراد للطهي فقط، هنا كلنا جنود وكلنا سواء بما فيهم ليونايدس نفسه، الملك الذي رآه أرتيموس مئات المرات ولكن لم أره كمانويل من قبل، على أي حال أكملنا إعداد الإفطار مع بقية الجنود وبدأنا في تناوله، حينها خرج علينا الملك ليونايدس من خيمته لتتوقف أيدينا عن الحركة وأفواهنا عن المضغ، نظرنا له جميعًا في آن واحد، لم يكن ليونايدس كما ظهر في الفيلم الشهير الذي تحدث عنه، كان في أوائل الستينات من العمر، عرفت ذلك من شعره الأشيب الطويل الذي يصل لمنتصف ظهره، ولكن تلك السنوات الستين لا يظهر أثرها على جسده أو وجهه، كان محاربًا منذ الصغر؛ لذا ظل جسده على حالته وكأنه في العشرينات من العمر، جسد رشيق ممتلئ بالعضلات ووجه حازم مع لحية بيضاء خفيفة تزيده مهابة، اعتلى ليونايدس صخرة عالية في منتصف المكان قبل أن يقول لنا بصوت جهوري يمتلئ بالثقة والإيمان بما يقوله:

- إخواني، لقد جاء إلينا الفُرْس بمئات الآلاف من جنودهم وقوادهم، جاؤوا وهم يعتقدون أنهم في نزهة لمجرد أن عددهم يفوق عددنا، جاؤوا وهم يظنون أننا لقمة سائغة يستطيعون مضغها وطحن عظامها قبل أن يلفظوها من أفواههم وكأننا لا نساوي شيئًا، اغترُّوا بقوتهم وجنودهم عندما علموا أن الكهنة رفضوا خروج جيش إسبرطة بسبب الأعياد الدينية والألعاب الأوليمبية التي يظنونها أهم من الدفاع عن أرض إسبرطة واليونان بأسرها؛ لذا قمت باختياركم أنتم، ثلاث مائة جندي كل واحد منهم يملك ولدًا يستطيع حمل اسمه وسمعته وشرفه إن مات أبوه، ثلاث مائة جندي يفضلون الموت ألف مرة على أن يطأ العدو تراب أرضه، اغترَّ الفرس عندما علموا أنني أتيت بثلاث مائة جندي ولكن ما لا يعلمونه أنني أحضرت ثلاث مائة ألف جندي مقارنة ببأسهم وقوتهم، ما لا يعلمونه أنني جئت لهم بأفضل محاربي إسبرطة من أجل الموت في سبيل ما نؤمن به، في سبيل أمر يعجزون هم عن فهمه، في سبيل الشرف والواجب والوطن، لقد أخبرتني العرَّافة أن النبوءة تقول: إما أن تموت إسبرطة وإما أن يموت ملك إسبرطة؛ لذا أنا هنا معكم اليوم؛ لأن إسبرطة لن تموت، وطننا لن يموت، إذا كان الموت آتٍ لا محالة فليكن من أجل وطني وسأكون فخورًا بذلك، لقد عشت وحاربت وقاتلت معكم من قبل، وكان هذا شرفًا لي، واليوم أقولها لكم: سوف يكون شرف لي أن أموت بين إخوتي، أنا هنا اليوم لست مَلِكًا عليكم بل أخ يفخر بإخوته، يفخر بأنه كان بينهم يومًا ما.

كانت العيون كلها معلَّقة بالملك البطل وهو يتابع خطابه:

- لقد نَصَبَ الفرس معسكرهم بالقرب من نهر سبيركيوس شمال مضيق ثرموبيلي، ووضعوا عرش زيركسيس ملكهم وسيدهم أعلى تبَّة مرتفعة ليرانا من عرشه العالي ونحن نُسْحَق ونُقْتَل أمام أعينه، بينما يحتسي شرابه المفضل وجواريه تؤنسه وكأننا حيوانات تُسْلَخ وتُذْبَح فقط من أجل متعة عينيه.

ثم صمت للحظات وهو ينظر إلى كل فرد منَّا قبل أن يرتفع صوته ليجلجل في المكان ويهز قلب وعقل كل محارب إسبرطي وهو يقول:

- ولكن لا، لن يحدث ذلك، أتعلمون لماذا؟ لأننا سنريه ما لم يره أحد من قبلنا في حياته، سنريه الشرف والشجاعة والتضحية والأخوَّة والعدالة، يظن ذلك المخبول أنه هنا لإعطائنا درسًا لن ننساه؟ أقول له ولكم: نحن مَنْ سنعطي الدرس، نحن مَنْ سنحدد بسواعدنا وقلوبنا من ستكون له الغلبة، نحن مَنْ سنقتل ونسحق رجاله حتى يعلموا كم كانوا حمقى حينما ظنوا أنه يمكنهم فرض هيمنتهم علينا وعلى نسائنا وأطفالنا، جاءوا إلى هنا ليبقوا على أرضنا؟ حسنًا، سنعطيهم ما أرادوا، سيبقون هنا، ولكن جثثًا تحت ترابنا وأرجلنا، جثثًا تحكي قصة شجاعتنا، جثثًا تُذكِّر كل ظالم أنه غير مرحب به على هذه الأرض؛ لأن بها رجال.

ثم دوَّت حنجرته بأعلى صوت وهو يقول:

- لأن بها إسبرطة.

تعالت حناجرنا جميعًا بالهتاف حتى كاد صوتنا يصل للسماء، الجميع قفز من مكانه وهو يمسك بسيفه ويرفعه في عنان السماء ويصيح بأعلى صوته، إسبرطة.

كان الجو جنونيًّا، الكل يهتف والكل يتحرق شوقًا لبدء المعركة.

انتظر ليونايدس لبعض الوقت حتى يهدأ حماس الرجال قبل أن يقول:

- يقول زيركسيس: إنه بسهامه يمكنه حجب أشعة الشمس عنا.

حينها قال له دينيكيس أحد قادة الإسبرطيين بسخرية:

- إذن سنحاربهم في الظل.

تعالت ضحكات الجميع على مقولة دينيكيس، حتى الملك بنفسه أخذ في الضحك عاليًا وهو يربت على كتف قائده قبل أن يقول لنا بابتسامة كبيرة:

- فلتتناولوا إفطاركم جيدًا اليوم؛ لأننا الليلة نتعشى في الجحيم.

تعالت صيحات الرجال قبل أن يرجع بعضهم لإكمال إفطارهم بشهية كبيرة، بينما لجأ البعض الآخر لنهر سبيركيوس لغسل شعره، ربما كان هذا غريبًا بالنسبة إليك، ولكن هنا في إسبرطة نطيل شعورنا ونقوم بغسلها قبل دخولنا لأي معركة، ربما يبدو هذا لكم غريبًا ولكن بالنسبة لنا يوم المعركة هو يوم احتفال ويجب أن نتحضر له؛ لأننا لا نخاف من الموت بل نطلبه، لا نخشى السيوف والرماح بل نندفع إليها، هنا في إسبرطة المعركة هي الحياة، المعركة هي غايتنا وهدفنا؛ لأنها ما تدربنا من أجله؛ لأنها ما خُلِقنا من أجله، أنتم ترون الجمال في الحياة ولكن نحن نراه في الموت بشرف دفاعًا عن وطننا وعائلاتنا، هذا ما نعرفه ونبتغيه، الموت الجميل.

بعد الانتهاء بدأنا في التجهز للمعركة، كل منَّا ارتدى لباسه العسكري وخوذته وبدأنا في التحرك شمالًا نحو أرض المعركة بخطوات ثابتة متلهفة للمعركة القادمة، خطوات رجال جاؤوا ليقولوا هذه أرضنا وهذا وطننا، وسيظل كذلك مهما توهَّم البعض، قلناها من قبل للفرس عندما جاؤوا منذ عشر سنوات لاجتياح اليونان وتصدى لهم أهل أثينا في موقعة ماراثون الشهيرة، واليوم نقولها لهم مرة أخرى: إن هذه الأرض ليست لهم ولن تكون لهم في أي يوم من الأيام، كنت في الصف الأول خلف الملك ليونايدس الذي يتقدمنا حتى وصلنا للمكان الذي اختاره ميدانًا للمعركة، انضممنا هناك لحوالي سبعة آلاف مقاتل يوناني من مختلف المدن اليونانية، ثيسبيانيين وثيبانيين وفوشيين، كلهم جاؤوا للدفاع عما هو مِلْك لهم، كان قد تم الاتفاق من قبل بين الملك ليونايدس وثيموستيكليس أن تكون قيادة المعركة للإسبرطيين، ولكن يبدو أن الفوشيين لم يعجبهم هذا الأمر، كانوا يرون عددنا بالمئات وهم بالآلاف؛ لذا فهم الأجدر بالقيادة في هذه المعركة، قالها أحد قادتهم صراحة للملك ليونايدس على مسمع ومرأى منا، كان واقفًا كأسد شامخ حين سأل أحد الفوشيين:

- أنت يا صديقي، ماذا كانت مهنتك قبل المجيء لهنا؟

لم يتوقع الرجل السؤال فتلعثم قليلًا قبل أن يجيب:

- حدَّاد يا سيدي.

ثم أشار ليونايدس لرجل آخر قائلًا له:

- وأنت يا صديقي، ما هي مهنتك؟

رد عليه بصوت منخفض:

- مزارع.

أومأ الملك برأسه قبل أن يسأل أحد الإسبرطيين:

- وأنت، ما مهنتك؟

رد عليه الرجل بسرعة وحزم:

- جندي يا سيدي الملك.

حينها نظر ليونايدس لقائد الفوشيين برفق قبل أن يقول له:

- أنت أحضرتَ آلافًا ولكنهم حدادون ومزارعون، ربما أكون أنا أحضرت مئات ولكن كل فرد منهم هو جندي طيلة أيام العام سواء في السلم أو الحرب، هل ما زلت مقتنعًا يا صديقي أننا لا نستحق قيادة المعركة؟

لم يعلق قائد الفوشيين على سؤال ليونايدس، فقط اكتفى بإيماءة من وجهه قبل أن يمد يده مصافحًا الملك، بينما هتافات الرجال تتصاعد بقوة ليتردد صداها بين الجبال، كل ما علينا فعله الآن هو التركيز في المواجهة القادمة، كنا الآن في مضيق ثرموبيلي بالقرب من البوابة الغربية، يحدُّنا من الشرق الجرف المؤدي لخليج ماليا، ومن الغرب جبل كاليدروموس، كنا في منتصف المضيق الآن وأمامنا حائط متداعٍ قديم يسمى حائط الفوشيان أقامه الفوشيون، تم إعادة بنائه تنفيذًا لأوامر الملك ليونايدس، كانت البوابة التي سيهجم منها الفُرْس على مرأى من أعيننا أمام الحائط، كان قد اقترح الفوشيون أن نقاتل مباشرةً عند البوابة الغربية الضيقة، ولكن كان للملك رأي آخر، كان يريد من الفُرْس أن يعبروا تلك البوابة ويجيئوا إلينا في المنطقة التي يريدها الملك ليونايدس، والذي قام بتوزيع القوات الموجودة معنا من المدن اليونانية الأخرى في أماكن حددها لهم بدقة، بينما ظللنا نحن الإسبرطيون في مقدمة الجيش لمواجهة الموجة الأولى من الهجوم الفارسي، كان عددنا جميعًا سبعة آلاف جندي ولكن الإسبرطيين فقط مَنْ كانوا في المقدمة لاستقبال الغزاة، الاستقبال الذي يستحقونه منا.

خرجت علينا الشمس الآن لتنير المكان بأكمله على مرمى البصر لأرى لأول مرة الحجم الحقيقي للجيش الفارسي الذي أخذت مئات الأعلام ترفرف فوق رؤوس جنودهم المتواجدين أمامنا على بُعْدِ مئات الأمتار، لم تكن أعدادهم تبلغ المليون كما قالوا عن أنفسهم، كان عددهم لا يتجاوز المئة ألف أو يزيد من الجنود، نظرت بجواري لأجد المحارب المصري يقف وهو ينظر بتصميم نحو الأفق الفارسي، نظر لي برفق وكأنه يشجعني على ما هو قادم، يشجعني لا كأرتيموس ولكن كمانويل الذي قَدِمَ من المكسيك لإنقاذ ابنه الوحيد، كنا في انتظار خطوتهم الأولى نحونا، لم ننتظر طويلًا؛ لأنها جاءت سريعة، لم يكن زيركسيس مخطئًا حين قال: إن سهامه يمكنها أن تحجب أشعة الشمس، آلاف السهام انطلقت من معسكر الفرس، آلاف بالمعنى الحرفي للكلمة، بَدَتْ وكأنها تهاجم الشمس نفسها التي توارى ضوؤها بسبب السهام الفارسية المنطلقة، للحظات لم يعد بقدرتنا رؤية السماء، انطلقت بمنتهي السرعة والقوة، وعندما أوشكت على الوصول إلينا صاح ليونايدس:

- احتموا.

وكأننا نفكر بعقل واحد، احتمينا جميعًا خلف دروعنا البرونزية الثقيلة والعريضة في نفس اللحظة، قبل ثوانٍ من وصول السهام الفارسية لنا، سمعناها وهي تصطدم بالدروع وسمعناها وهي تنكسر عليها واحدًا تلو الآخر، كانت السماء مظلمة الآن بسبب تلك السهام التي تعتقد أنه يمكنها حصد أرواحنا بسهولة، ظللنا محتمين بدروعنا البرونزية التي لم تخذلنا، حينها سمعنا ضحكة عالية من القائد دينيكس الذي قال للملك:

- ألم أقل لك أننا سنحاربهم في الظل؟

قالها لتنطلق ضحكاتنا عاليًا وتختلط بصوت السهام التي فشلت في مهمتها القذرة التي جاءت من أجلها، ظللنا لدقيقة أو أكثر على حالنا محتمين خلف الدروع حتى بدأ صوت السهام في الخفوت وضوء الشمس في الرجوع مرة أخرى، انتهت الموجة الأولى من الهجوم الفارسي دون أن يصاب فرد منا، حينها صاح الجميع بأعلى صوت:

- آه.

لم يكن صوتي مسموعًا حينما صِحْتُ بين الجميع:

- أليهو.

هو سبب وجودي كمانويل هنا، أليهو ولدي الوحيد، هو مَنْ سأفعل بسببه كل ما هو قادم، وقفنا في صفوف خلف بعضنا البعض كما تعلَّمنا في انتظار القادم، كان القُرْس سيقدمون على الهجوم البري علينا بالمشاة، بدأنا نرى جنود الفرس وهم يتشكلون في صفوف متراصَّة، أو على الأقل يحاول قوادهم جعلها متراصة، كان عدد جنودهم يقترب من العشرة آلاف جندي فارسي، نظرت لعتادهم العسكري لأجد أننا نتفوق عليهم في تلك النقطة، عندما أمعنت النظر رأيت أن رماحهم أقصر من رماحنا وكذلك سيوفهم، كانت تلك نقطة لصالحنا في المعركة القادمة، بدأ الجيش الفارسي الصغير في التحرك صوبنا وخلفهم سياط قوادهم تلهب ظهورهم لتحثهم بالقوة على التقدم للأمام لمحاربتنا، تقدمنا القائد ديودورس والذي كان من قادة إسبرطة ليتأكد من قوة صفوفنا وتماسكها، تأكد من أن كتف كل جندي ملتصق بكتف من يقف بجواره، كانت تلك هي طريقتنا في الحرب، أن نصبح وحدة واحدة دون أن يكون بيننا أي فجوة يستغلها العدو في المرور من بيننا، كنا ملتصقين ببعضنا البعض، وكذلك كان حال دروعنا التي تراصَّت بجوار بعضها البعض لتصنع جدار من المعدن الذي لا يمكن اختراقه، أخذ الجيش الفارسي في الاقتراب من ميدان معركتنا، تجاوز البوابة الغربية ولم يعد يفصل بيننا وبينه إلا عشرات الأمتار، نظرت حولي لأجد وجوه الجميع من حولي متحفزة للقاء القُرْس، وجوه لا تخاف، وجوه لا تخشى الموت بل تبحث عنه بشرف، كان بجواري المحارب المصري الذي همس لي في أذني:

- لا تنس يا صديقي، لا تكن من هؤلاء الثلاثة.

بمجرد أن قال ذلك وجدتني أومئ برأسه له إيجابًا بينما قبضتي تشتد على رمحي بيدي اليمنى، لن أكون منهم، سوف أرجع لأليخاندرو كما وعدته قبل سفري، سوف أرجع لك يا أليخاندرو.

بدأ جنود الفرس في الركض نحونا بسرعة، بينما يطلقون الصيحات في محاولة فاشلة لإرعابنا وهز صفوفنا، ازداد اقترابهم منا حتى تجاوزوا حائط الفوشيان والذي تركنا فيه فجوة ضيقة تكفي لعبور عدة أفراد في المرة الواحدة فقط، بدأوا في العبور من الحائط في اتجاهنا حتى حانت لحظة اللقاء، بدأ القُرْس في الوصول إلينا ليجدوا ذلك الحائط المنيع من الدروع الذي تشكَّل في مواجهتهم، بدأوا في الدفع ليحاولوا فتح ثغرة بين الدروع، ولكنهم نسوا أن خلف تلك الدروع جنود إسبرطة، حاولوا اختراق دروعنا برماحهم القصيرة ولكنها كانت أضعف من أن تخترق دروعنا البرونزية السميكة، حاولوا بسيوفهم والتي رجعت لهم خائبة الأمل مثل رماحهم، بدأ دفعهم لنا يزداد، الأغبياء لم يعلموا أن هذا بالضبط ما أراده الملك ليونايدس، أن يتم حشرهم في مكان ضيق كالنعاج، انتظرنا لفترة من الوقت حتى عبر جميع الجنود الفارسيين البوابة الغربية وتكدسوا بينها وبيننا، هل تعلم ما هي نتيجة تكدس عشرة آلاف جندي في مكان ضيق للغاية مثل هذا، ألا يكون هناك مجال لهم لرفع سيوفهم أو رماحهم، ها هم أمامنا الآن متكدسين بالآلاف وغير قادرين على الدفاع عن أنفسهم، كانت تلك هي لحظتنا للهجوم، حينها صاح الملك ليونايدس بكل قوة:

- الآن نريهم من نحن حقًّا، الآن يا رجال إسبرطة.

كانت تلك الكلمة التي ينتظرها الجميع، حينها بدأنا في دفعهم للوراء لنضيّق عليهم أكثر وأكثر، كانت أرجلنا تتقدم ببطء وهي تعتصر الأرض تحتها ولكننا كنا نتقدم، ثم دفعناهم بقوة وانفتحت دروعنا فيما بينها لمسافة لا تتجاوز السنتيمترات، مسافة لا تكفي لعبورنا، ولكنها تكفي لعبور رماحنا، عشرات الرماح خرجت من جوانب الدروع التي كنا نحملها في الصف الأول، والتي كانت تعلم هدفها بدقة، قلوب الفرس، انطلقت رماحنا من بين الدروع لتبدأ معركتها ولتكتسب شرفها بالتخضب بدماء أعدائنا، كانت رماحنا الطويلة تخترق دروعهم الضعيفة لتصل إلى أجسادهم وترجع إلينا سالمة تحمل دمائهم، كانوا غير قادرين على الرد؛ نظرًا لتكدسهم في ذلك المكان الضيق، مرة تليها مرة انطلقت الرماح لتحصد أرواح الفرس الذين اعتراهم الرعب وحاولوا الفرار، ولكن كيف يفعلون ذلك وهم لا يستطيعون الخروج من هذا المكان، بدأوا في السقوط تحت أقدامنا بينما نحن نتقدم بثبات نحوهم، بدأت الأرض تتكدس بجثثهم التي كنا نخطو عليها لنضيق الخناق أكثر وأكثر على الباقين، كنا نضيق الخناق حتى لا يستطيع الباقي الدفاع عن نفسه إن وَجَدَ فسحة من المكان لفعل ذلك؛ لذا تقدمنا وواصلنا الضغط بدروعنا عليهم حتى لا يستطيعون القتال، أخذوا يدفعون بعضهم بعضًا في محاولة منهم للخروج من فخ الموت هذا، ولكنهم كانوا عاجزين عن فعل ذلك، بعضهم قرر القفز من الجرف وتجربة حظه مع مياه خليج ماليا ولكنه لم يكن أسعد حظًّا ممن قُتِلُوا هنا، بعد فترة أُطلق ليونايدس صيحته الثانية، والتي كانت تعني الالتحام بالسيوف، حمل كل منا سيفه وانطلق لحصد الباقي من أرواح الفرس التي أصبحت كالفئران المذعورة، حاولوا الدفاع عن أنفسهم ولكن شتَّان بين شخص يحمل سيفه مدافعًا عما هو ملكه وشخص آخر يحمل سيفه تنفيذًا لأوامر جوفاء موقَّعة بضربات السياط، رغم أنني كمانويل لم أحمل سيفًا من قبل في حياتي ولكنني كنت أتعامل بمهارة شديدة مع سيفي وكأنني وُلِدت وأنا أحمله في يدي، يبدو أن مهارات أرتيموس في القتال هي التي تتحكم بالأمر الآن، تفاديت ضربة سيف فارسي لينتهي بها الحال على درعي قبل أن أدفع سيفي عميقًا بقلب ذلك الجندي، رأيت عيناه تتسعان وهو يمسك طرف سيفي، كان آخر ما رآه في حياته قبل أن ينهار جسده دفعة واحدة هو وجه قاتله، أنا، لم يكن هناك وقت للمشاعر، هنا تعتبر المشاعر ترف لا نملكه ولا نستحقه، أخرجت سيفي من جسد الجندي وأكملت القتال بضراوة دفاعًا عن حياتي وحياة ولدي، نظرت بطرف عيني لأجد المحارب الهولندي يقاتل برشاقة بعد أن أسقط درعه ليصبح حر الحركة رغم أنه لا يجب عليه فعل ذلك، ولكن كان يبدو على وجهه الاستمتاع الشديد بالقتل والمخاطرة بحياته، كان يناور بمهارة ويبتسم وهو يوجّه الضربات للفرس، وكأنه كان ينتظر تلك اللحظة ليصبح على طبيعته، طبيعته الحيوانية، يبدو أنني ظللت أتابعه لبضع ثوان؛ لأنني وجدت من يدفعني جانبًا ويوقِعني أرضًا وهو يقول:

- احترس.

نظرت لأجد ذلك الرمح يمر بجوار جانبي الأيمن، كان رمحًا أُطْلِقَ نحوي بأقصى سرعته، ولكن قبل أن يبلغ مكاني كان المحارب المصري يعاجله بضربة قوية في قدمه فصلتها عن باقي جسده ليسقط على الأرض بالقرب مني قبل أن ينتهي بضربة سيف استقرت في صدره لتخور قواه ويتوقف عن الحركة للأبد، مدَّ المصري يده إليَّ ليساعدني على النهوض، وقفت على قدميَّ وقبل أن أقول أي كلمة كان قد تركني وانشغل بالمعركة وبمحاربة الفرس وكأنه لم يفعل شيئًا يستحق عليه الشكر على الأقل، أمسكت سيفي وانطلقت لأكمل مهمتنا التي جئنا من أجلها إلى هذا الزمن، بدأت أعداد الفُرْس في الانخفاض بشدة حتى لم يتبقَّ منهم سوى بضع مئات، كنا أمامهم محتمين مرة أخرى خلف دروعنا السميكة وكان الجرف المرتفع المؤدي لخليج ماليا خلفهم، بدأنا في الضغط عليهم باتجاه الجرف، كان بينهم الكثير من المصابين الذين لا يستطيعون القتال، أما من استطاع فحاول بسيفه الخروج من ذلك الحصار الخانق ولكنه فشل في ذلك، بدأت أعدادهم في التكدس مرة أخرى، كانوا ينظرون خلفهم للجرف المميت الذي ندفعهم نحوه دون أن تكون لديهم فرصة للهرب من مصيرهم الذي كُتِبَ لهم بواسطة رجال إسبرطة، بدأوا في السقوط واحدًا تلو الآخر من الجرف ليقابلوا في الأسفل صخور الخليج التي حطمت أجسادهم وحياتهم، ظللنا ندفعهم حتى النهاية، كان البعض يتوسل إلينا لكي نتركه يحيا، كانوا يبكون كالأطفال بينما علامات الرعب ترتسم على وجوههم ولكن لم يشفع ذلك لهم هجومهم على بلادنا ورغبتهم في سحقنا وسحق وطننا، أكملنا مهمتنا التي انتهت بسقوط آخر جندي منهم على صخور الخليج ليلقى مصير مَنْ سبقه من رفاقه، انتهت الموجة الأولى من هجوم المشاة الفارسيين بانتصار مدوٍّ لليونانيين وعلى رأسهم الإسبرطيين الذين قاتلوا بأقصى درجات الشجاعة والشرف، لم يُفْلِت من هذا الهجوم إلا بضع عشرات من القُرْس الذين استطاعوا الركض رجوعًا لمعسكرهم بالقرب من نهر سبيركيوس، كان باستطاعتنا القضاء عليهم عن طريق مطلقي السهام ولكن الملك ليونايدس تركهم وأمر بعدم قتلهم أو استهدافهم بسهامنا، كان يريد منهم الرجوع للمعسكر ووصف ما رأوه من جنودنا لبث الرعب في قلب كل فارسي، حتى في قلب ملكهم زيركسيس نفسه، انطلقت صيحات النصر من حناجر اليونانيين وهم يرون انكسار أول موجة هجوم بري فارسي على بلادهم، سمح لنا الملك ليونايدس ببعض الوقت للاحتفال فيما بيننا بهذا النصر المستحَق وأيضًا لإراحة أجسادنا قبل المعركة الجديدة، كان يعلم أن زيركسيس لن يهضم بسهولة هزيمته النكراء في أول لقاء بيننا اليوم، كان يعلم أنه سيدفع بأفضل محاربيه في محاولة جديدة للهجوم قبل انقضاء اليوم، كان يعلم أنه سيدفع بالخالدين Immortals، حرسه الشخصي والذين يُعَدُّون من أفضل محاربي الإمبراطورية الفارسية، بعد أن حظينا بوقت من الراحة بدأنا بالعمل مرة أخرى، كان لزامًا علينا إخلاء المكان من جثث الفرس التي تكدَّست على أرض المعركة، بدأنا في حمل جثثهم ورميها من على الجرف لتسقط في خليج ماليا ليحملها التيار نحو معسكر الفرس ليعلموا ما حلَّ بمن سبقوهم في الهجوم، بالطبع استشاط زيركسيس غضبًا عندما بدأت المياه في رمي جثث جنوده أمام معسكره، كنا نرى زيركسيس من بعيد وهو على عرشه الذهبي واقفًا ينظر نحو مياه الخليج وهي تلقي بجنوده أمامه، وكأن المياه اتحدت معنا لتتحداه وتقوم باستفزازه، لن نسمعها بالتأكيد ولكنني شعرت بها، صرخة زيركسيس العالية الغاضبة التي أعقبها أمره بجلد الجنود الذين فرُّوا من الموجة الأولى للهجوم البري، كان في قمة غضبه وفعل بالضبط ما أراده منه الملك ليونايدس، أمر بإرسال الخالدين في الموجة الثانية للهجوم، رأيناهم وهم ينتظمون في صفوف طويلة بقيادة قائدهم المخضرم هايدرانيس، كان على ما يبدو أن زيركسيس يريد إنهاء المعركة بسرعة وبعنف عبر إرساله لمحاربيه الشخصيين لقتالنا، بدأنا بدورنا تنظيم الصفوف استعدادًا للمعركة المقبلة، كنا على أتم استعداد وجاهزية لما هو قادم، والدليل على ذلك أن الموجة الفارسية الأولى لم تخلِّف قتيلًا واحدًا في صفوفنا، بحثت بعيني عن المحارب المصري الذي أنقذ حياتي حتى وجدته بالقرب مني، توجهت إليه ووقفت بجانبه، بعد فترة بدأت بالحديث قائلًا:

- أنا مَدِين لك بـ ...

قاطعني المصري وعلى وجهه ابتسامة قصيرة وهو يقول:

- لم ينتهِ الأمر بعدُ يا صديقي، يمكنك شكري لاحقًا حين ينتهي هذا اليوم، لربما تنقذ أنت حياتي اليوم فنكون متعادلين ولا تضطر لشكري.

لم أجد كلمات لأعبر بها عما بداخلي؛ لذا اكتفيت بالصمت وبدأنا في إعادة تنظيم صفوفنا مرة أخرى استعدادًا للضيوف الجدد غير المرحَّب بهم، كانت الموجة الجديدة من الهجوم تختلف عما قبلها، كانوا الخالدين، نجحت خطة ليونايدس في استفزازه للدرجة التي جعلته يُلْقِي بأفضل جنوده في اليوم الأول للمعركة، وهذا ما رغب به ملكنا، أفضل جنود اليونان ضد أفضل جنود القُرْس، ولكن ثقتنا في ملكنا العظيم ليونايدس كانت بلا حدود، كنا نعلم أنه يستطيع قيادتنا للنصر في هذه المعركة أيضًا، بعد أن تأكد الملك من استعدادنا صاح بأعلى صوته:

- لقد قتلتم منهم اليوم عشرة آلاف، أيكفيكم هذا؟

صحنا جميعًا في وقت واحد:

- لا.

أومأ ليونايدس برأسه وهو يمسك سيفه ويرفعه عاليًا في السماء قبل أن يقول:

- إذن فلنطلب المزيد، لقد جاء إليكم الخالدون، يقولون: إن الموت نفسه لا يستطيع هزيمتهم؛ لذا استحقوا اسمهم، فلنَرَ اليوم - وهنا في هذا المكان - حقيقة هذا الأمر، إذا كان الموت لا يستطيع فهو بحاجة إلينا، نحن سنساعده لكي يهزمهم، اليوم يتغير اسمهم للأبد من الخالدين إلى الخاسرين، بساعدنا نحن، نحن أهل إسبرطة.

بمجرد أن نطق الملك اسم المدينة انطلقت حناجر الجنود مدوية ترج الجبل حتى تكاد صخوره تسقط مرتعبة تحت أقدامنا من الخوف، بدأت صفوف الخالدين في الاقتراب، بينما طبولهم تدق خلفهم تحثهم على المضي قدمًا وإثبات أنهم يستحقون ذلك الاسم المزعوم، الخالدون، بدأوا في الدخول من البوابة الغربية والاحتشاد في الممر لقتالنا، بينما كان كلٌّ من زيركسيس ملك القُرْس وهايدرانيس قائد الخالدين يراقبان المعركة من مكانهم البعيد العالي، كان الغرور والتكبر باديًا على وجوههم وكانت تلك نقطة جيدة، يظنون أنهم الأفضل، دقائق ونضع تلك المقولة تحت الاختبار، أشار لهم قادتهم بالهجوم ليركضوا نحونا بأقصى سرعتهم بينما نحن متراصين صفًا خلف آخر في انتظارهم، ارتطموا بدروعنا التي حاولوا إسقاطها دون جدوي، ظلوا يدفعوننا إلى الخلف في محاولة منهم لتفكيك صفوفنا المتراصة حتى يمكنهم العبور منها وقتالنا دون أن نملك تلك الدروع، ظلوا على دفعهم لنا وبدأنا بالفعل في التراجع للخلف من وطأة الضغط علينا، يبدو أن ذلك سَرَّ زيركسيس كثيرًا والذي رأيته من بعيد واقفًا ينظر بلهفة للمعركة الدائرة، عندما شعر الخالدون بأننا نفقد الأرض بسبب دَفْعِهم لنا ازدادوا في ذلك، كنا نتراجع كثيرًا داخل مضيق ثرموبيلي

بينما قوات الخالدين تتقدم ببطء، كان ذلك حين قالها الملك ليونايدس:

- انسحبوا جميعًا.

دفعنا الجنود دفعة قوية بدروعنا حتى سقط الصف الأول المواجه لنا؛ وذلك من أجل إعطائنا بعض الوقت للانسحاب، وانطلقنا في الركض من المكان تنفيذًا لأوامر الملك، بَدَا وكأن الخالدين قد نجحوا في مسعاهم، ولكن لم يكن يكفيهم انسحابنا من أمامهم، كان لزامًا عليهم أن يُكْمِلوا مهمتهم بالقضاء علينا؛ لذا فقد لاحقونا حتى يتسنى لهم القضاء على أسطورة محاربي إسبرطة، وهذا ما كان يتمناه الملك ليونايدس، أن يلاحقونا داخل المضيق أكثر فأكثر، بدأوا في اللحاق بنا حتى وصلنا للمكان الذي يريدهم فيه ليونايدس بالضبط، هنا استدار فجأة وهو يقول:

- هجوم.

وبنفس السرعة التي ركضنا بها التففنا نحو الخالدين الذين وقفوا للحظات من الصدمة، بمجرد أن نطق الملك كلمته ركضنا إليهم ونحن نطلق الصيحات العالية من حناجرنا، بينما سيوفنا في أيدينا تتشوق للقاء أعناقهم وأجسادهم، ونحن لا نقدر على أن نجعل أسلحتنا خائبة الأمل، انطلقت السيوف لتحصد أرواح الخالدين واحدًا تلو الآخر، حصدنا الكثير منهم في الدقائق الأولى بسبب وَقْعِ الصدمة عليهم، حاولوا تنظيم صفوفهم ولكن قبل أن يفعلوا ذلك أتت لهم الصدمة الثانية، المئات والمئات من جنود اليونان خرجت إليهم من كهوف جبل كاليدروموس الذي كان يحارب معنا ويخفي جنوده، مئات الجنود انقضُّوا عليهم قبل أن يفيقوا من صدمتهم، كان الموت قد بدأ لعبته معهم وبدأ يحصد المئات منهم، قمنا بمحاصرتهم من الجهتين ولم يتبقَّ لهم إلا ناحية الجبل وناحية الجرف، كانوا أفضل من الجنود الذين سبقوهم في الموجة الأولى ولكننا كنا أفضل من الجميع، قال لنا الهولندي: إن في هذه المعركة سيموت ثلاثة من إسبرطة، ولكن مع ذلك لم أشعر بالخوف أن أكون من هؤلاء الثلاثة، كان الوضع حماسيًّا لدرجة الجنون، بدأت جثث الخالدين في التكدس على الأرض لنثبت للجميع أننا الأفضل، انتهى الموت من حصد الأرواح التي اسْتَعْصَتْ عليه من قبل كما كان الفرس يزعمون، ومن بقي حيًّا منهم انتهى مصيره كمصير من سبقه وسقط من جرف ماليا، انتهت الموجة الثانية للهجوم كما انتهت الأولى، فشل عظيم للظلم وانتصار أعظم للشرف والعدالة، بدأنا في احتضان بعضنا بعضًا في سعادة بالغة، وبينما نحن نفعل ذلك كان المحارب المصري ينظر حوله في قلق وكأنه يبحث عن شيء ما، وكأنه يبحث عن باقي محاربي الزمن، حتى رآنا نحن الخمسة أحياءً بَدَتْ على وجهه أمارات الارتياح، كان تصرفًا غريبًا بالنظر لأنه لا يعرفنا بصورة شخصية، ولكن لم أقف كثيرًا عند هذا المشهد، كنت في عالمي الآخر، لقد عبرت أول عقبة، سأحيا ليوم آخر ومعركة أخرى، هذا هو المهم الآن ولا شيء آخر يهم سواه.

انتهى اليوم الأول للمعركة بالنسبة للإسبرطيين واليوم الأول والأخير بالنسبة لنا على هذه الأرض، كنا الآن في معسكرنا الذي رجعنا إليه بعد انتصارنا الكاسح اليوم، اليوم الذي وقف فيه ثلاث مائة أمام عشرين ألفًا وانتصروا عليهم، كان الجميع يحتفل ويحتسي الخمر في سعادة، بينما البعض يغنّي، والبعض الآخر يرقص على أنغام النصر، حتى نحن محاربو الزمن كنا نفعل ذلك، كنا سعداء بانتهاء المعركة الأولى لنا دون أن نلقى مصرعنا، بالطبع كل فرد منا كان سعيدًا لنفسه وليس للآخرين، لا نستطيع قول ذلك صراحة، ولكننا نعلم أن كل خسارة في المحاربين تعني مكسبًا للباقين، الستة ملايين دولار ستتوزع على خمسة بدلًا من ستة أو أربعة بدلًا من ستة؛ مما يعني المزيد من المال للباقين على قيد الحياة، كما قلت: لا نستطيع قول ذلك ولكن جميعنا نعلمه، وأظن أننا نتمناه داخل قلوبنا، أن يقل عددنا ويحصل واحد فقط على المبلغ كاملًا، ستة ملايين دولار أمريكي كاملة، كنا نحتفل جميعًا ما عدا المصري، ظننت في البداية أن ذلك بسبب أنه مسلم ولا يشرب الخمر، لكن عندما راقبته لفترة شعرت أن هناك سببًا آخر لذلك البُعد عن الاحتفال، خاصة أنه يجلس وحيدًا في مكان بعيد عن الجميع، اتجهت خطواتي إليه مبتعدًا عن الاحتفال، ربما بسبب رغبتي في شكره لما فعله معي اليوم من إنقاذ لحياتي، وصلت إليه ولكنه لم ينتبه لي في البداية، أجفل عندما وضعت يدي على كتفه، ثم نظر لي بمودة كبيرة لا أعلم سببها، وكأنه يعرفني منذ فترة بعيدة، جلست بجواره على صخرة كبيرة ولم أتكلم في البداية، كنا نراقب الاحتفال ورقصَ الجنود السعداء بانتصارهم اليوم أمام عشرين ألفًا من جنود الفرس، راقبت الأسترالي وهو يشرب بإفراط وكأنه مجنون، والهولندي الذي كان يرقص حول النار وهو في قمة سعادته، والأرجنتيني وهو يشرب الخمر ولكن بتحفظ نوعًا ما، حتى التركي كان يصفق وهو سعيد بما يراه ولكنه لم يكن يلمس الخمر، بعد فترة من الصمت بدأت بالحديث متسائلًا:

- لِمَ لا تحتفل معنا وتفضِّل الجلوس وحيدًا هنا؟

أخذ المصري نَفَسًا عميقًا وهو مغلق عينيه قبل أن يفتحهما مرة أخرى وينظر للرجال المنتشية بالنصر ويقول:

- لأنني أعلم، هذا هو السبب، هذا ما يحزنني.

لم أفهم عبارته فسألته مرة أخرى:

- تعلم، تعلم ماذا؟

أجابني بحزن:

- أعلم ما سيحدث، هذه هي المشكلة يا صديقي، هل ترى كل هؤلاء الرجال الذين يحتفلون ويرقصون ويشربون، جميعهم لا يعلمون ما سيحل بهم بعد يومين، لا يعلمون أنه سيتم بيعهم مقابل حفنة من مال أو ذهب أو منصب، لا يعلمون أن هناك شخصًا ما قرر أن المال والنفوذ أهم من حياة قومه، حياة من يخاطرون بحياتهم لإنقاذ حياته هو وعائلته، شخص واحد سيقرر أن يموت كل هؤلاء من أجل أن يصبح أغنى أو أكثر نفوذًا، جميع من تراهم الآن لن يروا عائلاتهم مرة أخرى بسبب طمع شخص ما، ثلاث مائة أب لن يرى ابنه، لن يحتضنه يوم زواجه، لن يكون بجانبه عندما يضعف أو ينكسر بسبب ضربات الحياة له، أنت ترى الآن آخر لحظات حياتهم ولا تستطيع فعل أي شيء لتغيير ذلك.

كان ما يقوله المصري غريبًا بالنسبة لي، لم أكن معتادًا على مقابلة أحد يفكر بهذه الطريقة، لقد نشأت وسط القتلة وتجار مخدرات، وفي عالمهم لا يمكن أن تقابل شخصًا يفكر بتلك الطريقة، ارتأيت أن أتركه وحده قليلًا بعد أن عاد لصمته؛ لذا نهضت من مكاني وبدأت في الابتعاد عنه، حينها تذكرت شيئًا فرجعت إليه قائلًا:

- أنت مخطئ فيما قلته.

نظر لي المصري وعلى وجهه علامات عدم الفهم فقلت له:

- عندما قلتَ: إنك لا تستطيع تغيير شيء، أنت مخطئ، لقد أنقذتني اليوم، وأنقذت حياة ولدي أليخاندرو بإنقاذك لي، لقد استطعت تغيير شيء ما اليوم، مَنْ تراهم أمامك ماتوا بالفعل منذ ألفي وخمس مائة عام، على خلافي أنا، أنا حي أُرْزَق ولي عائلة أتمنى احتضانها مرة أخرى وسأرجع لولدي بفضلك أنت، ربما ابني بالنسبة لك لا يُهمك، ولكنه بالنسبة لي كل شيء؛ لذا فأنت مخطئ، شكرًا لك على ما فعلته أيها المصري.

بَدَا التأثر الشديد على ملامح وجهه وابتسم ابتسامة دافئة قبل أن يقول لي بصوت متحشرج من التأثر:

- أنا مصري فعلًا ولكنني أُدْعَى كامل.

مددت يدي لمصافحته وأنا أبادله الابتسام قائلًا في محاولة مني لإضفاء بعض المرح:

- وأنا مكسيكي أُدْعَى مانويل أيها المصري الذي يُدْعَى كامل.

صافحني كامل ووضع يده الأخرى على يدينا المتصافحتين قبل أن يقول:

- شكرًا لك مانويل، لقد قلتَ ما كنت بحاجة لسماعه.

وضعت يدي على كتفه كأننا إخوة قبل أن أقول له:

- والآن هيا بنا نحتفل، أنت من سأحتفل به اليوم يا صديقي ... صديقي كامل.

اتجهنا لمكان احتفال أبطال إسبرطة بيومهم الأول لإثبات سمعتهم وشرفهم في ميدان ثرموبيلي، كانت المرة الأولى لي منذ وقت بعيد لا أعلم متى بدأ أن أفرح وأحتفل، كانت المرة الأولى لي منذ وقت بعيد أشعر بأن لي صديقًا وأخًا، أخًا يُدْعَى كامل لم أره في حياتي إلا منذ بضعة أيام، ربما أبالغ قليلًا في وصفي له بهذه الصفة، ولكن إنقاذه لحياتي جعلني أفكر به بطريقة مختلفة، طريقة أكثر احترامًا وتقديرًا وحبًّا.

- انتهى الاحتفال بعد ساعة تقريبًا وحان وقت النوم، حان وقت الاستعداد ليوم آخر من المجد والشرف لهؤلاء الإسبرطيين، يوم آخر وأخير قبل أن يتم قتلهم بسيف الخيانة، بدأ الجميع في الخلود للنوم ولكن حانت مني التفاته نحو كامل الذي كان ما زال مستيقظًا واضعًا يديه خلف رأسه وهو ممدد على الأرض بجواري، سألته بصوت خفيض:

فيم تفكر الآن يا كامل؟

- ابتسم دون أن ينظر لي قبل أن يقول:

- فقط أفكر في مقولة الكثرة تغلب الشجاعة.

قلت له وأنا أنظر إليه بينما ضوء القمر يغمر وجوهنا بلونه الأبيض النقي:

- فعلًا، الكثرة تغلب الشجاعة للأسف يا صديقي.

هز رأسه نافيًا وقال:

- إلا هنا يا صديقي، في أي معركة أخرى في مكان آخر يمكن أن تكون تلك المقولة صحيحة، ولكن في هذا المكان الضيق الذي سيذكره التاريخ إلى الأبد فإن الشجاعة تغلب الكثرة والظلم والطمع، هنا الشجاعة تغلب كل شيء إلا الخيانة.

كنت أعلم ما يقصده كامل؛ لذا لم أعلق، كان يقصد ما سيحدث غدًا مساءً عندما ينطلق إيفيالتس لخيانة بني قومه، أغلقت عيني وأنا أقول:

- حان وقت الرجوع، حين نستيقظ سيكون كل ذلك مجرد ذكرى عشناها لفترة من الوقت، عِمْتَ مساءً يا صديقي.

كان صوته خافتًا ولكنني سمعته يقولها:

- عمت مساءً يا صديقي، وعمتِ مساءً يا ثرموبيلي، كان لي شرف القتال على أرضِكِ ومع رجالِكِ.

لست مستعدًّا

ببطء شديد بدأتُ بفتح عيناي، كان الدوار العنيف يجتاح رأسي مرهقًا حواسي ولكنني فتحت عيناي رغم ذلك، كان الضوء الأبيض يغمر المكان بشكل مزعج، ولكن رغم الدوار والضوء استطعت رؤية المكان الذي نوجد به الآن، كان المكان الذي بدأت منه مغامرتنا الأولى، معمل الدكتور جايمس بارسون، كانت العيون كلها تتطلع بشغف بالغ علينا وما أن فتحنا أعيننا حتى انطلق تصفيق حاد في المعمل مع صافرات النصر من بعض العاملين، كانت الكاميرات التي تصوِّر لحظاتنا الأولى في زمننا الحالي تدور بلا توقف وتحاول أخذ صور من جميع الزوايا لنا جميعًا، وسط التصفيق والهتاف اتجه الطبيب مباشرة نحونا ليسألنا:

- هل سار كل شيء على ما يرام في رحلتكم أم لا؟

كان أول مَنْ رد عليه هو كامل الذي قال له بوهن:

- بلى أيها الطبيب، لقد كنا هناك فعلًا، لقد حاربنا في ثرموبيلي.

قال ذلك ليزداد التصفيق والهتاف للأبطال داخل المعمل الكبير في الوقت الذي ابتسم فيه الطبيب وزفر في ارتياح واضح قبل أن يقول:

- هذا رائع، بل أكثر من رائع، هذا هو التاريخ يُكْتَبُ من جديد بأيديكم أنتم، بأيدي محاربي الزمن.

ثم تابع حديثه قائلًا:

- الآن سيساعدكم الطاقم على الذهاب لغرفتكم للراحة قبل أن نبدأ عملية استخلاص ما شاهدتموه خلال ذلك اليوم، أثق أننا سنرى الكثير مما لم نتخيله من قبل، عملًا رائعًا أيها السادة، عملًا رائعًا، سوف أبلغ السيد هاوارد بالأنباء الرائعة.

لم ينتظر الطبيب بعد قوله لكلماته تلك أي تعليق من المحاربين، هرع على الفور لإبلاغ السيد إدوارد هاوارد رئيس الشركة بالأخبار المفرحة، بينما بدأ أفراد الطاقم الطبي عملهم في الاطمئنان أولًا على المؤشرات الحيوية، قبل أن يضعوا كل فرد منا على مقعد متحرك لنذهب إلى غرفتنا لنَيْلِ بعض الراحة قبل أن يبدأ اليوم بالنسبة إلينا، كان جدولنا حافلًا طوال اليوم، ولكن كل ما كنت أريده الآن هو بعض الراحة التامة دون أي منغصات أو إزعاج، توجَّهنا إلى غرفتنا لنَيْل بضع ساعات من الراحة كما تم إخبارنا من الفريق الطبي قبل أن نتجمع مرة أخرى لبدء عملية الاستخلاص الوعيي كما يسميها دكتور جايمس، وصلنا إلى الغرفة ولم يتحدث أحد منا للآخر، كان الجميع بحاجة لبعض الراحة للتخلص من ذلك الصداع والدوار الذي يجتاح رؤوسنا، لكن رغم ذلك كانوا سعداء، كانوا سعداء بتخطيهم العقبة الأولى، كما كنت أنا سعيد بمروري من أول عقبة في سبيل علاج أليهو.

بعد مرور الأربع ساعات دخل الدكتور جايمس إلى الغرفة ومعه بعض أفراد فريقه الطبي والعلمي ليجد أن الجميع قد استيقظ، كنا حينها أنا وكامل نتبادل أطراف الحديث بودٍّ ومرح، نظر الطبيب للجميع قبل أن يقول:

- حسنًا، من الجيد أنكم جميعًا مستيقظون، آمل أن تكونوا قد ارتحتم خلال الساعات القليلة الماضية؛ لأن أمامنا الكثير لفعله الآن، سنبدأ بعملية الاستخلاص الوعيي حتى يتسنَّى لنا رؤية ما حدث لكم خلال رحلتكم الأولى عبر الماضي، ثم سيتم عمل مقابلات شخصية مع كل فرد منكم على حِدَة لكي يحكي تلك التجربة من وجهة نظره، كنت أتمنى ألا تضطروا لذلك حتى تستعدوا للمعركة الجديدة غدًا ولكن للأسف القرار ليس ملكًا لي، القناة الناقلة لأحداث البرنامج مصرَّة على ذلك، وقد وافق السيد هاوارد على طلبها، سوف أترككم الآن مع أعضاء الفريق الطبي إن كان لدى أحد منكم شكوى صحية من أي نوع ولإجراء بعض الفحوص السريعة قبل أن تلحقوا بي في المعمل لنبدأ عملنا اليوم.

بعد أن أنهى كلماته، غادر الطبيب المكان ليبدأ أفراد الفريق الطبي في إجراء تلك الفحوصات التي طلبها منهم الأخير، لم يمض كثير من الوقت حتى انتهت تلك الفحوص لننطلق جميعًا إلى المعمل، تمدد كل منا على الفراش المخصص له بينما يوجد حول كل محارب مجموعة من التقنيين الذين يضعون الأقطاب على رأسه وجسده لتبدأ عملية الاستخلاص الوعيي للمجموعة بالكامل، كان الطبيب الآن يتأكد من عمل الأجهزة الخاصة بكل محارب على حِدَة، اقترب من فراش الأسترالي الذي كان متجهمًا فسأله الطبيب:

- لا تقلق، لن تستغرق تلك العملية الكثير من الوقت إذا كان هذا ما يقلقك.

نظر له الأسترالي بضيق قبل أن يجيبه:

- ما يقلقني هو تحولي لقرد تجارب تُجْرُون عليه اختباراتكم السخيفة.

لم تتغير معالم الطبيب ولكنه قال ببرود:

- لم يرغمك أحد على دخول البرنامج ولا تنسَ أنك تستطيع الخروج منه في أي وقت تشاء، هل تحب أن أبلغ الإدارة رغبتك في الانسحاب؟ أظن أن الميجور سيُسَرُّ لهذا الأمر جدًّا، ألا توافقني الرأي؟

وَدَّ الأسترالي لو يهشِّم رأس الطبيب العجوز الآن وهو يتحدث معه بتلك النبرة المتحدية، ولكنه كان بحاجة للمال فلم يفعل أي شيء، اكتفى بأن يرمق الطبيب بنظرات نارية تعني الكثير، نظرات لم يُعِرْها الطبيب أي انتباه، لحظات وتوجه بعدها إلى كامل ليتأكد من عمل الأجهزة وبينما هو منشغل في عمله سأله كامل قائلًا:

- هل عملية الاستخلاص تلك مؤلمة دكتور جايمس؟

ابتسم له الطبيب قائلًا:

- لا تقلق، لن تشعر بأي شيء أيها البطل.

استرخى كامل في فراشه، ولكن الطبيب تابع الحديث قائلًا:

- يبدو أنك كسبت صديقًا جديدًا في رحلتكم الأولى.

نظر كامل للطبيب بعيون متسائلة قبل أن يجيبه الأخير قائلًا:

- لقد أخبرني مانويل بما فعلته في المعركة، إنه ممتنٌّ بشدة لذلك، عندما رأيتك تنقذ ذلك المتسابق في المسبح علمت أنك قائد، أنت الصمغ الذي سيجعل من هؤلاء المحاربين وحدة واحدة، نجحت في ذلك عندما أنقذت مانويل وأنا متأكد أنك ستفعلها مرة أخرى، لقد كنت على حق حين راهنت عليك، استرخِ الآن لن يستغرق الأمر طويلًا.

وبالفعل لم تمضِ نصف ساعة حتى كانت عملية الاستخلاص قد انتهت لتبدأ مرحلة المقابلات الشخصية، كل منكم سيتم عمل مقابلة معه لمدةَ نصف ساعة ليتحدث عما مرَّ به خلال رحلته عبر الزمن، كانت البداية مع المحارب التركي الذي اتجه إلى غرفة المقابلات، بينما اتجه الباقون نحو المطعم لتناول بعض الطعام حتى يأتي دور المحارب التالي لإجراء المقابلة، كل شخص منهم كان يأكل بمفرده بمنأى عن الآخرين ما عدا بالطبع كامل وأنا، كنا نأكل ونتمازح كما لو أننا أصدقاء منذ فترة طويلة، بعد بضع ساعات انتهت مرحلة المقابلات الشخصية، ليبدأ اجتماعنا مع الدكتور جايمس.

دخل الجميع إلى قاعة الاجتماعات لينضم إلينا لاحقًا كلٌّ من دكتور جايمس والميجور باتريك لوكوود، كان يبدو الإرهاق على الجميع؛ لذا بدأ الميجور الحديث قائلًا:

- أعلم أنه كان يومًا شاقًّا لكم جميعًا، ولكن يجب أن تعتادوا ذلك خلال الأيام القليلة الماضية حتى تنتهي المعارك بفوزكم، أو على الأقل فوز بعضكم بالجائزة التي جئتم من أجلها، على أي حال لن أطيل عليكم حتى تحصلوا على قسط كافٍ من الراحة قبل المعركة التالية، هذا الاجتماع لطرح أسئلتكم إذا كان لديكم أسئلة، مَنْ يريد البدء أيها السادة؟

نهض كامل من مقعده ليقول وهو ينظر للطبيب:

- ما لديَّ هو طلب وليس سؤالًا دكتور جايمس.

نظر له الطبيب وهو يسترخي في مقعده قبل أن يقول:

- حسنًا، ما هو طلبك سيد كامل؟

رد عليه كامل قائلًا:

- الطلب هو أن نعلم ما هي المعركة التالية قبلها بوقت كافٍ حتى نستطيع أن نقرأ عنها قبل دخولها، لقد دخلنا المعركة السابقة ونحن لا نعلم أي شيء عنها مما عرَّض حياتنا لخطر لا داعيَ له، ولولا المعلومات التي أخبرنا بها زميلنا الهولندي توماس لربما كان شخص منا فقد حياته منذ اليوم الأول لنا، أنت قلتَ من قبل: إنكم اخترتم بالفعل المعارك التي سوف نخوضها، حسنًا، لن يضيركم أن نعلم بها قبل دخولها.

هنا رد عليه الميجور العجوز قائلًا:

- لا بالطبع لن يضيرنا، ولكن المطلوب أن تحاربوا في المعركة دون أن تعلموا الكثير عنها، هذا سيخلق المزيد من الإثارة للمشاهدين.

هنا نظر كامل إلى عينَي الميجور ليسأله في حزم:

- وهل تلك الإثارة تستحق أن يخسر شخص منا حياته في المعركة؟

لم يرُدَّ الميجور مباشرة فقد أخرسه السؤال، فأكمل كامل حديثه للميجور:

- سيدي الميجور، لقد كنت بالجيش من قبل وحاربت مثلما حاربنا وقدت رجالًا في أرض المعركة، بعضهم رجع سالمًا إلى وطنه وبعضهم رجعتَ أنت لتخبر عائلته أنه توفِّي تحت إمرتك، قل لي إذن، هل أنت مستعد لتخبر عائلة أحدنا أنه قُتِلَ من أجل إضفاء بعض الإثارة على برنامجكم؟ هل أنت مستعد لذلك يا سيدي؟

تطلَّع الميجور مليًّا لوجه كامل قبل أن يجيبه بقوله:

- سوف نتناقش في ذلك الأمر مع إدارة الشركة والقناة، ولكن حاليًّا ستدخلون المعركة القادمة دون أن تعلموا ما هي تلك المعركة، حين ترجعون سوف نخبرك بما وصلنا إليه أيها الشاب.

وبمجرد أن أنهى الميجور كلماته حتى تحدث الطبيب مرة أخرى قائلًا:

- حسنًا، هل لدى أي منكم أسئلة أخرى؟

عندها ساد الصمت في القاعة بينما الطبيب ينظر للجميع منتظرًا أن يسأل أحدنا عن أي شيء، ولكن عندما رأى ذلك الصمت لملم أوراقه من على مائدة الاجتماعات وهو يقول:

- حسنًا، يبدو أننا انتهينا هنا، يمكنكم الآن التوجه لغرفتكم أو قضاء بعض الوقت في فعل ما تريدون، ولكن يجب أن أذكركم بأنكم ستتوجهون للمعركة التالية في غضون ساعات قليلة، فلتحصلوا على قسط جيد من الراحة قبلها إذن، يمكنكم المغادرة الآن.

بدأنا في النهوض من مقاعدنا والانصراف من القاعة، كان آخر المغادرين هو كامل الذي وجد الميجور يضع يده على كتفه ليستوقفه قبل خروجه من الغرفة، ويقول له بصوت منخفض:

- لا، لست مستعدًّا.

بدت الحيرة على وجه كامل ونظر له بعدم فهم؛ لذا فقد أردف الميجور قائلًا:

- لقد سألتني هل أنا مستعد أم لا لأنقل خبر وفاة أحدكم إلى عائلته، إجابتي هي لا أيها الشاب، طوال حياتي في الجيش لم أكن مستعدًّا لذلك، لطالما كانت تلك اللحظة أصعب بكثير من الحرب ذاتها؛ لذا فسوف أحرص على أن توافق الإدارة على طلبك.

ثم ابتسم الميجور وهو يقول لكامل:

- لقد علمت أنك ستكون قائدًا لتلك المجموعة، هم فقط لا يعلمون ذلك بعدُ كما أنك أيضًا لا تعلمه، ولكنك تحمل مقومات القيادة يا صديقي، أنا مسرور لأنك معهم في هذه الرحلة، حينما يحتاجون شخصًا يحميهم أعلم أنك ستقوم بذلك، عملًا جيدًا أيها الشاب، عملًا جيدًا.

خرجنا من القاعة لنبدأ في السير سويًّا تجاه الغرفة، في الطريق قابلنا المحارب الهولندي الذي قال لكامل وهو ينفث دخان سيجارته في الهواء:

- لم يكن هناك داعٍ لذكر اسمي في الداخل أيها المصري، كان باستطاعتي التحدث بنفسي إن أردت ذلك، فلتهتمَّ بشئونك الخاصة في المرة القادمة، هل نحن متفقين؟

لم ينتظر الهولندي ردًّا من كامل، فقط نظر لكامل قبل أن يسحق سيجارته ويمضي في طريقه، حينها قلت لكامل بغيظ:

- لا تُلْقِ بالًا لهذا المغرور، يظن نفسه أفضل من الجميع، لا تشغل نفسك به.

ابتسم كامل وهو يربِتُ عليَّ كتفي قبل أن نكمل طريقنا إلى الغرفة لنيل قسط من الراحة قبل المواجهة التالية، المواجهة التي لا نعلم عنها أي شيء سوى أنها خطوة أخرى في طريقنا للوصول إلى مبتغانا.

...

المعركة الثانية بعقل سليم

فتحت عيني لأرى العالم الذي جئنا إليه هذه المرة، كنت أشعر بصداع ودوار كما حدث معي في بداية المعركة السابقة، ولكنه كان أخفَّ وطأة عن ذي قبل، يبدو أن عقلي قد بدأ يعتاد على تلك الرحلات عبر الزمن، أول ما لاحظته أن الجو حارٌّ بدرجة كبيرة، ثم بدأت ملاحظة ما ومَنْ حولي، لم أعلم في البداية أين أنا ولكن بمرور الثواني على عقلي بدأت أستوعب ما يحدث لي وأعرف أين أنا بالضبط، يبدو أن الوعي الخاص بنا يستغرق بعض الوقت قبل أن يسيطر بالكامل على ذكريات الرجال الذين نحِلُّ ضيوفًا على عقولهم، بعد مرور هذا الوقت القليل تبدأ في معرفة تاريخ وذكريات الرجل الذي تحتل عقله الآن، أنا أعلم الآن ما هذا المكان وما هي تلك المعركة، ولكن قبل أن أسترسل في تفكيري بدأ بقية المحاربين في الاستيقاظ من نومهم، في البداية كانوا مثلي، عيون تتفتح على استحياء في مواجهة شمس حارقة تخترق القماش الذي يظلنا أعلانا ونظرات بلا فهم لما حولهم قبل أن يبدأ وعيهم في إخبارهم وإعلامهم بالمكان الذي نحن فيه الآن، كنا في خيمة متوسطة الحجم من القماش الأبيض الخفيف، لم يكن هناك سوانا نحن الستة فقط في الخيمة، وجدتني دون تفكير أقول لهم:

- مرحبًا بكم في حطِّين أيها السادة.

بدأ المحاربون في الاستيقاظ والانتباه عقب جملتي التي قلتها، ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي أتفوَّه بها بكلمة معهم منذ بداية تعرُّفي عليهم في غرفة المحاربين، ولكنني رغم الألم الذي يعصف بي كنت أشعر بالفخر بل ربما حتى الفرحة أن معركتنا اليوم هي معركة حطِّين، يوم الرابع من يوليو من عام ١١٨٧ حين وقف العرب وقفة رجل واحد أمام أطماع وظلم الصليبيين الذين أتوا منذ عشرات السنين لنهب ثرواتنا وخيراتنا، أخرجني من تفكيري صوت الأسترالي الذي قال في ضيق:

- رائع، معركة جديدة لا نعلم عنها أي شيء يساعدنا خلالها.

ثم نظر للهولندي قائلًا في تهكم واضح:

- أم إنك ستُلْقِي علينا محاضرة أخرى من محاضراتك كما فعلتَ في المرة السابقة؟

ابتسم الهولندي ابتسامة قصيرة، ثم فجأة نهض من مكانه واتجه بخطوات سريعة نحو الأسترالي، كان يبدو وكأنه موشك على خوض عراك معه إثر تهكمه عليه، ولكن المصري تدخَّل وأنقذ الموقف، وقف بينهما ليدفع كليهما بعيدًا عن الآخر وهو يقول:

- تذكروا لِمَ نحن هنا أيها المحاربون، هل تريدون لَفْتَ الأنظار إليكم بعراككم السخيف؟ ماذا تظنون سيحدث إن دخل أحد الجنود إلى خيمتنا الآن ووجدنا نتقاتل فيما بيننا؟

كان كِلَا المحاربين ينظران لبعضهما البعض نظرة مليئة بالحقد والتحدي، ولكن الأسترالي بدأ بالحديث قائلًا:

- إنه على حق أيها الهولندي المتعجرف، فلنؤجِّل معركتنا الخاصة لوقت آخر.

أبعد الهولندي يد المصري عنه بعصبية وهو يقول:

- إننا لم ننتهِ بعدُ أيها الوقح، تأكد من ذلك.

اتجه بعدها كل منهما إلى مكانه ليجلس قبل أن يقول المكسيكي:

- حسنًا، فلنفكر بعقلانية، نحن الآن في عقول من سيخوضون تلك المعركة؛ لذا فنحن نعلم ما حدث من الماضي ولكننا لا نعلم ما هو قادم حتى نأخذ حذرنا.

ثم اتجه ببصره نحو المصري وهو يقول له:

- كامل، أنت مصري ومسلم، ما الذي تعلمه عن تلك المعركة وقد يفيدنا عند بدء القتال؟

اتجهت أنظارنا جميعًا نحو المدعو كامل الذي اعتدل في جلسته قبل أن يبدأ الحديث قائلًا:

- كما قال مانويل نحن نعلم ما حدث بالفعل قبل اليوم والذي كان موجودًا في ذاكرة الرجال الذين حللنا على عقولهم، نعلم أن المعركة هي معركة حطِّين التي كانت بين المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي أحد أعظم القادة العرب وبين جيش الصليبيين بقيادة ملك القدس جي دي لويزنيان، ونعلم أيضًا أن صلاح الدين قد قام باستفزاز الصليبيين عن طريق هجومه على مدينة طبرية وتدمير صهاريج الماء، وعندما علم الملك لويزنيان بذلك أمر بالهجوم على جيش المسلمين، الآن اجتاز الصليبيون مسافة تُقَدَّر بعشرات الكيلومترات في الصحراء سيرًا على الأقدام تحت الشمس الحارقة ودون وجود كميات كافية من الماء، هم الآن على قدر كبير من الإعياء والظمأ، وهذه نقطة لصالحنا، أعدادهم تُقَدَّر بنحو ثلاثة وستين ألفًا من الفرسان والمشاة، بينما قوات المسلمين حوالي خمسة وعشرين ألفًا نصفهم من المشاة والنصف الآخر من الفرسان، أعداد الجيش الصليبي أكبر ولكن الإعياء والظمأ سيجعلهم خائري القوى أمام الهجوم الإسلامي، كما أن المسلمين قاموا البارحة بإشعال النيران في الأعشاب الجافة وقد امتلأ معسكرهم بدخان الحرائق الصغيرة ليمنعهم من النوم طيلة الليل، هم الآن في قمة الإنهاك والظمأ وهذا ما سيحسم تلك المعركة لصالحنا.

حينها صاح الأسترالي في غضب:

- خمسة وعشرون ألفًا في مواجهة أكثر من ضِعْفِ عددهم من الفرسان المدربين على القتال والحرب، سوف يبيدون العرب ونحن معهم، يا لها من أخبار رائعة، لِمَ لا نقتل أنفسنا الآن وننتهي من الأمر بدلًا من انتظار الموت في المعركة.

بمجرد أن قال الأخير تلك الكلمات وجدنا كامل وكأنه موشك على العراك هو أيضًا مع الأسترالي كما كان سيفعل الهولندي ولكنه لم يتحرك، فقط نظر للأسترالي نظرة غاضبة شعرتُ كأنها جمَّدت الدماء في عروق الأسترالي قبل أن يقول كامل:

- أنت لا تعلم شيئًا عن المسلمين، إننا لم نحارب حينها من أجل سلطة أو طمعًا في مال أو أرض ليست ملكنا، ولكننا قاتلنا من

آجل آشياء لا تعلمها ولن تفهمها، قاتلنا حينها من آجل القدس، من آجلها جاء آلاف المسلمين طوعًا لإرجاعها لأصحابها، من ستراهم خارج خيمتنا جاؤوا لنصرة دينهم وللوقوف أمام الظلم مهما كانت قوته أو جبروته أو سلطته، من ستراهم خارج خيمتنا جاؤوا وهم لا يريدون إلا الصلاة في المسجد الأقصى حتى لو ماتوا في سبيل ذلك، المسجد الذي قُتِلَ فيه سبعون ألفًا من المسلمين عندما دخله الصليبيون لأول مرة عام ٩٩٠١، رجال ونساء وأطفال وعجائز قُتِلُوا على أبوابه احتفالًا بدخول الصليبيين للقدس.

ثم اقترب كامل من الأسترالي حتى كاد وجهاهما يتلامسان قبل أن يقول له بصوت خافت:

- من ستراهم خارج خيمتنا لم يأتوا مثلك أو مثلي من أجل المال أو الشهرة أو بحثًا عن مغامرة، لقد جاؤوا من أجل ربهم ونبيهم؛ لذا صدقني حين أقولها لك: إنه إذا كانت قوات الصليبيين أضعاف مَنْ هم بالخارج فثق بأننا من سنفوز؛ لأننا ندافع عما هو أشرف وأنبل مني ومنك.

كنا نتوقع ثورة غضب من الأسترالي على ما فعله المصري، ولكن عوضًا عن ذلك وجدته ينظر له طويلًا قبل أن يقول بنبرة لا تخلو من الأسف:

- أنا لم أقصد الإهانة لك أو للمسلمين أيها المصري، حقًّا لم أقصد ذلك.

حينها اعتدل كامل في وقفته قبل أن يكمل حديثه وكأن شيئًا لم يحدث:

- ستستغرق المعركة سبع ساعات كاملة تقريبًا، أي إننا سنحارب لمدة سبع ساعات متتالية ولكن في النهاية سيكون النصر حليفنا، سيتم قتل نصف الجيش الصليبي وأَسْر النصف الآخر بما فيهم ملكهم لويزنيان، سوف تكون معركة طويلة ومرهقة ولكن في نهايتها سننتصر، المسلمون سينتصرون.

ثم أكمل حديثه قائلًا:

- والآن فليرتدِ كل منا زيه العسكري ولنتأهب لما هو قادم اليوم.

بدأنا بالفعل في ارتداء ملابسنا العسكرية والاستعداد للمعركة المقبلة، لم نكن في هذه المعركة جنودًا كما في المعركة السابقة، كنا قادة في جيش المسلمين، علمت ذلك داخل عقلي، من ذكريات الرجل الذي أحارب بجسده اليوم، علمت أننا من قادة صلاح الدين ومن المقرَّبين إليه وَلَكَمْ أسعدني ذلك؛ لأنني اليوم سيتسنى لي مقابلة أحد أعظم ملوك العرب، القائد الذي استعاد كرامتنا يومًا ما، استعاد كرامتنا عندما كنا نستحق الكرامة قبل أن تضيع هيبتنا وأرضنا بمرور الأيام والأعوام، لم نكن قد أكملنا تجهيزاتنا عندما دخل أحد الجنود إلى خيمتنا ليقول:

- السلام عليكم أيها القادة، القائد صلاح الدين يطلبكم للاجتماع بكم في خيمته في الحال، هو بانتظاركم الآن.

أومأ المصري برأسه للجندي وقال له:

- أخبر قائدنا أننا في طريقنا إليه.

لم يمض الكثير من الوقت حتى كنا ندخل خيمة صلاح الدين الأيوبي، كان قد سبقنا عدد من القادة والأمراء الذين يشاركون في المعركة القادمة، كانت المرة الأولى التي تقع عيناي عليه هذا اليوم ولكنها لم تكن الأخيرة، كان واقفًا أمامنا فاردًا ذراعيه وكأنه نسر يوشك على الطيران، بينما كان بعض رجاله يقومون بمساعدته في ارتداء ملابس المعركة، طويل وعلى وجهه علامات تجمع بين الحزم والطيبة، كان في بداية عقده السادس من العمر، بدأ الشعر الأبيض يتناثر في شاربه ولحيته، ابتسم لنا في رفق وقال لنا:

- السلام عليكم يا رفاقي، اليوم هو يوم الحسم يا إخواني، يوم كسرنا للعدو الصليبي الذي عاث فسادًا في أرضنا طيلة تسعين عامًا منذ وطئت قدماه أرض الله المقدسة في القدس، تسعين عامًا امتلأت بالقتل والتنكيل والسرقة وهتك الأعراض وتدنيس أماكن العبادة، مسجد الصخرة حوَّلوه إلى كنيسة والمسجد الأقصى جعلوه إسطبلًا للخيل والبهائم، ولكن كل هذا سينتهي قريبًا بإذن الله، اليوم ندحر جيش الصليبيين وغدًا نبدأ زحفنا نحو القدس لإعلاء كلمة الحق والعدل فوق مئذنة الأقصى وفوق القدس بأكملها بإذن الله يا إخواني.

كان قد انتهى رجاله من تجهيزه للقتال، حينها اقترب من المائدة التي تتوسط الخيمة واقتربنا نحن بدورنا ليعلم كل فرد دوره، سيقود صلاح الدين قوات المنتصف بنفسه، بينما أمر الأمير تقي الدين عمر ابن أخيه بقيادة الميمنة، أما قوات الميسرة فكانت تحت قيادة الأمير مظفر الدين كوكبري، وتم تقسيم باقي القادة والأمراء على الجيوش الثلاثة، كنت أنا وباقي المحاربين من قوات قلب الهجوم التي سيقودها صلاح الدين بنفسه، سرَّني ذلك كثيرًا لأنني كمسلم كنت مأخوذًا بتلك الشخصية التي استطاعت توحيد العرب لكي نستطيع رفع هاماتنا مرة أخرى حتى ولو لبعض الوقت قبل أن ترجع القدس أسيرة في يد الصليبيين الجدد، خرجنا من خيمة القيادة ليمتطي كل منا جواده ولننطلق لأرض المعركة، من خلفنا كانت أبواق المعركة تطلق نفيرها لكي يتجمع مشاة المسلمين في زحفهم نحو الحق والإسلام والواجب، انطلق القائد صلاح الدين لميدان المعركة بينما العرب يتجمعون خلفه في صفوف منتظمة متراصة لبدء القتال، ظللنا في التقدم حتى وصلنا لميدان المعركة، كان أمامنا الجيش الصليبي على مرمى البصر، كانت لحظة بدء المعركة على وشك البدء، كنت أستطيع سماع الجنود من خلفي وهم يرددون الشهادتين بصوت منخفض، كذلك فعلت أنا ونحن في انتظار إطلاق صلاح الدين الأمر ببدء المعركة، لم يدم انتظارنا طويلًا، ارتفعت يد صلاح الدين لتأمر رماة السهام بالاستعداد، ارتفعت مقدمة آلاف السهام في الهواء وتراجعت إلى الخلف في انتظار إشارة القائد للانطلاق نحو أعدائها، انخفضت يد صلاح الدين لترتفع السهام في الهواء مُحْدِثَةً صوتًا عاليًا وهي تنطلق في الهواء تبحث بشراهة عمَّن دنَّس مسجدنا الحرام لتنتقم منه على ما فعل، انطلقت السهام العربية في الهواء في قوة اكتسبتها من قوة مَنْ أطلقها، مُحْدِثَةً أزيزًا أدخل الرعب في قلوب الصليبيين حتى قبل أن تصل إليهم، احتمى الصليبيون خلف دروعهم ولكن رغم ذلك لم يجد الكل الوقت الكافي لفعل ذلك، تساقَطَ الواحد تلو الآخر، وسقطت دماؤهم على الأرض الطاهرة التي اغتصبوها يومًا لترويها رغمًا عنهم، سقط المئات منهم ما بين قتيل وجريح، وقبل أن يفيقوا من الضربة الأولى كانت الموجة الثانية من السهام في طريقها إليهم لتلحق بمن سبقها، توالى سقوط الجنود الصليبيين على الأرض، توالى سقوط الظلم والقهر والاستبداد على أرض حطين، ظلت السهام العربية تحصد أرواح الجنود في موجات الواحدة تلو الأخرى، كانت جياد العرب تضرب الأرض بحوافرها بقوة مُحْدِثة سحابة ترابية

تحت أقدامنا، حتى الخيول كانت متلهفة للقتال، رَبَتَّ برفق على عنق جوادي وأنا أهمس قائلًا:

- لا تقلق يا عزيزي، سيحين وقتنا قريبًا، ثق من ذلك.

انتهى الهجوم العربي الأول بالسهام، سقط المئات وربما الآلاف من الصليبيين صرعى من هجومنا الأول، كنت بالقرب حينها من القائد صلاح الدين الذي سمعته يقول بصوت هادئ:

- على بركة الله نبدأ، اللهم تقبل منا صالح أعمالنا وتقبلنا مع الشهداء.

ثم أطلق صيحة الهجوم عالية قائلًا:

- الله أكبر.

حينها ارتجَّت جبال حطين بصيحات العرب وهم يرفعون سيوفهم في الهواء مرددين الله أكبر، انطلقت الخيول العربية في هجومها نحو الصليبيين الذين لم يفيقوا بعدُ من الهجوم الأول، كان يتقدمنا صلاح الدين بنفسه في المعركة، كنت أعلم أننا سننتصر، ليس لأنني أعلم ذلك مسبقًا ولكن لأن قائدنا هو أول المحاربين في المعركة، بينما قائد الصليبيين يكتفي فقط بمشاهدة المعركة من بعيد، كان لويزنيان خلف جيشه الموشك على تلقِّي هزيمة ساحقة يكتفي بإصدار أوامره لقواده وفرسانه، هذا هو ما جعلني أتأكد من النصر، اقتربنا من الصليبيين الذين بدأوا في الاستعداد لملاقاتنا، بدأ فرسانهم في التقدم لمواجهتنا، كانت خيولهم تتعثر في جثث من مات من جنودهم في الهجوم الأول، استللنا سيوفنا ورفعناها في السماء بقوة ونحن نطلق جملة واحدة، الله أكبر، الله فعلًا أكبر، أكبر من كل ظالم ومُعْتَدٍ.

اقتربنا كثيرًا من القوات الصليبية والتي بدأت في القدوم باتجاهنا هي الأخرى، وبدأت المعركة، دوَّت أصوات السيوف لأول مرة في هذا اليوم، بدأت سيوفنا في حصد أرواح فرسان المعبد الذين كانوا في مقدمة القوات الصليبية، كنا نوقِعُ منهم العشرات كل لحظة، دروعهم الثقيلة ولباسهم المعدني منعهم أن يكونوا مرنين وسريعي الحركة مثلنا، دروعهم التي قصدوا منها أن تحميهم من الموت كانت هي سبب مصرعهم في المعركة، انطلقتُ وسط الفرسان الصليبيين على صهوة جوادي أشقُّ طريقي عبرهم بينما سيفي ينطلق يمينًا ويسارًا ليرجع منتصرًا في كل مرة تعلوه دماء من اغتصب أرضنا، حتى جوادي كان يحارب معي، كان يرفع قائمتيه الأماميتين ليهبط بهما على درع فارس صليبي ليسقطه أرضًا من على حصانه، وقبل أن يحاول النهوض من مكانه كان سيفي يعاجله بضربة قاتلة، لأول مرة أحارب بتلك الطريقة، وكأنني وُلِدت للحرب بالسيف وعلى صهوة جواد، كانت جيادنا تنطلق راكضة بحُرِّية من درع وزيٍّ معدني يحول دون تحركه بحرية مثلنا؛ لذا كنا أخفَّ وأسرع وأقوى، كان جنود الصليبيين يجاهدون لرفع سيوفهم في وجوهنا من فرط إعيائهم من قلة المياه؛ لذا فقد أخذت جثثهم في التكدس على أرضنا ونحن نُسقِط منهم العشرات بسيوفنا في كل دقيقة تمر علينا، نظرت لباقي المحاربين الذين كانوا على مقربة مني، لم أتبين وجوههم جيدًا بسبب الرمال العالية التي سببتها حوافر الجياد وأقدام الجنود، ولكنني كنت قادرًا على تبيُّن ما يفعلونه، كان أبرز ما استرعى انتباهي هو ذلك المصري، كان يتصرف وكأنه وُلِدَ من أجل تلك اللحظة وتلك اللحظة فقط، كان يجري من هنا لهناك بسرعة وقوة يُحْسَد عليها وهو يوجِّه جنوده ويحمسهم من أجل قتال أعدائنا، سمعته يقول لهم بصوت عالٍ:

- هيا أيها العرب، هم من يقفون بينكم وبين القدس، القدس يا عرب، القدس تنادينا أيها العرب.

كانت حماسة الجنود عالية جدًّا وهم يسمعون كلماته التي على الرغم من قِلَّتها ولكنها كانت لها مفعول السحر في أرض المعركة، سمعت الجنود وهم يقولون ردًّا على ما يقوله المصري:

- لبيكِ يا قدس، لبيكِ يا قدس.

كان جنوده مندفعين بكل ما أوتوا من قوة في القتال، لم يكونوا مهتمين بأرواحهم قدر اهتمامهم بحصد أرواح أعدائهم، رجال لا يخشون إلا الله، هذه هي الجملة الوحيدة التي قفزت لذهني عندما رأيته ومَنْ معه من جنود، مما زاد من حماسي أنا شخصيًّا، وبدأت في القتال بقوة أكبر، وكذلك بدأت في الاقتراب من المصري، شعرت في داخلي أنني أريد أن أقاتل بجانبه في المعركة رغم أننا لم نتحدث قبلًا، أحسست بالفخر لكوني أحارب بجواره وفي صفِّه، كان قد ترجَّل عن جواده ويحارب مع رجاله، يقتل هذا الصليبي ويعين أحد جنوده الذي سقط أرضًا لينهض مرة أخرى ويكمل القتال، ويدافع عن هذا الجندي الذي كان على وشك الموت على يد جندي صليبي، بالفعل كأنه وُلِدَ من أجل هذا اليوم، الآن صرت أحارب بجواره، نظر لي في صمت وأكمل القتال، لم يتحدث ولم يتكلم كلمة واحدة، فقط فعل ذلك وانطلق في طريقه لحصد أرواح الأعداء، كانوا يتراجعون أمامنا وهم يرتعدون.

استمرت المعركة لعدة ساعات، معركة حامية الوطيس، معركة تاريخية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لم نكن نشعر بالتعب قدر شعورنا بالفخر والكرامة، كنت أنا والمصري والمكسيكي نحارب بجوار بعضنا البعض، يحمي كل منا الآخر وكأنه أخوه الذي ولدته أمه، وكأننا نحارب سويًّا منذ بدء الخليقة، حتى قبل أن نرى بعضنا البعض، حاول الصليبيون في محاولة يائسة أن يقيموا حائطًا من الدروع أمامنا حتى يعيدوا توحيد صفوفهم، بدأ الفرسان في الاصطفاف في المقدمة واضعين دروعهم بيننا وبينهم، ولكن المصري التقط جعبة سهام وقوس كانا على مقربة منه وبدأ في إطلاق السهام نحو رؤوس الفرسان في المقدمة، وبدون تفكير بدأت أنا أيضًا في فعل نفس الشيء، انطلقت سهامنا العربية لتحصد رؤوس الفرسان في دقة لا أعلم كيف اكتسبناها، وبالفعل بدأ الفرسان الذين يحملون الدروع في السقوط أرضًا مما فتح ثغرة في ذلك الجدار المعدني ليأمر بعدها المصري الجنود بالاندفاع إلى تلك الثغرة لإكمال مهمتهم في تطهير أرض حطين من أعدائنا، انطلق جنود العرب وتمكنوا من الدخول عبر تلك الثغرة للقوات الصليبية التي ظنت أنها يمكنها الاختباء من مصيرهم خلف تلك الدروع، بدأت أعداد الصليبيين في التناقص بشدة بمرور الوقت، كان يبدو جليًّا أننا على وشك النصر، وما أكَّد ذلك لنا هو صيحة الأمير الفاضل ابن صلاح الدين حين قال:

- الله أكبر، لقد انهزم العدو، لقد انهزم العدو.

ولكن وجدنا أبيه وقائدنا صلاح الدين يُسْكِته ويقول:

- لا، لن أعلن النصر قبل أن أتأكد من حرق آخر خيمة من خيام الفرنج، استمروا يا أسود العرب، لن نهدأ حتى ندخل معسكرهم وخيمة ملكهم.

كان يخشى من انصراف الجنود لجمع الغنائم كما حدث في غزوة أحد، انصاع العرب لأوامر قائدهم، وأكملوا القتال مع العدو حتى رأينا أمامنا معسكرهم، لم يكن هناك من شخص في المعسكر إلا نفر قليل من الجنود الذين فرُّوا من المعركة ورجعوا إلى المعسكر ظنًّا منهم بأنهم هنا سيصبحون في أمان عن ساحة المعركة، ولكنهم كانوا واهمين، دخلت قواتنا العربية لمعسكر الفرنجة، وبدأنا في تفتيش كل خيمة للتأكد من عدم وجود أي جنود بها، وبينما نحن نفعل ذلك وجدت المصري يأمر جنوده بإحراق جميع الخيام دون استثناء، كنت متعجبًا من قراره هذا ولكن سرعان ما فهمت ما يرمي إليه حين قال لجنوده:

- يجب علينا فعل ذلك حتى تنهار بقية القوات التي تحاربنا، حين يرون أن معسكرهم قد تم الاستيلاء عليه وأُضْرِمَت النيران فيه عندها سيتأكدون أنهم قد هُزِمُوا ويلقون أسلحتهم ونحافظ على أرواح إخوتنا، أو على الأقل ستنهار روحهم المعنوية وذلك يسهِّل علينا هزيمتهم.

كان رأيًا صائبًا؛ لذا لم نتوانَ عن تنفيذه في الحال، بدأنا بالفعل في إضرام النيران في معسكر الفرنجة بالكامل، ما هي إلا دقائق وتحوَّل معسكرهم إلى كتلة من النيران المستعرة وكأنه قطعة صغيرة من جهنم، ارتفعت الأدخنة السوداء في سماء حطين لتغمر السماء معلنةً الفوز وليس احتراق الخيام فقط، كانت المعركة في نهايتها الآن، آلاف القتلى الصليبيين ترتمي جثثهم على الأرض تحت حوافر جيادنا، كانت توجد بعض القوات الصليبية التي ما زالت تقاتل؛ لذا بعد إحراقنا للمعسكر الصليبي ركضنا نحو خيولنا وركبناها لننطلق بسرعة لمساعدة إخوتنا في أرض المعركة، كان الدخان الأسود يغلف المكان ليحيطنا من كل مكان ونحن ننطلق على الجياد، ولكن خيولنا العربية كانت تعلم مسارها ومصيرها، كانت تركض بكل ما أوتيت من قوة على الرغم من الدخان الأسود الذي يخنقها، كانت تركض باتجاه أرض المعركة، صوت صهيل حناجرها يتحد مع صوت تكبيرات حناجرنا في ملحمة عربية من أجل الحق، انطلقنا على الجياد في طريقنا لأرض المعركة بينما تكبيراتنا تخرج لا إراديًّا من أفواهنا بدون توقف، ولكن بمجرد أن خرجنا من الدخان الأسود الذي كان يحيطنا؛ وجدنا أن القوات الصليبية المقاتلة تنظر لنا برعب لا يوصَف قبل أن يُلْقُوا أسلحتهم تباعًا أرضًا ويُعْلِنوا استسلامهم سريعًا، تلك القوات كانت تقاتل منذ ثوانٍ معدودة، وبمجرد رؤيتنا نقترب منهم استسلموا، لم أفهم سبب ذلك حينها ولكنها لم تكن لحظة للتعجب، كانت تلك آخر القوات الصليبية التي لا زالت تقاتلنا، وها هي قد استسلمت؛ لذا فقد كانت تلك لحظة فرحة وانتصار.

انطلقت تهليلات وتكبيرات جنود العرب مع سقوط آخر سيف صليبي على أرض حطين، ظل العرب يحتضنون بعضهم البعض وهم يهللون ويسجدون لله شكرًا على نصره، كنت أنظر للجميع وعلى وجهي ابتسامة نسيت أنها يمكن أن ترتسم على وجهي بسبب شيء ما، وجدت تلك اليد تَرْبِتُ على كتفي في رفق من خلفي، اسْتَدَرْتُ لأجده أمامي وهو يبتسم تلك الابتسامة الهادئة المليئة بالفخر والعزة والارتياح، كان هو ذلك المصري، وجدت نفسي أحتضنه بقوة بينما دموعي تنهمر في صمت، وحدنا نحن الاثنان من بين المحاربين الستة نعلم ونشعر بما حققناه اليوم، وحدنا نحن الاثنان بصفتنا عربًا ومسلمين نعلم ما هي القدس في قلوبنا وقرآننا، وحدنا نعلم ما هو المسجد الأقصى الكريم؛ لذا لم نكن بحاجة لكلمات تصف ما بداخلنا لأنه أقوى وأعمق وأكبر من أن ترويه كلمات مهما كانت قوتها أو حكمتها، فجأة انقضَّ علينا المكسيكي بمرح وهو يقول للمصري:

- لقد انتصرنا مرة أخرى يا صديقي، عبرنا المعركة الثانية، لن يستطيع الموت التغلب علينا بسهولة.

ابتسمت لما يقوله الرجل ولكن المصري لم يبتسم بدوره، كان يوجد ما يسترعي انتباهه ويجعله غير مهتم بحديث المكسيكي، كان ينظر نحو أحد العرب المصابين على أرض المعركة، كانت إصابته في صدره بالغة، أنا لست طبيبًا ولكن بخبرتي العسكرية قدَّرت أنه لن تُكْتَبَ له النجاة، كان الرجل يحتضر مع ذلك السيف الذي اخترق جانبه، جثا كامل على ركبتيه بجوار الرجل المصاب وأسند رأسه على ذراعه، اقتربنا أنا والمكسيكي منهما وجثونا بدورنا على الأرض، كان الرجل العربي يبكي بحرقة بينما كامل يربِتُ على صدره ويقول له بتأثر:

- لِمَ تبكي الآن؟ لقد انتصرنا في المعركة، ألا يسعدك ذلك؟

رد عليه الرجل من بين دموعه:

- بلى، ولكنني وعدتُّ ولدي صلاح الدين بأنني سأرجع له ومعي حفنة من رمال القدس، كان يريد مرافقتي للمعركة ولكنه ما زال صغيرًا لم يتعدَّ الثالثة عشر، لقد سمَّيته بهذا الاسم تيمنًا بالقائد صلاح الدين، بالكاد استطعت إثناءه عن القدوم معي ولكن مع وعد بإحضار حفنة من رمال القدس له، قل له أن يغفر لي حنثي بوعدي.

بدأت دموع كامل في الانهمار بصمت، لم يستطع التحدث أو مواساة الرجل الذي أكمل حديثه قائلًا:

- كنت أريد أن أرى وجهه وأنا أخبره بأنني حاربت وانتصرت على الصليبيين اليوم، أراه وهو فخور بوالده الذي رجع منتصرًا، كنت أريد أن أصلي معه في المسجد الأقصى وأنا أخبره أن والده شارك في تحريره، كنت أتمنى معانقته وزوجتي لمرة أخيرة، ولكنني ها أنا هنا أموت بعيدًا عنهم، وحيدًا دون عائلتي.

كان يبكي رغم ألمه وعلمه بأنه مقبل على الموت، كان يريد عائلته ليس أكثر، تذكرت عائلتي الصغيرة التي تركتها من أجل أن أكون هنا، شعرت برغبة جامحة في احتضانهم الآن في هذه اللحظة، أخرجني صوت كامل من تفكيري وهو يقول للرجل المصاب:

- صدِّقني أنت لست وحدك، كلنا حولك ومعك، سوف نخبر عائلتك، سوف نخبر ولدك صلاح الدين بأن والده بطل تركه من أجل تحرير بيت الله، لا تقلق يا صديقي.

ثم فجأة تهلَّلت أسارير الرجل، من وسط بكائه ودموعه وجدناه يبتسم ابتسامة صادقة لم أر مثلها من قبل، وجدته ينظر نحو كامل بينما الابتسامة لا تفارق وجهه ويقول له:

- إنني أراه الآن، أرى المسجد الأقصى، لم أكن أعلم أنه بهذا الجمال والروعة، يا الله، أنا قادم لأصلي بمسجدك يا الله.

لم يفهم المكسيكي ماذا يقول الرجل؛ لذا فقد سأله بصوت خافت:

- ماذا تعني أنك تراه؟ القدس تبعد عنا مئات الكيلومترات، كيف تراه؟

بدأت أنفاس الرجل في الخفوت وهو يغمض عينيه ويقول:

- لم أقصد المسجد الأقصى في القدس.

ثم خفت صوته وهو يكمل:

- قصدت المسجد الأقصى في الجنة، أنا ذاهب إليه الآن لأصلي خلف الرسول الكريم، حيَّ ... حيَّ على الصلاة.

كانت تلك آخر كلمات الرجل قبل أن تفيض روحه إلى بارئها، أطرقنا برؤوسنا في الأرض بينما كامل يغلق عينَي الرجل وهو يتلو الشهادتين بعيون تملؤها الدموع، ثم قال وهو ينظر للرجل:

- لقد أدركتَ الجنة أيها الشهيد، لقد أدركتَ الجنة.

طوال سنوات عملي العسكري لم أشعر من قبل بما يعتمل في صدري في هذه اللحظة، أن يموت المرء ليس من أجل تنفيذ أوامر صدرت له من قائده، ولكن من أجل الحق والواجب والدين، كنا نسمع من خلفنا هتافات الجنود وتكبيراتهم، بينما ذلك الرجل العربي الذي لا نعلم حتى اسمه مسجًّى أمامنا وعلى وجهه ابتسامة لم أرها من قبل، ابتسامة شهيد أرضى الله عز وجل فأرضاه الله، خلفنا فرحة من عاش وأمامنا الحزن على من رحل عنا، على الرغم من صعوبة الموقف فإننا نهضنا لنكمل ما بدأناه، انتهت المعركة ولكن كان أمامنا الكثير لإنجازه خلال بقية اليوم، بدأنا في تجميع الأسرى الذين كانوا تقريبًا نصف الجيش الصليبي، أعطيناهم الماء والطعام وعاملناهم معاملة حسنة، أرى أنهم لا يستحقونها ولكنها كانت تعليمات القائد صلاح الدين بحسن التعامل مع أسرانا، وبينما كنت منهمكًا مع باقي الجنود في الاعتناء بالأسرى وعلاج مَنْ كان مصابًا منهم وجدت كامل يقوم بسحبي من يدي وهو يقول:

- لا بد أن تحضر تلك اللحظة التاريخية، نحن فقط من نعلم معناها يا صديقي.

لم أفهم ماذا يقصد كامل ولكنني لم أعارضه وسِرْتُ معه حتى وصلنا إلى خيمة القائد صلاح الدين، دخلت الخيمة خلف كامل لأفهم ماذا كان يقصد بكلماته لأكتشف أن المكسيكي ينتظرنا بالداخل هو الآخر، حينها فهمت قصد كامل حينما قال اللحظة التاريخية، كان جالسًا أمام السلطان صلاح الدين بعض من ملوك وأمراء وقادة الجيش الصليبي الذين تم أسْرُهُم اليوم في المعركة وعلى رأسهم الملك جي دي لويزنيان ملك القدس والأمير رينالد أمير شاتيليون والملقب بالجزَّار، كان رينالد يهجم على القوافل العربية وينهبها ويغتصب نساءها ويقتل رجالها، ثم يسرق كل ما تصل إليه يداه من أموال ليست ملكه، كان يستمتع بقتل النساء خاصة وبقر بطون الحوامل، ليس هذا فحسب ولكن هذا القاتل كان ينوي التوجه إلى المدينة المنورة ثم إلى مكة لنبش قبر الرسول الكريم وقتل الحجاج أثناء موسم الحج، لولا أن أمر صلاح الدين أخاه العادل بتعقب أسطول الصليبيين وتدميره قبل تحقيقهم لهدفهم القذر، كل العرب تمنَّوا لو استطاعوا قتل ذلك الحيوان الذي روَّع الآمنين وأراد الإساءة لقبر رسولنا، وكان أحد أسباب إسراع السلطان صلاح الدين بشنّ تلك الحملة للدفاع عن العرب، كان قادة أوروبا ينظرون لبعضهم بعضًا في قلق وتوتر منتظرين مصيرهم الذي سيرسمه لهم القدر على يد قائدنا صلاح الدين الذي كان منشغلًا لبعض الوقت مع بعض قادة جيشه، بعدما فرغ السلطان من الحديث مع رجاله استدار نحو ملوك وأمراء أوروبا الذين لم ينطقوا بحرف أمام صلاح الدين، كانوا يعلمون جيدًا ما فعلوه مع العرب من قبل ويعلمون ما قد يفعله بهم صلاح الدين ردًّا على ما اقترفوه يومًا في حق كل عربي في مصر والشام، ولكن صلاح الدين أمر بالماء لكل الأمراء ما عدا رينالد الجزَّار، بدا الارتياح الشديد على وجوههم جميعًا ما عدا رينالد بالطبع، كانوا يعلمون أن إعطاء العربي الماء للأسير يعني إعطاءه الأمان وحقن دمائه، بدأت كؤوس الماء تمر على الأمراء والملوك ليتجرعوها بنهم بعد طول انتظار، ولكن الملك لويزنيان استبقى بعض الماء في كأسه وناوله لرينالد الذي اختطف الكأس من يد لويزنيان ليشربه في لحظات، حينها قام السلطان صلاح الدين غاضبًا وقال موجهًا حديثه للويزنيان في حِدَّة:

- أنا لم آمر بالماء لهذا القاتل الذي روَّع العرب وقتل رجالهم ونساءهم وأطفالهم أيها الملك، أنت أعطيته الماء رغمًا عني.

شعر لويزنيان بحرج موقفه وخطورته، كان صلاح الدين يستطيع قتل لويزنيان بسهولة في هذه اللحظة، وكان الأخير يعلم ذلك جيدًا؛ لذا فقد صمت لبعض الوقت محاولًا انتقاء كلماته بحكمة قبل أن يقول:

- لم أكن أعلم أيها السلطان العادل أن فعلتي تلك قد تغضبك، أرجو معذرتك.

حينها وقف رينالد وقال بعصبية:

- علامَ تعتذر أيها الملك؟ أنا أمير ويجب أن أُعامَلَ معاملة الأمراء والملوك، لن أسمح بإهانتي حتى لو كنت أسيرًا لدى العرب.

بمجرد أن سمع صلاح الدين تلك الكلمات تخرج من رينالد استلَّ سيفه وهو يقول:

- أنت لست سوى قاتل وسفاح أيها الوغد، وهذه هي الطريقة التي يُعامل بها من هم على شاكلتك.

وفجأة انقضَّ سيف صلاح الدين على يد رينالد ليقطعها ويفصلها عن جسده، بينما كان رينالد يتلوَّى من الألم والدماء تخرج بغزارة من يده المقطوعة، لم ننتظر كثيرًا قبل أن نستلَّ سيوفنا ونتجه نحو رينالد ونغمد سيوفنا في جسده القذر، نظر صلاح الدين نحو لويزنيان الذي كانت شفتاه تتحركان وكأنه موشك على قول شيء ما ولكنه لا يستطيع قوله، كان يرتعد من الرعب وهو يرى الأرض ترتوي بدماء رينالد، ولكن صلاح الدين رَبَتَ على كتفه وهو يقول له:

- قل لي أيها الملك، أنتم جئتم تحت اسم المسيح لتقوموا بكل ما حاول المسيح جاهدًا أن يمحوه من داخلكم، حاول منع القتل والظلم والطغيان وأنتم أتيتم من أجل تلك الأمور فقط، والآن قل لي: هل تعتقد أن المسيح الذي جئتم لحمايته يرضى عن ذلك؟ هل تظنه أراد حدوث ما يحدث على نفس الأرض التي عاش عليها يومًا؟ عندما دخلتم القدس قتلتم كل مسلم بداخلها، الرجال والنساء والأطفال والعجائز، هل تظنه فخورًا بما تفعلون؟ لا تظنني نسيت ما فعله آباؤك منذ مئة عام لدى دخولهم القدس، لا تظنني نسيت من مات حتى لو كان قد مات منذ قرن من الزمان، ولكن لا تجزع أيها الملك، ليست من شِيم الملوك قتل الملوك، سترجع أنت وبقية قادتك ولكنني كسلطان للعرب لا أستطيع التسامح مع من نهبوا القوافل المسالمة وقتلوا أبناء وطني؛ لذا فأنا آمر بقتل مئتين من فرسان المعبد والإسبتارية والذين ساعدوا رينالد في هجماته القذرة والدنيئة ضد القوافل العربية، لقد قال الله تعالي: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وأنا أقتصُّ الآن ممن قتل العرب مع ذلك السفَّاح، أما بقية قادتك وأنت بالطبع فسيتم تحريركم مع وعد ألا تعودوا لأرضنا العربية مرة أخرى، لقد رأيتَ أيها الملك ما نقدر على فعله عندما نتحد؛ لذا أرجو ألا أراك مرة أخرى؛ لأنه في المرة القادمة لن أكون متسامحًا أو متساهلًا معكم.

كان المساء قد أتى على حطين ليسدل بستائره الداكنة على أرضها الطيبة، كنت جالسًا أمام خيمتنا ومعي كامل ومانويل المكسيكي، كنا ثلاثة نتطلع إلى النيران التي أشعلناها أمام الخيمة لتنير المكان، الجنود ما زالوا مشغولين في جمع أجساد شهدائنا من أرض المعركة لكي يتم دفنهم بطريقة لائقة يستحقونها، بينما النسور الجائعة التي جاءت من كل حَدَبٍ وصوب تحلِّق بكثافة لنيْل نصيبها من الوليمة الصليبية على أرض المعركة، المئات وربما الآلاف من النسور جاءت من أجل الجثث المتراكمة في أرض المعركة، كنت أنصت لصفير النسور من حولنا عندما وجدت كامل يقول بينما هو ينظر إلى النسور:

- ذات يوم جاء الصليبيون إلينا ليجعلونا ضحاياهم، والآن هم ضحايا طيورنا الجارحة، هل تعتقد أن من مات منهم اليوم كان يعتقد أنه سيحظى بهذه النهاية: أن يصبح مجرد وجبة لنسر أو ضبع جائع؟ هل ما جاء من أجله يستحق أن تكون هذه نهايته؟

نظرت نحوه متطلعًا إليه، كان يتكلم وهو ينظر صوب السماء محدقًا في الفراغ، سألته:

- كامل، لماذا اشتركت في البرنامج؟ لماذا حقًّا أنت هنا؟ في المعركة السابقة شاهدتك تنقذ حياة مانويل رغم أنك لم تكن تعرفه حينها، واليوم فعلت نفس الشيء مع الجنود في أرض المعركة، ثم ظللت بجانب رجل يحتضر وأنت تعلم أنك لن تستطيع مساعدته، لِمَ تفعل ذلك؟ لِمَ أنت هنا؟

نظر نحوي وعلى وجهه ابتسامة حزينة وقال:

- في البداية اعتقدت أنني جئت من أجل ما جئتم أنتم أيضًا من أجله، المال، ولكن عندما بدأت أول معركة لنا اتضح لي أن ذلك ليس السبب الوحيد، اكتشفت أنني جئت لهدف آخر، جئت من أجل أن أكون إنسانًا، لقد ساعدت مانويل لأشعر بأنني أستحق الحياة، عندما نرجع لحياتنا ويأتي يوم أشعر فيه بأنني لا شيء أو أكون حزينًا، سأتذكر ما فعلته مع مانويل ومع الجنود اليوم، وعندما ظللت بجوار رجل يحتضر حتى لا يشعر بأنه وحده في لحظة نهايته، أعلم أنني حينها سأشعر بأنني مخطئ إذا اعتقدت أن حياتي لم تكن مهمة؛ لأن حياتي كانت ذات قيمة عند الآخرين، ربما تعتقد أن كلامي سخيف؛ لأننا لا نحارب في الحقيقة بل فقط في عقولنا، ولكن هذه الحروب التي نخوضها داخل عقولنا جعلتني أفكر بطريقة مختلفة لم أفكر بها من قبل، ربما تكون ثريًّا أو صاحب سلطة أو نفوذ، ولكن إن لم تكن إنسانًا فلا شيء يستطيع جلب السعادة والرضا إلى قلبك، ستموت وأنت تعلم أنك لم تغيّر أي شيء من حولك للأفضل، ستموت وأنت تعلم أنه لن يفتقدك أحد ولن يتذكرك أحد، ما يهم في الحياة يا سليم أن تكون حياتك علامة فارقة في حياة الآخرين، وكذلك موتك، هذا هو جوهر الحياة يا صديقي، هذا ما تعلمته هنا.

ساد الصمت لبعض الوقت بينما نحن جالسون كنت أفكر في كلمات كامل وأتذكر لِمَ أنا هنا، من أجل أن تكون حياتي ذات جدوى لهم، وكذلك موتي.

- أنا مصاب بالسرطان.

لا أدري لماذا قلت ذلك ولكنني شعرت بالرغبة في ذلك، نظر لي كامل ومانويل في لحظة واحدة ولم يتحدثا، أكملت حديثي قائلًا:

- لقد سألتك يا كامل لِمَ أنت هنا، وها أنا أقول لك عن سبب وجودي معكم اليوم؛ لأنني لن أعيش سوى لبضعة شهور أخرى وأردت أن تكون حياتي ذات قيمة، لقد جئت من أجل عائلتي التي لا أدري كيف سأتركها وأرحل، لقد علمت بمرضي بعد فوات الأوان، بعد أن تمكن السرطان من جسدي وأصبحت محاربتُهُ عبثًا، حينها ثُرْتُ وصرخت كطفل صغير ولكن بعد فترة من الضياع تعلمت تقبُّل مرضي، ولكن ما لم أتقبَّله هو تركي لعائلتي الصغيرة دون أن أكون مطمئنًّا لوجود ما يحميهم من صفعات الزمن، كنت أموت كل يوم ألف مرة وأنا أنظر لابنتي الصغيرة ولزوجتي وأنا أعلم أنني سأتركهم للأبد دون أن أكون قادرًا على حمايتهم بعد موتي؛ لذا عندما رأيت ذلك الإعلان شعرت كأن الله يعطيني فرصة لكي أفعل شيئًا يجعلني مطمئنًّا عليهم عندما يحين موعدي، لقد أتيت بالفعل من أجل المال، ولكن ليس من أجلي، بل من أجل مَنْ أحِب.

أغمضت عيناي بعدما انتهيت من حديثي وأنا أتذكر وجه ابنتي الحبيبة لأجد من يجلس بجانبي ويضمني بيده إليه، كان مانويل ينظر لي بعينين طفوليتين ملأى بالدموع المحبوسة، كان مانويل الذي قال:

- لست وحدك من أتيت من أجل مَنْ تحب، ابني أليخاندرو أو كما نطلق عليه أليهو هو أيضًا مصاب بالسرطان، سرطان الدم، لقد أتيت من أجل تأمين المال اللازم لعمليته الجراحية حتى يُشْفَى ويرجع للعب مع أقرانه كما كان معتادًا على فعله من قبل، لستَ وحدك يا صديقي من أتيت من أجل مَنْ تحب، صدقني أنا أعلم بالضبط ما تشعر به، لقد كنتُ ضابطًا في الجيش ولكن نفقات علاج أليهو جعلتني أخون القَسَم الذي أقسمت به لحماية بلادي، ساعدت مهربي المخدرات على العبور بسمومهم عبر الحدود من أجل ألا أرى ولدي يموت أمام ناظريَّ دون أن أفعل شيء لإنقاذه، كنت أحتقر نفسي وأنا أمسك أموالهم الملوثة بدماء ودموع من وقع في براثنهم، ولكنني كنت أقول لنفسي: إن إحساسي بالعار والاحتقار أفضل من إحساسي بالعجز أمام ولدي الوحيد، وعندما تم اكتشاف مساعدتي لهم تم طردي من الجيش، واضطررت للعمل لدى بارونات المخدرات لأتمكن من مواصلة علاج أليهو، ومثلك شعرت بأن الله يعطيني فرصة للتكفير عن كل ما فعلته من قبل عندما رأيت إعلان البرنامج، شعرت كأن هناك فرصة لكي أرجع مانويل الذي كنت أعرفه وأحترمه من قبل، أنا وأنت متشابهان يا صديقي الجديد، لقد جئنا من أجل أفضل ما فينا، جئنا من أجل أبنائنا؛ لأنهم يستحقون الأفضل منا.

ابتسمت لمانويل وقمت باحتضانه بينما الدموع تملأ عيناي أنا أيضًا، اقترب كامل منا وقال لنا:

- أنا سعيد بوجودي معكما، أنا محظوظ بمعرفتكما أيها الرفاق.

مسحت دموعي قبل أن تسقط وأنا أرد عليه قائلًا:

- بل نحن المحظوظون بك يا صديقي؛ لأن بيننا إنسانًا بحق، إنسانًا يستحق أن يكون قائدًا.

ابتسم كامل ولم يعلق، ولكن تلك الابتسامة ونظرات عينيه قالت الكثير مما لا يمكن أن تصفه الكلمات، نهضنا من أماكننا واتجهنا نحو الخيمة، ولكنني وقفت لبعض الوقت قبل أن أدخل وأنا أنظر نحو الأفق متخيلًا المسجد الأقصى، رجع كامل إليَّ يسألني: لماذا توقفت؟ أجبته قائلًا:

- كنت أتمنى الصلاة في المسجد الأقصى يا كامل، على الأقل هنا إن لم يكن في زماننا.

رَبَتَ على كتفي قائلًا:

- يومًا ما سنفعل ذلك يا سليم، صدقني، يومًا ما سنصلي بالمسجد الأقصى، أنا وأنت، وفي زماننا وواقعنا ليس في عقولنا فحسب، ثق من ذلك، لقد اغتصبه الصليبيون مئة عام من قبل ولكنه رجع إلينا عندما اتحدنا، أنت رأيت بنفسك اليوم كم من رجل جاء من مصر والشام والجزيرة العربية حتى يرجع الأقصى لنا، وكما فعلناها اليوم وانتصرنا عليهم سنفعلها في زماننا وننتصر مرة أخرى، سنكون أنا وأنت في المسجد الأقصى يومًا نصلِّي سويًّا، عندما يتحد العرب يمكنهم صنع أي شيء وتحقيق كل شيء، وسنفعل ذلك ذات اليوم، سنفعله.

...

سترجع إليها يا صديقي

مرة أخرى رجعنا إلى وعينا وزماننا، زماننا الموجود به أهم ما في حياتي، عائلتي الصغيرة، مرة أخرى أرى العلماء والأطباء المُرْتَدِينَ للمعاطف البيضاء وأرى الوجه البشوش القلِق للطبيب جايمس بارسون، نظرت بجواري لأجد كامل يستيقظ بدوره بينما الممرضات يَقِسْنَ نبضه واستجاباته الحيوية للاطمئنان عليه، وكذلك فعلت بعض الممرضات الأخريات معي ومع باقي المحاربين، نظرت نحو كامل وأنا أبتسم لعلمي أنني اكتسبت أخًا جديدًا أعلم أنه سيحميني ويدافع عني وقت حاجتي إليه، حينها وبينما نحن ما زلنا راقدين على الأسرَّة البيضاء أقسمت في داخلي أنني سأفعل نفس الشيء معه، سأحميه وأدافع عنه عندما يحتاجني بجواره، انتهينا من الفحوصات وبدأنا في التوجه نحو غرفتنا للراحة، كنت أكثر الراغبين في الدخول للغرفة، هناك كانت صورة زوجتي وابنتي، كنت بحاجة ماسَّة إلى رؤيتهم وتقبيلهم، في المرة السابقة مشيت وحيدًا ولكنني الآن أسير بصحبة كامل ومانويل، صديقان تعرَّفت عليهما في الوقت الذي كنت بحاجة ماسَّة للشعور بأن هناك أحدًا يهتم بأمري ويكترث بي، سِرْنا ثلاثتنا نحو غرفتنا ونحن نبتسم على تعليقات مانويل المرحة، تشعر وكأنه طفل صغير ضلَّ طريقه وسط الكبار، قلب طفل وجسد رجل، منذ فترة طويلة لم أشعر بدفء الصداقة الصافية والقلوب الطيبة التي لم تغيرها تقلبات الزمن أو قسوة قلوب الآخرين.

كنا الآن في قاعة الطعام، كنت مع كامل ومانويل نجلس ونتحدث ونضحك ونأكل كأننا نعرف بعضنا البعض منذ سنوات لا أيام، لبعض الوقت نسيت المرض، نسيت الموت الذي ينظر في ساعته يَعُدُّ الدقائق قبل أن يصل إليَّ ليحصدني كما حصد كثيرين من قبلي، لبعض الوقت نسيت كل ذلك وأنا جالس مع هذين الصديقين، أكلنا وشاهدنا التلفاز سويًّا، كانت المرة الأولى التي نشاهد البرنامج الذي نحن أبطاله، كنا نرى مشاهد من يوم معركة ثرموبيلي، كان العالم يشاهد تلك المعركة بأعيننا وبعقولنا، تمنيت أن تكون زوجتي تراني الآن وأنا أحارب من أجلها ومن أجل ابنتنا الصغيرة، ذلك الملاك الجميل الذي لا أعلم ما هو الشيء الرائع الذي فعلته في حياتي حتي يرزقني الله بتلك الفاتنة الصغيرة، أخرجت صورتها من جيبي ونظرت للتلفاز ثم للصورة وهمست لنفسي:

- انظري يا حبيبتي، انظري لوالدك كيف يقاتل من أجلكِ أنتِ، كيف يقاتل من أجل أن تعيشي، انظري لتفتخري به، لتفتخري بمن لا يملك أغلى منكِ في حياتِهِ يا صغيرتي.

أغمضت عينيَّ وأنا أتخيلها أمامي وهي تلعب وتمرح في حديقة العدالة بمدينتنا كونيا، تخيلتها وأنا أؤرجحها عاليًا كما تحب، تخيلت ضحكتها العالية التي تنطلق لتملأ العالم جمالًا وبراءة، حينها جاءني صوت كامل المختنق بالدموع وهو يقول:

- سترجع لها يا عزيزي، وتحتضنها كما لم تفعل من قبل، سأحرص على ذلك.

انطلق صوت مانويل المرح قائلًا:

- إنه يقصد سنحرص على ذلك، لا تَنْسَنِي يا صديقي المصري.

ابتسمنا أنا وكامل الذي ردَّ بطريقة مسرحية قائلًا:

- سامحني على تلك الهفوة غير المقصودة يا صديقي المكسيكي، سنحرص على ذلك، هل استرحت الآن؟

نظر الأخير نحو السقف بينما عيناه تضيقان وكأنه يفكر ثم صاح:

- حسنًا، لقد سامحتك أيها المصري، والآن هل نعود لمشاهدة البرنامج من فضلكم، دع العالم يرى بطولاتي، وأنتم أيضًا ربما تتعلمون مني كيفية القتال أيها التلاميذ.

رغمًا عني انطلقت ضحكاتي، لا أعلم كيف كنت سأكمل أيامي هنا دون كامل ومانويل، بالفعل تابعنا التلفاز لبعض الوقت، قبل أن يتم طلبنا للاجتماع مع ميجور لوكوود ودكتور بارسون، ذهبنا كالعادة إلى غرفة الاجتماعات الكبيرة لرؤيتهما، كان البادئ بالتحدث هو الميجور الذي قال لنا بينما هو يطالع بعض الأوراق أمامه:

- للمرة الثانية تثيرون إعجابي، بعضكم على الأقل، لقد نجحتم في مهمتكم ورجعتم جميعكم سالمين إلينا لتكملوا ما بدأتموه سويًّا، العالم كله الآن يتطلع إلى شاشات التلفاز في كل مكان ليعرف كل جديد عنكم وعن معارككم التي تخوضونها، لقد أصبحتم أبطالًا في أوطانكم بين ليلة وضحاها، بل أبطالًا في العالم بأسْرِه.

ثم نظر إلينا وأكمل:

- ولكن لا تغترُّوا كثيرًا بأنفسكم؛ لسببين: الأول أنكم ما زلتم في البداية، ما زال أمامكم الكثير لتحققوه قبل أن تخرجوا من هنا، والسبب الثاني وهو الأهم أنكم لم تختبروا الأسوأ بعدُ، المعارك ستختلف من الآن فصاعدًا، ستكون أعنف وأكثر دموية وخطورة، في معركتكم الأولى حرصنا على إرسالكم في اليوم الأول للمعركة، صحيح أنكم كنتم ضمن ثلاث مائة ضد عشرات ومئات الآلاف من الفُرْس ولكننا أرسلناكم لليوم الأول، لم يمت في هذا اليوم إلا ثلاثة فقط مما يعني أن فرص موتكم في المعركة لم تتعدَّ الواحد بالمئة، ثم قمنا بزيادة الصعوبة بعض الشيء عندما أرسلناكم إلى معركة حطين، كان التحدي أكبر؛ لأنه تُوُفِّي في ذلك اليوم أكثر من ثلاثة آلاف عربي، ولكن العرب كانوا سينتصرون في تلك المعركة باكتساح وهذا ما حدث بالفعل، كانت المعركة أصعب وفرص موت أحدكم كانت أعلى من العشرة بالمائة ولكنها انتهت لصالحكم ورجعتم جميعًا سالمين إلينا، ولكن المعارك الأربع المتبقية لن تكون بتلك السهولة، ما سبق كان نزهة بالمقارنة لما هو قادم، لقد أثبتُّم أنكم محاربون أشدَّاء في المعارك السابقة، ستحتاجون تلك الشدة والصلابة للمعارك القادمة؛ لأنها ستكون صعبة عليكم جميعًا.

لم يستطع هاريسون الأسترالي السكوت أكثر من ذلك؛ لذا فقد نهض من مقعده غاضبًا وصاح:

- ما هذا الهراء؟ لا يكفيكم ما نمرُّ به كل معركة والآن تقولون: إنكم ستزيدونها صعوبة! كأنكم تريدون مقتلنا أولًا حتى تحصلوا على نسب مشاهدة عالية لبرنامجكم اللعين.

أجابه الميجور بهدوء:

- قلتها لك من قبل سيد هاريسون لا يرغمك أحد على استكمال المعارك أو المشاركة في البرنامج اللعين كما تصفه، يمكنك الانسحاب في أي وقت.

ضرب هاريسون المائدة بيده قائلًا بغضب:

- أعلم أنك تريد مني فعل ذلك منذ البداية أيها العجوز، أعلم أنك تظن أنني لا أستحق مكاني هنا، ولكن دعني أقولها لك ولكم جميعًا، أنا أجدر الموجودين بلقب محارب الزمن.

ابتسم الميجور في برود وهو يقول:

- حسنًا، سنرى في الأيام القادمة أيها الجندي الصلب.

هنا تدخَّل دكتور جيمس في الحوار لتغيير دفة الحديث في محاولة منه لتقليل التوتر المتصاعد في الغرفة، وقال:

- لقد تحدثنا - الميجور وأنا - مع الإدارة العليا في الطلب الذي اقترحه زميلكم كامل بخصوص إعلامكم بماهية المعركة الجديدة قبلها بوقت كافٍ ليتسنى لكم دراستها والاستعداد لها، في البداية رفضوا ذلك الأمر تمامًا ولكننا في النهاية استطعنا إقناعهم بذلك خاصة مع ازدياد صعوبة المعارك القادمة.

ثم نهض من مقعده وبدأ في توزيع ملفات كانت بحوزته علينا تباعًا وهو يقول:

- ما ترونه أمامكم هو ملف يخص كل ما ذكره التاريخ عن المعركة القادمة، ستكون معركة بورودينو التي حدثت في عام ٢١٨١ بين جيش نابليون بونابرت والجيش الروسي بقيادة القيصر الروسي ألكسندر الأول، ستكونون في صفوف الفرنسيين، اشترك منهم بالمعركة مئة وثلاثون ألف جندي وخسروا فيها أكثر من ثلاثين ألفًا بين قتيل وجريح وأسير، أعلم أنها معركة صعبة وخطيرة ولكنني أثق بقدراتكم أيها الأبطال، أعلم أنكم سترجعون سالمين هذه المرة أيضًا، أنا متأكد من ذلك، والآن أمامكم بضع ساعات لتتمكنوا من دراسة المعركة قبل أن تخلدوا للنوم استعدادًا لأن تكونوا طرفًا منها بدلًا من قراءتها فقط، يمكنكم الانصراف الآن.

انتظر الطبيب حتى خروج آخر المحاربين قبل أن يسأل الميجور:

- هل تعتقد بالفعل أنهم قادرون؟

أشعل الميجور سيجاره قبل أن ينفث دخانه في الهواء ويقول:

- نعم، أنا أثق بهم.

▪ ▪ ▪

المعركة الثالثة بعقل ليوناردو

الآن يبدأ القتال

فتحت عيناي للمرة الأولى في هذه المعركة، لم يكن عقلي قد اعتاد بعدُ ذلك الدوار العنيف الذي يجتاحني كلما دخلت ميدان معركة، نظرت نحو الأفق لأجد السماء وهي تتلوَّن باللون الأزرق الداكن إيذانًا بظهور شمس يوم جديد، بالنسبة لي كانت الشمس تعلن عن معركة جديدة يجب عليَّ خوضها من أجل إثبات أنني الأفضل، على الأقل إثبات أنني أفضل مما توقعه والدي مني طوال حياتي، كنت أعلم أن الكثيرين هنا ربما يتفوقون عليَّ في القتال، ولكنني لم آتِ مثلهم من أجل المال أو حب المغامرة، لقد أتيت فقط من أجل إرغام أبي على احترامي، أبي الذي أكرهه لدرجة الحب، كم كنت أتمنى أن يكون والدًا صالحًا لي ولكنه منذ تطلقت والدتي منه وهو لا يراني إلا صورة مصغرة من السيدة التي رفضت سيطرته عليها، دائمًا ما يذكِّرني بأنني نتاج زواج فاشل لأم فاشلة، لا أعلم إن كان الجنرال - كما يجبرني دومًا على مناداته - يحبني أم لا، لماذا يعجز عن رؤيتي كابن له بدلًا من رؤيتي كعدو له يذكِّره بفشله في حياته الزوجية؟ حتى عندما قام بنقلي من مدينتي الأصلية روزاريو للعاصمة بيونس آيرس، لم يفعل ذلك حبًّا في ابنه الوحيد ولكن نكاية في أمي التي فضَّلتني عليه، التي تطلقت منه لتحميني من جبروته وسيطرته المطلقة على كل شيء في حياتينا.

طرحت أفكاري جانبًا للوقت الحالي، بينما كان بقية المحاربين يستيقظون من نومهم ليبدأ يوم جديد في الجحيم، بدأ جميع الجنود في معسكرنا الفرنسي في الاستيقاظ من النوم على صوت الأبواق المدوية التي انطلقت إيذانًا بيوم المعركة، كنا الآن بالقرب من مدينة صغيرة تُدْعَى بورودينو، مدينة تبعد عن موسكو بحوالي مئة كيلومتر، بورودينو هي المنطقة التي اختارها نابوليون لكي يلقِّن فيها الروس درسًا لن ينسوه، أو هكذا ظن الإمبراطور الفرنسي، الإمبراطور الذي جيَّش الجيوش وجهَّز القوات ليس من أجل الدفاع عن أرضه، لقد انتهت تلك الحروب من فترة، حروب الشرف والواجب والتضحية انتهت إلى غير رجعة ليحلَّ محلها حروب الطمع والمصالح الاقتصادية والعسكرية، بدأ نابليون تلك الحرب لأنه طلب من القيصر الروسي حجز جميع السفن البريطانية والموجودة في الموانئ الروسية والتي ترفع أعلامًا محايدة، كان يريد أن يضغط على بريطانيا عدوه اللدود لقبول الصلح مع فرنسا، ولكن الدب الروسي رفض ذلك، بل إن الكسندر الأول قيصر روسيا أمر بتسهيل دخول السفن المحايدة إلى جميع الموانئ الروسية وقام بفرض رسوم جمركية باهظة على البضائع الفرنسية، الأمر الذي جعل الإمبراطور الفرنسي يستشيط غضبًا ليقوم بعدها بهوايته المفضلة؛ الحرب، لهذا السبب قام بتوجيه مئة وثلاثين ألفًا من قواته صوب الشرق باتجاه روسيا، مئة وثلاثين ألفًا من خيرة جنود فرنسا جاؤوا فقط من أجل إرضاء غرور قائدهم الإمبراطور، مئة وثلاثين ألفًا يواجهون البرد والجوع بعد أن قام الروس بقطع طرق إمداداتنا بالغذاء والدواء، ولم يكتفوا بذلك فحسب بل كانوا يحرقون المحاصيل والقرى التي ينسحبون منها أمامنا حتى لا نحصل على مصادر للغذاء، كان الجنود يدخلون مدينة روسية بعد انتصارهم ليجدوها ركامًا وحطامًا بعد أن أحرقها الروس؛ لذا لم يكن غريبًا بالنسبة لي أن يكون إفطاري لهذا اليوم قطعة من الخبز والجبن لا أكثر، وبينما نحن نتناول تلك اللقيمات التي نطلق عليها إفطارًا؛ بدأ المصري في التحدث قائلًا:

- أظن أن الجميع يعلم ما سنواجهه اليوم، هذه المرة قرأنا عن تلك المعركة التي نحن مقبلين عليها.

أجاب الأسترالي بغطرسته التي لا تفارقه:

- هذا صحيح؛ لذا أرى أنه لا داعٍ لحديثك هذا، نحن نعلم ما سيحدث، كل ما علينا فعله هو البقاء أحياءً، نجحت تلك الحيلة من قبلُ وستنجح اليوم أيضًا.

نظر له المصري قبل أن يقول له بصوت منخفض:

- حسنًا، كنت سأقول: إننا لا بد من أن نحارب في تلك المعركة كوحدة واحدة، عدد القتلى اليوم يفوق المعارك السابقة التي خضناها، لن يملك أحدنا فرصة كبيرة للنجاة إنْ حاول أن يجتاز اليوم منفردًا.

ثم ابتسم ابتسامة ساخرة قبل أن يضيف وهو يتطلع للأسترالي:

- ولكنك مُرَحَّب بك دائمًا أن تحارب وحيدًا، إنها جنازتك كما تقولون في بلدك.

كان الأسترالي الغاضب على وشك الرد قبل أن يسبقه التركي قائلًا:

- ما يقوله كامل صحيح، في المعارك السابقة كنا نتواجه مع جنود جُل سلاحهم هو السيوف والرماح والسهام، الأمر الآن اختلف تمامًا، الآن نواجه بنادق ومدافع، الروس يملكون أكثر من ست مائة مدفع ستكون كلها موجَّهة نحونا، من الآن فصاعدًا يجب أن نظل سويًّا ونحارب سويًّا، سواء شئنا أم أبينا هذا هو أفضل الحلول.

نظر هاريسون نحو المحاربين وعلى وجهه علامات الضيق والغضب، ولكن في قرارة نفسه كان يعلم أن التركي وكذلك المصري على حق، كانت فرص نجاته من تلك المعركة ستتضاءل بشدة إن أصرَّ على أن يحارب وحيدًا؛ لذا فضَّل التزام الصمت وأطبق شفتيه هذه المرة وهو يضغط على أسنانه بشدة.

حينها تحدث توماس الهولندي وعلى وجهه ابتسامة صغيرة قائلًا:

- حسنًا، أظن أننا اتفقنا على ما قاله المصري، سنحارب سويًّا من الآن فصاعدًا أيها المصري.

رد عليه مانويل وهو يقف في مواجهته:

- اسمه كامل أيها الهولندي.

لم يشأ توماس افتعال مشاكل مع مانويل لا سيما وهم يستعدون لدخول المعركة، كان يعلم أنه وحيد أمام الثلاثي المصري والمكسيكي والتركي، لم يكن بحاجة لاكتساب عداوة أحدهم خاصة في هذا التوقيت؛ لذا فقد لوَّح بيديه في رفق وهو يقول لمانويل:

- حسنًا يا صديقي، سنحارب سويًّا من الآن فصاعدًا، يا كامل، هل يرضيك ذلك؟

لم يعلق مانويل، ولكنه مدَّ يده ليساعد توماس على الوقوف لكي نبدأ معركتنا الجديدة، بدأنا في الاستعداد للمعركة والتأكد من حصولنا على الذخيرة الكافية لنا خلال المعركة وبدأنا في الانتظام في صفوف لا نهاية لها أمام الإمبراطور الذي كان واقفًا أمامنا

ببزته العسكرية على حصانه، نظر نحونا نابليون قبل أن يقول بصوت عالي:

- أيها الجنود، هذه هي المعركة التي تطلعتم إليها منذ وقت طويل، فلتجعلوا مواطنينا في فرنسا يقولون بفخر على كل فرد منكم وهم يشيرون إليكم، لقد كان في تلك المعركة العظيمة يحارب تحت جدران موسكو.

انطلقت صيحات الجنود الذين كانوا يتطلعون لتلك المعركة بالفعل، ليس من أجل تحقيق مكاسب أو غنائم ولكن فقط لأنهم إذا انتصروا بها فسوف يرجعون لبيوتهم وعائلاتهم، كانت الساعة تقترب من السادسة صباحًا حينما بدأت المعركة، في البدء كانت معركة المدافع فقط، خمس مائة مدفع فرنسي في مواجهة ست مائة مدفع روسي، صفوف خلف صفوف من الجنود الفرنسيين بأزيائنا العسكرية ذات اللونين: الأحمر والأزرق وبنادقنا الماسكيت الطويلة وسيوفنا اللامعة الموضوعة في أغمادها في انتظار دورها لتبدأ القتال، الجميع مصطفٌّ خلف المدافع المنتشرة في ميدان المعركة في انتظار إشارة البدء من الإمبراطور نابوليون بونابرت، كان الهواء البارد يرتطم بوجوهنا بينما حبات الندى تستقر برفق على الحشائش تحت أرجلنا ورائحة أوراق الأشجار المبللة بالندى تغمر أنوفنا لتذكرنا ببلداتنا في فرنسا، كان صباحًا رائعًا لم يعكِّره سوانا بمدافعنا وبنادقنا وأحذيتنا الغليظة، رفع الإمبراطور سيفه في الهواء وهو ينظر نحو قوات المدفعية الذين يحملون الشعلات لإطلاق المدافع، شعرت وكأن العالم توقف عند هذه اللحظة، أحسست لوهلة أن الصمت خيَّم على المكان للحظة، لم أعد أسمع صوت الطيور على الأشجار أو صوت مياه النهر أو أي شيء، وكأن الطبيعة نفسها حبست أنفاسها في انتظار لحظة نزول سيف نابوليون لتبدأ المعركة، وبالفعل بعد لحظات مرَّت كالدهر شقَّ سيف نابليون الهواء ليهبط إيذانًا ببدء المدفعية لعملها، وبدأ دويُّ المدافع الفرنسية في السيطرة على المكان، مدفع تلو الآخر يتم إطلاقه ليخلِّف وراءه سحابة صغيرة من الدخان الأبيض، بدأت المعركة بمائة مدفع فرنسي انطلقت جميعها نحو الروس، لبعض الوقت لم نكن نستطيع الرؤية بسبب الدخان الأبيض الذي غلَّف المكان، لم يمر الكثير من الوقت حتى بدأت القوات الروسية والتي تحصنت في التلال العالية المحيطة ببلدة بورودينو في رد الهجوم علينا، انهالت علينا القذائف الروسية المتوالية ردًّا على نيراننا، بدأت القذائف في حصد أرواح الجنود من الجانبين ولكن دقة القذائف كانت في صالحنا، استطاعت المدفعية الفرنسية في إصابة العديد من أهدافها بفعالية كبيرة، بينما لم تُحْدِث القذائف الروسية الكثير من الضرر، ولكن رغم ذلك تعالَت آهات الجنود المصابين من جانبنا، استمرت معركة المدفعية نحو ساعة من الزمن حتى غطَّى الدخان الأبيض ساحة المعركة بكاملها، لم يكن باستطاعتنا رؤية أي شيء، ولكن في هذا التوقيت صدرت لنا الأوامر بالتحرك، أمر نابليون بتحريك وحدتين عسكريتين نحو منطقة يُطْلَق عليها سهام شيفاردينو، هي تلَّة عالية على شكل سهم صنعها الروس ليستطيعوا عن طريقها إلحاق أكبر قدر من الخسائر بالقوات الفرنسية التي ستحاول دخول ساحة المعركة، كان احتلال تلك المنطقة في غاية الأهمية لنابليون، وكنا نحن الستة من ضمن الوحدتين اللتين تحركتا نحو شيفاردينو، بدأت نيران الروس في الانطلاق صوبنا، كان الدخان الذي يملأ المكان ميزة لصالحنا عندما بدأوا بإطلاق نيران بنادقهم؛ لأنهم كان يطلقون نيرانهم عشوائيًّا لأنهم لا يروننا بدقة بعدُ، ولكن تلك الميزة كانت ستنتهي بمجرد اقترابنا منهم للدرجة التي ستجعلهم يروننا وحينها سيعلمون أين بالضبط يجب عليهم إطلاق نيرانهم، كانت البنادق حينها من النوع الذي يجب تلقيمه بعد كل طلقة، تقوم بإخراج كيس من البارود من حزامك وتضع البعض منه في غرفة الإطلاق، ثم تضع بقية البارود في فوهة البندقية الأمامية مع الكرة المعدنية الصغيرة وهي الطلقة، ثم تقوم بدفع البارود والكرة حتى النهاية عن طريق أنبوب معدني صغير مُلْحق بالبندقية، لفعل كل ذلك تحتاج - إذا كنت جنديًّا مدربًا - لحوالي عشرين أو ثلاثين ثانية، ثوانٍ لا نملكها إذا أردنا الرجوع سالمين من تلك المعركة، وكأن كامل المصري سمع ما يدور بأذهاننا حيث وجدناه يصيح بصوت عالٍ حتى نسمعه وسط ضجيج المعركة:

- لن نستطيع الصمود في مواجهات مباشرة بتلك البنادق العتيقة؛ لذا سوف نكوِّن صفًّا واحدًا نحن الستة، المحارب في المقدمة سوف يطلق طلقته ثم يرجع لنهاية الصف ويبدأ في تلقيم طلقته الجديدة، والتالي سوف يطلق طلقته ويرجع لآخر الصف ليبدأ هو الآخر في تلقيم بندقيته، بهذه الطريقة سوف تتوالى نيراننا دون توقف، وفي نفس الوقت المحارب الموجود بالأمام سيحمي بجسده الآخرين من خلفه، فليلقم كل منكم بندقيته.

كانت فكرته بسيطة ولكنها عبقرية، وبالفعل بدأنا في المضي قدمًا مكونين صفًّا واحدًا يتقدمنا المصري الذي بدأ بنفسه في التواجد في بداية الصف لحمايتنا أثناء قيامنا بتلقيم بنادقنا بالبارود والطلقات، كانت النيران تتوالى علينا عشوائيًّا ولكننا كنا خلف المصري، كانت قامته منتصبة بينما الطلقات تنطلق تجاهنا في الوقت الذي كنا فيه نخفض رؤوسنا حتى لا تصيبنا، كنت أقوم بتلقيم بندقيتي وأنا أنظر له وكأنه لا يهاب الموت، لا أعلم هل هو شجاع أم أحمق أم يريد الظهور كالبطل أم هو بالفعل قائد يحمي رجاله حتى لو كلَّفه ذلك حياته، وبينما كنا ننتهي من تلقيم البنادق صاح المصري وهو ينظر إلينا:

- عندما ينتهي مَنْ بالخلف من تلقيم بندقيته فليلمس كتف المحارب الموجود أمامه حتى يعلم مَنْ بالأمام أن التالي جاهز لإطلاق طلقته، لن نطلق نيراننا الآن، بل عندما نرى بوضوح الجنود الروس، لا مجال للخطأ أيها المحاربون، المحارب بالأمام إن لم يُصِبْ هدفه فهو يجعل نفسه هدفًا سهلًا لنيران عدوه؛ لذا لا تخطئوا.

انتهيت من تلقيم الطلقة الأولى وقبضت بشدة على بندقيتي في انتظار بدء هجومنا، ظللنا في التحرك ببطء حتى بدأت ملامح الجنود الروس في الظهور، الآن نراهم وكذلك هم يروننا، هنا صاح المصري:

- الآن.

وانطلقت طلقته الأولى لتصيب أول جندي روسي قبل أن ينجح الأخير في إطلاق رصاصته أولًا، وبمجرد أن أطلق كامل طلقته تراجع سريعًا إلى نهاية الصف وهو يُخْرِج كيس البارود ويبدأ في تلقيم الطلقة التالية، كان التالي في الصف المقاتل التركي والذي بمجرد أن تراجع المصري وأصبح هو في المقدمة أطلق هو الآخر رصاصته بسرعة لتصيب جنديًّا روسيًّا آخر في مقتل، وهكذا دون تدريب مسبق بدأنا في تنفيذ خطة المصري العبقرية، بدأ الروس في الاحتماء من طلقاتنا نحن الست والتي توالت عليهم بسرعة ودقة عالية، كان المحارب الموجود بالأمام يعلم أن طلقته لا بد أن تصيب هدفها حتى لا يصبح هو نفسه هدفًا، اتضح أن تلك الخطة كانت ناجحة، كانت أصوات انفجارات المدافع تدوِّي من خلفنا بينما نحن نتقدم للأمام نحو تلَّة شيفاردينو لإحكام السيطرة عليها وطلقات الروس تنطلق حولنا في عشوائية في محاولة لإصابتنا ولكن لم يحدث ذلك لحسن حظنا، كانوا يطلقون علينا نيرانهم بينما هم منبطحون أرضًا خوفًا من طلقاتنا التي تصيب هدفها بدقة متناهية، ظللنا على هذا الوضع حتى اقتربنا كثيرًا من موقع تمركز الجنود الروس، حينها استللنا سيوفنا ونحن نصعد تلك التلَّة الصغيرة، وقبل أن يحاول الروس الدفاع عن أنفسهم كانت سيوفنا تحصد أرواحهم وتخترق أجسادهم في سرعة وقوة، كنا للمرة الأولى منذ بدء معاركنا نتحرك ونقاتل كوحدة واحدة لا تتجزأ، كان باديًا للجميع مهارتنا وسرعتنا في القتال، حتى بقية الجنود الفرنسيين كانوا ينظرون لنا بإعجاب وتقدير رغم الحرب التي تدور حولنا، بعض الجنود بدأوا في سؤال المصري عما يريدهم أن يفعلوه خلال المعركة، فجأة أصبح كامل ليس قائدًا على مجموعتنا فقط بل قائدًا على عدد كبير من الجنود الفرنسيين الذين وجدوا فيه القائد دون أن يطلب ذلك منهم، بدأنا في دحر القوات الروسية

التي بدأت بالانسحاب من المنطقة بسبب كثافة نيراننا ودقتها، أما المصري فقد وجد نفسه يلقي الأوامر لباقي الجنود الفرنسيين ليس من أجل حبه للسلطة ولكن أظن من أجل حمايتهم، قام بتقسيم جنود فرقتنا لقسمين: قسم يتولَّى تلقيم البنادق وإطلاقها على الجنود الروس الذين يهرعون لمكاننا وكذلك لتشكيل غطاء حماية للجنود الذين يحاربون بالسيوف من طلقات الروس، وقسم آخر يتولى القتال بالسيوف مع الجنود الروس القريبين منا، ولكن بعد مرور بعض الوقت بَدَا أن أسلوبنا في القتال قد بدأ يرتد أثره علينا، الروس بدأوا في حشد قواهم في مواجهتنا بالتحديد، كان تأثيرنا سلبيًّا على الجنود الروس؛ لذا لم يتردد الجنرال باجراشيون بنفسه في الدفع بالمزيد من القوات نحو وحدتنا العسكرية، لم يكن ليسمح بأن تظهر قواته بمظهر سيئ، كان يُدْعَى وسط جنوده بلقب النسر؛ لأنه كان عدائيًّا وعنيفًا؛ لذا لم يكن غريبًا أن نجد أنفسنا تحت وطأة هجوم قوي وشرس من القوات الروسية التي استماتت في استعادة منطقة شيفاردينو من أيدينا بغضِّ النظر عن الخسائر البشرية التي قد يتعرضون لها، اضطررنا للتراجع أمام هجمات الجانب الروسي العنيفة على فرقتنا العسكرية، ولكن لم يكن ذلك لوقت طويل، نابليون كان يعلم أنه لا بد له من السيطرة على تلك المنطقة التي ستعوق تقدم قواته إذا ظلت في أيدي الروس؛ لذا فقد قام هو الآخر بالدفع بالمزيد من القوات لمؤازرة فرقتنا العسكرية، وبمجرد أن بدأت القوات الجديدة في مساندتنا اندفعنا مرة أخرى لمحاولة السيطرة على شيفاردينو، كانت أصوات المعركة تدخل أذني مكوِّنة خليطًا غريبًا، أصوات المدافع والبنادق وصيحات الجنود بالفرنسية والروسية وآهات المصابين وحشرجة المقبلين على الموت وصوت أحذيتنا وهي تخطو على الأعشاب والحشائش تحت أقدامنا، كان الوضع جنونيًّا ومأساويًّا، كنت أرى الموت والفوضى والألم وعبثية الحرب ولا أتوقف، ربما لأنني لو توقفت فسوف يعني ذلك موتي، وربما لأنني أردت إثبات أنني أفضل مما يتوقعه أبي مني، جزء بداخلي كان يريد أن يثبت له أنه كان على خطأ عندما ظن أنني لا أصلح بشخصيتي الحالية للعمل بالعسكرية مثلما فعل هو من قبلي، كنت أتقدم وأقتل وأهاجم بكل ما أوتيت من قوة حتى يعلم أنني أفضل مما يظنني، تلطخت ملابسي بالكامل بالدماء، ظللنا لعدة ساعات على حالنا هذه حتى بدأ النصر يقف معنا وفي صفنا، كانت خسائر الجانب الروسي كبيرة مما اضطرهم في النهاية للانسحاب وترك منطقة شيفاردينو لنا؛ مما أضعف قواتهم الموجودة في اليسار، تقلصت أعداد الجيش الثاني الروسي بعد ضرباتنا الموجعة له بالمدفعية وبالهجوم البري بالمشاة، كان الوقت يقترب من الظهيرة عندما أحكمنا سيطرتنا على شيفاردينو والتي بدأت مدافعنا في التمركز عليها لتكثيف الضرب على الجانب الروسي ولحمايتنا عند توغلنا أكثر في قلب المعركة، كان التعب قد بلغ أشُدَّه وضربنا بسياطه الغليظة ليتركنا خائري القوى تمامًا؛ لذا فقد أصدر نابوليون أوامره للمدفعية بمعاودة الإطلاق على المواقع الروسية مما منحنا بعض الوقت لالتقاط أنفاسنا قبل معاودة القتال، ارتمينا نحن الستة على الأرض للاحتماء من طلقات بنادق الروس ونيران مدافعهم، أغمضت عيناي وأنا أقبض بشدة على بندقيتي علَّها تُشْعِرني ببعض الأمان، الآن فقط أعلم ما هي الحرب، أرجعت ظهري للوراء أكثر لأجد جسدًا خلفي، نظرت نحوه لأجدها جثة محترقة لأحد الجنود، لا أعلم إن كان فرنسيًّا أم روسيًّا ولكن ما أعلمه أن عائلته لن تراه، والده الذي رآه يكبر أمامه يومًا بعد يوم لن يراه، والدته التي بكت عندما حملته لأول مرة بين ذراعيها لن تراه، ابنه الذي كان يحتمي بوالده عندما يشعر بالخطر لن يراه مرة أخرى، لن يجد من يحتمي به بعد اليوم، بعد أن سقط الحائط القوي الذي كان يختبئ خلفه ليحميه من شرور الدنيا، سيتحول ذلك الجندي المسكين لذكرى تُحكى حول نار المدفأة في ليلة شتاء طويلة، تُرَى هل كان يتوقع تلك النهاية قبل مجيئه هنا؟ تُرى فيما كان يفكر في لحظاته الأخيرة؟ لا أعلم، ولكنني شعرت بالشفقة عليه، شعرت وكأنني سأتمدد بجانبه بعد لحظات ميتًا مثله أتطلع نحو الأفق أنا الآخر، حينها فقط زال كل حقد بداخلي نحو والدي، شعرت حينها برغبة عارمة في ضمه إليَّ في صمت، وجدت يد المصري تستقر على كتفي في رفق وهو يسألني عما بي، كان ينظر ليدي المرتعشة وهي تقبض بكل شدة على البندقية بينما العرق يتساقط مني رغم برودة الجو، نظرت إلى وجهه الذي يحاول زرع ابتسامة عليه لطمأنتي بينما أنا أتنفس بسرعة وكأنني غير قادر على التقاط أنفاسي، وجدته يشجعني قائلًا:

- ليوناردو، لا تقلق، سوف نخرج من هنا معًا كما دخلنا معًا، سوف تصبح بخير، ساعات وينتهي كل ما تشعر به الآن، أنا بجانبك ولن أتركك.

حينها اقترب مني مانويل المكسيكي ليقول لي:

- إنه دائمًا ما يخطئ يا عزيزي، هو يقصد نحن بجانبك ولن نتركك سواء أنا أو كامل أو هذا التركي القبيح.

نظر سليم لمانويل في غضب مصطنع وهو يضع يده على سيفه ليتابع مانويل حديثه قائلًا:

- أقصد هذا البطل التركي الوسيم، ألا ترى أنه يصلح للعمل بالسينما يا رجل؟ كيف تطلق عليه كلمة قبيح؟ عار عليك يا رجل، حسنًا يا سليم، لقد أدرك خطأه ولن يكرره مرة أخرى.

انطلقت ضحكات الثلاثة رغم ما يحدث حولنا من حرب، كامل وسليم ومانويل، ومعهم انطلقت ضحكتي رغمًا عني، ضحكة خرجت رغم عيناي الدامعتين ورغم دويّ المدافع الذي يغطي كل أصواتنا، ولكنها خرجت وأنا أنظر لهؤلاء الثلاثة الذين شعروا بي رغم عدم تفوهي بكلمة واحدة، ثلاثة أصدقاء اكتسبتهم في لحظة واحدة وبكلمات قليلة ولكنها تعني الكثير بالنسبة لي في هذا الوقت تحديدًا، أكمل مانويل حديثه قائلًا:

- لماذا تقبض على البندقية بتلك القوة يا رجل؟ لا تقلق، معنا بنادق أخرى مثلها، لن يحاول أحد أخذها منك.

اكتشفت حينها أنني ما زلت أمسك البندقية بقوة بالفعل، عاودت الابتسام وأنا أُرْخِي قبضتي عنها، بينما يد كامل على كتفي وهو يقول لي:

- أظن أنك أفضل الآن، أليس كذلك يا ليوناردو؟

أومأت برأسي إيجابًا وأنا أقول له في أول مرة نتحدث فيها:

- يمكنك أن تناديني ليو، أصدقائي ينادونني ليو، وأنتم منهم الآن.

صدرت لنا الأوامر بمعاودة الهجوم مرة أخرى لتغطية القوات التي أرسلها نابوليون للاستيلاء على بلدة أوتيتسا القريبة لمحاولة تطويق الجيش الروسي، حينها نهضنا وأكملنا القتال، لكن كان هناك شيء تغيَّر بداخلي، لم أعد ذلك الخائف الوحيد؛ لأن معي الآن أصدقاء وإخوة أعلم أنهم يستحقون مني حمايتهم والدفاع عنهم كما أعلم أنهم سيفعلون المثل معي، انطلقنا نركض نحو القوات الروسية القريبة منا، كنا نحارب معًا كأننا فعلنا ذلك مئات المرات من قبل، لا أدري كم مرة أنقذت فيها حياة أحدهم أو أنقذ أحدهم حياتي، كنا متقاربين ونحارب سويًّا وندافع عن بعضنا البعض، بدأت كفَّة الميزان ترجح للجانب الفرنسي بمرور الوقت، استطاعت قوات نابليون الاستيلاء على بلدات أوتيتسا وبورودينو ومنطقة رايفسكي، كان في طريقه للنصر ولكن إرهاق جنوده

الذين حاربوا لمدة ثماني ساعات متواصلة أجبره على التوقف والاكتفاء بمكاسبه لهذا اليوم، كان الجيش الروسي قد تكبَّد العديد من الخسائر، في يوم واحد فَقَدَ الروس أكثر من خمسة وأربعين ألف قتيل من بينهم الأمير إيفانوفيتش باجراشيون قائد الجيش الثاني، أما الجانب الفرنسي فقد خسر أكثر من ثلاثين ألف قتيل، كانت الخسائر فادحة؛ لذا فقد توقف القتال بين الجانبين في محاولة منهما لِلَمْلَمَة جراحهما وتجميع قواتهما المتبقية، لم يكن يعلم نابليون حينها ما نعلمه نحن المحاربون، أن قائد الجانب الروسي الجنرال كوتوزوف سيستغل الليل وينسحب إلى موسكو في محاولة جديدة منه لإنهاك جيش نابليون بعدما فشل في القضاء عليه في تلك المعركة التي مات فيها خمسة وسبعون ألف جندي في ثماني ساعات من القتال المتواصل، بانتهاء المعركة وتوقُّف القتال تطلَّعنا نحو ساحة المعركة، اليوم ستتغير حياة خمسة وسبعين ألف عائلة إلى الأبد، وإلى الأسوأ.

ميدان المعركة ممتلئ بالقتلى بينما مَنْ ظل حيًّا يتطلع في ذهول لما يراه، لا يدري هل يفرح لكونه ظل على قيد الحياة أم يحزن لما يمكن لجنون بعض البشر أن يصنعه ببقية البشر، كانت الحرائق التي نشبت في الأشجار المحيطة بالميدان تُسقِط ضوءها الأصفر الناري على الجثث المتكومة بالآلاف في المكان، بينما المصابون يرفعون أيديهم ويصرخون بأصوات واهنة حتى نعلم أنهم لم يموتوا، بدأنا في مساعدة المصابين لنقلهم إلى المعسكر لتلقِّي العلاج، كان بعضهم يتكئ علينا وبعضهم الآخر كنا نحملهم حتى المعسكر، أحد الجنود المصابين الذين قمت بنقلهم إلى المعسكر كان يتكئ عليَّ ويمشي ببطء شديد، كان قد فقد إحدى قدميه في المعركة، وجدته يقول لي في تأثر ممزوج بالألم:

- أتعلم؟ والدي كان جنديًّا هو الآخر من قبل، كان يتحدث عن الحرب وما رآه فيها طيلة اليوم، كنا نملُّ من كثرة ترديده لنفس الأحداث، كان يتحدث عن فقدانه لأصدقائه في الحرب، أحيانًا كان يبكي في الليل ونسمعه ينادي على مَنْ مات منهم في ساحة القتال، كنا نظنه قد جُنَّ تمامًا، ولكنني الآن أفهم ماذا حلَّ به، أفهم سبب بكائه في الليل وحديثه المستمر عن أهوال الحرب، الآن أفهم كل شيء، فقط أريد أن أذهب إليه وأجلس معه وأستمع لما يقوله، أريد أن أذهب إليه لأكون معه حين يبكي لنبكي سويًّا، وأقول له حينها: إنني أفهم ما يشعر به، بسبب تلك الحروب اللعينة التي تسلبنا أعز ما نملك؛ إنسانيتنا.

كنت أشعر وكأن ذلك الجندي يوجِّه حديثه لي شخصيًّا، كانت كل كلمة تخرج منه تقتحم قلبي لتجعلني أعيد التفكير في كل ما مرَّ من حياتي قبل ذلك، سنوات مرت عليَّ وأنا أضع الوقود على نار حقدي على والدي ليبقى الحقد مشتعلًا بسبب معاملته لي وقسوته عليَّ، كل ذلك زال الآن ولم يتبقَّ إلا رغبتي في أن أكون معه وأرتمي داخل حضنه الدافئ لأقول له: إنني الآن أفهم، أفهم أنه كان يخشى عليَّ من تلك اللحظة التي أعيشها الآن؛ لحظة الحرب والخسارة وفقدان أعز ما نملك من أجل لا شيء، ظللت على صمتي وأنا أساعد ذلك المسكين حتى وصلنا إلى خيمة الجرحى، أتى نحونا أحد الأطباء الذي امتلأ معطفه بالدماء، نظر نحو الجندي ولم يتحدث، فقط أدار عينيه في المكان حتى وجد فراشًا فارغًا، كان الفراش متسخًا وتملؤه الدماء ولكن الطبيب لم يُبْدِ اكتراثًا بذلك، فقط قال لي:

- يمكنك أن تضعه هناك على هذا الفراش، مَنْ كان عليه قد مات ولم يعد بحاجة إليه، فقط ضعه مكانه.

ربتُّ على يد الجندي برفق قبل أن أنصرف من المكان، لم يكن بوسعي البقاء في المكان والاستماع لأنين الجرحى وحشرجة المحتضرين، انطلقت في طريقي على غير هدى، كنت في حاجة لاستنشاق بعض الهواء النقي ولكنني لم أجده للأسف، كان الهواء معبقًا برائحة البارود والأشجار المحترقة والموت، سِرْت لفترة من الوقت قبل أن أرجع مرة أخرى للمحاربين، كان الثلاثي الذين تعرفت عليهم يستدفئون أمام كومة من الأخشاب المشتعلة ويتحدثون فيما بينهم، بينما الهولندي والأسترالي قد استغرقوا في نوم عميق، اتجهت نحو الثلاثة وجلست معهم.

ساد الصمت لبعض الوقت بيننا، لقد تغيرنا جميعًا خلال تلك المعارك الثلاث وما زال أمامنا الكثير والذي سيغيِّر فينا أشياء أخرى كثيرة، قطع تفكيري صوت تثاؤب مانويل قبل أن يغمغم:

- لا أدري بشأنكم ولكنني سألحق بهذين الوغدين النائمين، أراكم في الجانب الآخر أيها الحمقى، لا أقصدك أنت بالطبع يا كامل، ولا أنت يا ليو.

ضحكنا على ما عناه مانويل ووجدنا سليم ينهض من مكانه وهو يقول لمانويل:

- هذا يكفي، سوف أحطم رأسك أيها المكسيكي سليط اللسان.

بدأ مانويل في الركض وخلفه سليم، بينما مانويل يصرخ ويقول لسليم:

- النجدة، لقد كنت أقصد فقط المزاح معك يا رجل، ساعدوني أيها الحمقى بدلًا من الضحك.

زادت ضحكاتنا أنا وكامل بينما سليم يركض خلف مانويل الذي أخذ يلوِّح بيده كأنه يغرق وهو يطلق صرخات طفولية أثارت ضحكات سليم الذي توقَّف عن الجري وهو ينظر لمانويل وجلس على الأرض مَقهقهًا بشدة، ظللنا نحن الأربعة نضحك بقوة لبعض الوقت قبل أن يحتضن سليم مانويل ويقبِّله على رأسه، ويضع كلٌّ منهما يده على كتف الآخر في حب واضح، قلت لكامل وهو جالس بجواري:

- أنا سعيد أنني معكم يا رفاق، لقد كنت أحتاجكم بحق.

رَبَتَ كامل على كتفي وقال مبتسمًا:

- ونحن سعداء أننا اكتسبنا صديقًا وأخًا جديدًا لنا يا ليو، الآن فلننل بعض الراحة قبل الرجوع مرة أخرى، تصبح على خير يا صديقي الجديد.

ابتسمت بدوري وأنا أقول له:

- أحلام سعيدة يا صديقي الجديد.

...

لقد اشتقت إليك

- أهلًا بكم مرة أخرى أيها المحاربون، أرى أنكم نجحتم في العودة جميعًا تلك المرة أيضًا.

سمعت تلك الكلمات بينما أنا أستيقظ بالتدريج في المعمل، كانت تلك الكلمات صادرة من دكتور جايمس بالطبع، بدأ مباشرةً في إجراء التحاليل المعتادة للاطمئنان على مؤشراتنا الحيوية، بعد الانتهاء من ذلك بدأنا النهوض من أسرَّتنا للتوجه لغرفتنا كالمعتاد، ولكن دكتور جايمس استوقفنا قائلًا:

- مهلًا يا شباب، اليوم هناك مفاجأة سارَّة لكم جميعًا، لقد استحققتموها عن جدارة بعد أدائكم الذي فاق كل توقعاتنا، حتى توقعاتي أنا شخصيًا؛ لذا فقد تحدثنا - الميجور وأنا - في إعطائكم دفعة معنوية لإكمال بقية المعارك بروح عالية، أعلم أنكم متعبون ولكن صدقوني المفاجأة تستحق تأجيل الراحة لبعض الوقت، من فضلكم توجَّهوا الآن نحو قاعة الطعام وسألحق بكم بعد قليل.

لم نكن نعلم عن أي مفاجأة يتحدث عنها الطبيب، ولكننا توجهنا على أي حال نحو القاعة تنفيذًا لأوامر الطبيب، كان يبدو الضيق على البعض والفضول على البعض الآخر، وصلنا للقاعة وجلست مع أصدقائي الجدد نتحدث عن ماهية تلك المفاجأة التي قاموا بتحضيرها لنا، بينما جلس كلٌّ من الهولندي والأسترالي وحدهما على مائدتين منفصلتين دون أن يتحدثا معنا أو مع بعضهما البعض، لم يمر الكثير من الوقت قبل أن نجد الطبيب والميجور يدخلان علينا القاعة وعلى وجهيهما ابتسامة عريضة لم نفهم سببها آنذاك، بدأ الميجور بالحديث قائلًا:

- أعلم أنكم يملؤكم الفضول حول سبب جمعكم هنا الآن بدلًا من حصولكم على قسط من الراحة أولًا كما هو المعتاد، ولكنني فكرت ومعي طبيبنا المحترم في ضرورة وجود مكافأة لكم على ما قمتم به حتى الآن، على الأقل بعضكم، لقد تغيرتم كثيرًا منذ حضوركم هنا للمرة الأولى، أعلم أنني لم أشاهد ما حدث في المعركة الثالثة بعدُ، ولكنني متأكد أنكم أحسنتم صنعًا وجعلتم أحباءكم فخورين بكم كما هو ظنهم وظني بكم؛ لذا فقد طلبنا طلبًا من إدارة الشركة، في البداية لم يكونوا موافقين تمامًا عليه حتى لا تخرجوا من تركيزكم في بقية المعارك، ولكن بعد إقناع دكتور جايمس لهم وافقوا بالإجماع على تلك المكافأة التي تستحقونها أيها الأبطال، سنترككم الآن مع مفاجأتكم، فلتدخلوا أيها السادة والسيدات.

تطلعت عيوننا جميعًا نحو الباب لنرى عمن يتحدث الميجور ولم يطل انتظارنا، كان أول من دخل القاعة هي والدتي، كم كانت سعادتي غامرة بتلك المفاجأة غير المتوقعة، ركضت نحوها لأجدها فاتحة ذراعيها كما كانت تفعل دائمًا معي عند رجوعي من المدرسة عندما كنت صبيًّا صغيرًا، احتضنتها بشدة بينما دموعي تترقرق من عيني على كتفها الدافئ العطِر، كم كنت أحتاج ذلك الحضن منذ فترة، في لحظة واحدة زالت همومي وأحزاني وآثار المعارك التي عَلِقَت برأسي وتفكيري خلال الأيام الماضية، أمسَكت رأسي بكلتا يديها وقبَّلت جبيني بحب وحنان جارف، توالى دخول باقي عائلات المحاربين: عائلة سليم ومانويل وكامل وشخص ما جاء لمقابلة توماس، بينما لم يأت أحد لمقابلة هاريسون الأسترالي، لم يكن ذلك غريبًا ألا يأتي أحد لمقابلة هذا الوغد، نظرت إلى والدتي من جديد لأجد الحب في عينيها، ولكن كان في عينيها شيء آخر، كأنها تريد أن تخبرني بشيء ما ولا تعرف كيفية فعل ذلك، سألتها وأنا أمسك يدها في رفق:

- أشعر كأنكِ تخفين شيئًا عني، هل كل شيء على ما يرام؟

نظرت لي لبضع ثواني قبل أن تقول لي في ارتباك:

- أعلم أن ما سأقوله قد يضايقك بعض الشيء ولكن والدك هنا، لقد جاء معي لرؤيتك، من فضلك يا ليو لا تتشاحن معه، إنه ثائر للغاية بعدما أخفيتَ عنه نبأ مشاركتك في البرنامج.

لم تكد تنهي والدتي كلماتها حتى رأيت والدي على الباب، كان واقفًا ببذلته العسكرية يتحدث مع الميجور عندما وقعت عيناي عليه، دخل القاعة واتجه نحوي بغضب وهو يصيح:

- كيف تستطيع فعل ذلك أيها الوغد؟ هل تعصي أوامري لتشارك دون علمي في هذا البرنامج؟ صدقني سوف يكون عقابك مريعًا عندما ترجع إلى ...

لم أستطع جعله ينهي جملته، فوجئ بي والدي أندفع نحوه بقوة وأحتضنه، نعم، احتضنته كما لم أحتضنه من قبل، لا أعلم متى كانت آخر مرة اشتقت إليه بهذه الدرجة والقوة، احتضنته وأنا أبكي على كتفه المزدان بالرتب العسكرية والنجوم النحاسية البراقة، فجأة توقف والدي عن الحديث والصراخ في وجهي، أشعر وكأنه ذُهِلَ للوهلة الأولى مما فعلته، مرت سنوات طويلة منذ ارتميت في حضنه بهذه الصورة، سمعت همهمات غير مفهومة تخرج من فمه كأنه عاجز عن الكلام، ثم وجدت يديه القويتين تحيطان بظهري ببطء ولكن برفق بالغ كأنه يخشى أن يؤذيني، لم نكن نتحدث، لم نكن نتشاجر، فقط كنا نشعر، نشعر بمشاعر عارمة متدفقة كالحمم البركانية التي تخرج من بركان خمد لفترة طويلة، ربما أطول مما ينبغي، ظللت محتضنًا أبي لبضع دقائق قبل أن أفارق حضنه الدافئ وأنا أقول له:

- لقد اشتقت إليك كثيرًا يا أبي، اشتقت إليك منذ سنوات.

نظر لي بعينين مليئتين بالدموع التي أراها لأول مرة في عيني الجنرال الذي لم يذرف دمعة في حياته، وقال لي بحنان جارف:

- وأنا أيضًا يا صغيري اشتقت إليك، اشتقت إليك يا ليو، هل أنت بخير؟

احتضنته مرة أخرى وأنا أرد عليه قائلًا:

- فقط الآن أنا بخير يا أبي، فقط الآن.

ربتت والدتي على كتفينا وهي تهمس بتأثر:

- هؤلاء هم رجالي.

احتضنتها بيدٍ والأخرى احتضنت بها أبي لبعض الوقت قبل أن نجلس على إحدى الموائد في القاعة، جلست بجوار أبي الذي كنت أمسك يده وأتشبث بها كما كنت أفعل منذ سنوات طويلة عندما كنا نعبر الشارع وأنا طفل صغير، تحدثنا حينها لفترة طويلة، أبي

وأمي وأنا، تحدثنا كما لم نتحدث من قبل، للمرة الأولى نتحدث ونضحك ونطلق النكات كعائلة واحدة مترابطة، لم أشعر أنني أتحدث مع الجنرال دي سانتي الذي يرتجف منه أشجع الرجال في الجيش الأرجنتيني، ولكني شعرت أنني أتحدث مع والدي الذي غضب لا لأنني عصيت أوامره قدر غضبه مني خوفًا مما قد أواجهه في المعارك، كان يتحدث عني بإعجاب واضح، كان يتحدث عما قاله بقية زملائه بشأني، وكيف أنني بطل في نظر الأرجنتين والعالم الآن، والأهم كيف أنني الآن بطل في نظره هو شخصيًّا، لم يكن يظن والدي أنه سيبوح بكل ما يعتمل في صدره عندما أتى هنا، ولكن الآن تغيَّر كل شيء، تغير للأفضل لنا جميعًا، حتى والدتي التي كانت دومًا حانقة على والدي بسبب قسوته عليها وعليَّ طيلة السنوات الماضية، لم أعد أرى ذلك الحنق في عينيها، كنت أرى السعادة والحب تجاهه، حب نَسِيَتْه منذ سنوات، ولكن يبدو أنه يرجع إلى قلبها رويدًا رويدًا، قلت لهم: إنني أشعر بالظمأ وسأذهب لإحضار شيء لشربه، وسألتهم إن كانوا يريدون أي مشروب أحضره لهم، وبمجرد أن قلت ذلك وجدت والدي يقفز من مكانه قائلًا:

- لا، أنا من سأحضر للبطل ما يريده، لا تقم بمجهود طالما أنا هنا، سأرجع على الفور، أعلم أنك تحب عصير التفاح، سأحضره لك حالًا.

اتجه والدي في خطوات سريعة نحو الساقي الموجود بالقاعة، بينما كانت تتابعه نظرات والدتي وابتساماتها، غمغمت في شيء من الخجل:

- هذا هو الرجل الذي ذُبْتُ فيه عشقًا عندما طلبني للزواج، مر وقت طويل لم أره فيه بهذه السعادة والحنان.

ابتسمت ولم أعلق، كان والدي قد رجع بالفعل بسرعة كما قال، وضع أمامي العصير وهو يقول:

- عصير التفاح الذي تحبه، أعلم أنك تفضله مثلجًا يا صغيري.

ثم التفت إلى والدتي وقال لها وهو يضع أمامها كوب من القهوة:

- وأعلم أنكِ تحبين قهوتك بالحليب وعليها ملعقة واحدة من السكر.

تناوَلَتْ منه الكوب وهي تسأله في دلال:

- هل ما زلتَ تتذكر كيف أحب قهوتي حتى الآن؟

قال لها خَجِلًا وهو يجلس محاولًا تحاشي النظر إليها:

- أنا لم أنس قط ما تحبين.

كنت أشعر بالحب الذي تنزاح من فوقه الرمال التي غطته طوال فترة انفصالهما عن بعضهما البعض، على الرغم من طلاقهما منذ سنوات إلا أنه لا زال موجودًا رغم كل شيء، وبينما نتحدث وجدت كامل يقترب من طاولتنا بهدوء، ويقول في أدب جمٍّ:

- أعلم أنكم تريدون التحدث مع ليوناردو، ولكنني فقط أريد قول شيء لك أيها الجنرال ولكِ أيضًا سيدتي.

نظرنا نحو كامل الذي أكمل حديثه قائلًا:

- أريد فقط القول بأنني أتشرف بالقتال بجوار ليوناردو في كل معركة يا سيدي، لقد أحسنتَ تربية هذا البطل، لقد أنقذ حياتنا في المعركة السابقة عدة مرات، لا أظن أنني أبالغ بقولي: إن جميع المحاربين مَدِينين له.

نظر لي والدي بفخر كبير وقال بتأثر:

- هذا هو ولدي الذي أفخر به، هذا هو ليو، شجاعة كبيرة وقلب أكبر.

ابتسمت لكامل ابتسامة شكر على ما قاله لأبي، أعلم أنه يبالغ فيما قاله، ولكني كنت أعلم أنه يريد أن يجعل والدي فخورًا بي، لهذا كنت ممتنًّا لكامل، قائدي الجديد، كان على وشك المغادرة وتركنا ليستوقفه صوت والدي الذي قال له:

- لِمَ لا تنضمَّ إلينا أنت وعائلتك؟ أصدقاء ليو هم أصدقاؤنا نحن أيضًا، سوف نتشرف بجلوسكم معنا يا بنيَّ.

أومأ كامل برأسه يعني الموافقة، وأشار لعائلته بالقدوم والجلوس معنا، بينما قال لي والدي:

- اذهب لدعوة بقية أصدقائك للجلوس معنا، أريدهم أن يخبروني بكل شيء فعلته في المعارك السابقة أيها البطل، إنهم لا يعرضون اليوم بأكمله في التلفاز، يعرضون أجزاءً من المعارك فقط، ولكن هذا لا يكفيني، أريد أن أعرف كل شيء.

نهضت من مكاني واتجهت نحو مانويل وسليم واقترحت عليهم الجلوس معنا على طاولتنا ورحبوا بتلك الفكرة، قمنا بضم بعض الطاولات سويًّا لتصبح طاولة كبيرة تضم كل أصدقائي وعائلاتهم، كنا نضحك ونطلق النكات خاصة مانويل بالطبع، كانت المرة الأولى التي يتسنَّى لي فيها مقابلة أليهو ابن مانويل المريض بالسرطان، رغم مرضه رأيت فيه شجاعة ومرح اكتسبهما من والده، ورأيت الملاك الصغير كيرين ابنة سليم، كانت تجلس على ساقه طوال الوقت بينما يده تضم زوجته برفق إليه، نظرت للجميع بينما ابتسامة كبيرة تعلو وجهي، الجميع يمزح ويقضي وقتًا سعيدًا ربما لم يقضه منذ فترة بعيدة، أليهو وكيرين بدآ في اللعب سويًّا، بينما الكبار يتحدثون ويمرحون وكأننا عائلة واحدة كبيرة، وكأن كل واحد منا يعرف الآخر منذ نعومة أظفاره، بينما والدي يستمع لما يقوله بقية الرفاق عني من مواقف بطولية، لم يكن كل ما يقولونه حقيقيًّا، كانوا يريدون إبهار والدي ربما أكثر مما أريد أنا، ولكن رغم ذلك شعرت باحترام وتقدير هائل لما يفعلونه، كان والدي يستمع إليهم وهو يضع يده على كتفي وكل بضع دقائق يقول لهم هذا هو ولدي، كان يقولها بفخر واعتزاز كبيرَين، لفترة من الزمن نسينا جميعنا الحروب والمعارك والظلم والقتل، كنا عائلة واحدة كبيرة تقضي وقتًا طيبًا، وقتًا استحققناه عن جدارة مع من نحب.

...

المعركة الرابعة بعقل توماس

فتحت عيناي في بطء متثاقل لأنظر حولي، كنا الآن في مكان المعركة الرابعة، معركة جيتسبرج في الحرب الأهلية الأمريكية، بالضبط كان اليوم هو الثاني من يوليو عام ١٨٦٣، كان اليوم الثاني من المعركة التي استمرت ثلاثة أيام انتهت بانتصار صعب للقوات الاتحادية التي تمثل الشمال ضد القوات الكونفدرالية التي تمثل الولايات الجنوبية التي رفضت إلغاء العبودية والرق في مناطقها، وكيف توافق على إلغاء العبودية ومعظم الولايات الجنوبية واقتصادها قائم على عمل العبيد في مزارع الأغنياء، عمالة رخيصة للغاية لا يحصلون على أي أجر ويجنون الثروات لأسيادهم، والآن الرئيس إبراهام لينكولن يريد ببساطة إلغاء العبودية والتسبب في خسائر فادحة لأصحاب المزارع والمناجم وغيرهم من الإقطاعيين أصحاب الثروات الطائلة؛ لذا كانت الحرب نتيجة طبيعية لذلك القرار الجريء للرئيس الأمريكي السادس عشر، بالطبع أخبرنا الميجور العجوز عن المعركة في الليلة الماضية في اجتماعه معنا؛ لذا فقد كان لديَّ الوقت الكافي للقراءة عن تلك المعركة كما فعل بقية المحاربين الذين أراهم ينهضون الآن من نومهم لينظروا حولهم مثلي ليروا المكان المتواجدين فيه الآن، كنا نائمين فوق أرض عشبية بينما أمامنا بقايا نار كانت مشتعلة، ولكن الآن كل ما تبقى منها بعض الأدخنة التي تخرج بهدوء من بين الرماد المتبقي، نهضنا من أماكننا وتجمعنا حول بعضنا البعض، بينما كان بقية الجنود منشغلين في التحضير ليوم جديد من القتال، نهضنا لنبدأ الاستعداد للمعركة الرابعة في رحلتنا، رحلتي للمغامرة ورحلة الآخرين للمال، لم يكن يهمني المال على الإطلاق عندما قررت الاشتراك في ذلك البرنامج ولكن ما يهمني حقًّا هي المغامرة فقط، المغامرة التي أحصل عليها كل مرة في كل معركة، لم أهتم بعمل صداقات بيني وبين باقي المحاربين؛ لأنني لم آتِ هنا من أجلهم ولكنني جئت من أجل المغامرة التي أفقدتني زوجتي في يوم ما، أقصد طليقتي، أتذكر ذلك اليوم الذي رجعت فيه من إحدى رحلاتي في أفريقيا لأجدها تحزم حقائبها وهي تقول لي: إنني لم أكترث بها يومًا قدر اكتراثي للمغامرة والخطر، لم أجادلها حينها؛ لأنها كانت محقة فيما قالت، أتذكر آخر كلماتها حين قالت لي وهي على وشك ركوب سيارتها لكي ترحل للأبد من حياتي أنها تتمنى حقًّا أن أجد ما أبحث عنه، ربما حينها أشعر بالسعادة التي لم أشعر بها معها هي، لم أفهم معنى تلك الكلمات حينها، ولكنني بالفعل أشعر وكأنني أبحث عن شيء ما خلال كل المغامرات التي قمت بها من قبل، لا أعرف ما هو هذا الشيء الذي ينقص روحي، لا أدري أين سأعثر عليه ولا كيف، ولكنني أعلم أن هناك ما أبحث عنه بالفعل، لقد سافرت كثيرًا،، ذهبت إلى براري أفريقيا وأدغال أمريكا الجنوبية وصحاري الشرق الأوسط وجبال آسيا، قرأت الكثير من الكتب، أكثر من أن أستطيع إحصاءها، ولكن رغم كل ذلك ما زالت تلك الفجوة في روحي موجودة دون أن أستطيع ملأها حتى الآن، ربما أستطيع هنا أن أعلم ما أريده وما أبحث عنه حقًّا.

انتهينا من تحضير أنفسنا للمسير خلال هذا اليوم، وأخذنا حصتنا من الذخيرة والتي لم تكن بالكثيرة، كان الجيش بأكمله يعاني من نقص في الذخيرة خلال تلك المعركة، ولكننا انطلقنا على أي حال، كنا تابعين للفرقة العشرين ماين، هنا كان يتم ذكر رقم الفرقة ثم المدينة التابعة لها الفرقة، كان معنا في رحلتنا عدة فرق أخرى من مدن أخرى مثل الفرقة الرابعة والأربعين نيويورك والفرقة الثالثة والثمانون بنسلفانيا، كنا قلب الدفاع في منطقة لتيل راوند توب، الدفاع الذي أقامه كولونيل سترونج فينسينت، ذلك الرجل القصير ذو السوالف الطويلة حتى ذقنه، كان يملك وجهًا حادًّا متجهمًا ولكنه كان رجلًا عظيمًا، لم يكن يعلم وهو يسير بجوارنا أنه سيقضي نحبه في المعركة، كنت أنظر إليه وأنا أفكر، تُرَى لو عَلِم أنه سيموت بعد أسبوع من اليوم بسبب إصابته اليوم في المعركة وهو لم يتعدَّ السابعة والعشرين من العمر، هل ستظل قراراته كما هي وسيشترك في المعركة أم لا؟ ما الذي يجعل محاميًا مثله يتطوع في الجيش بعد فترة صغيرة من زواجه من المرأة التي يحبها؟ قرأت عنه بالأمس أنه كتب لزوجته قائلًا: لو سقطتُ أريدكِ أن تتذكري أنكِ أعطيتِ زوجكِ أكثر الأسباب صوابًا والتي قد تجعل المرأة أرملة، حبه لها هو ما جعله يحارب من أجلها، ومن أجل أن تعيش هي في عالم أكثر صوابًا وعقلًا.

كنت أمشي وحيدًا على مقربة من بقية المحاربين، هاريسون أيضًا كان يمشي وحده دون أن يتحدث مع أحد، أكملنا سيرنا حتى وصلنا لهضبة ليتل راوند توب، كانت منطقة تملؤها الأشجار العالية وأرضها عشبية، أمرنا كولونيل فينسينت ببناء حائط من الصخور الموجودة بالغابة حتى نستطيع الاحتماء خلفها من نيران القوات الكونفدرالية التي ستفتح بابًا من أبواب الجحيم علينا بعد قليل، قمنا بالفعل بتجميع الحجارة والصخور من المنطقة وبنينا حائطًا صخريًّا ارتفاعه متر تقريبًا، وبدأنا في اتخاذ مواقعنا خلفه والتمركز في انتظار الهجوم القريب علينا، نظرت بجواري لأجد ذلك الجندي الأسود ينظر في صورة بحوزته بينما دموعه تنهمر في صمت، عندما لاحظ نظري إليه وإلى الصورة ابتسم لي في حزن قائلًا:

- هل لديك أطفال يا سيدي؟

هززت رأسي نافيًا، فأكمل حديثه لي قائلًا:

- أنا لديَّ، هذا هو سبب وجودي بجوارك الآن يا سيدي، أنني أملك ما يجعلني أحارب لأجله.

ناولني الصورة التي يمسك بها وقال لي:

- هذا هو ابني جون الصغير.

نظرت في الصورة لأجد مجموعة من الرجال والنساء البيض يبدو عليهم الثراء أمام مزرعة كبيرة بيضاء اللون، نظرت إليه في استغراب وسألته في رفق:

- أين هو ابنك؟ أنا لا أرى إلا مجموعة من ذوي البشرة البيضاء.

أشار لي بسبَّابته نحو الركن الأيمن من الصورة خلف الرجال الواقفين، عندما دققت النظر أمكنني رؤية طفل صغير أسود البشرة يمسح الأرض بفرشاة خلف المجموعة الواقفة، شعرت حينها بغصة في حلقي وأنا أرى ذلك الرجل بجانبي لا يملك صورة لولده إلا تلك الصورة المهينة وهو ينظف المكان خلف أسياده، ترددت قليلًا قبل أن أسأل الرجل:

- هل كنت تعمل لديهم؟

ابتسم الرجل وهو يتناول مني الصورة وينظر إليها قائلًا:

- أعمل لديهم؟ إنها كلمة رقيقة منك يا سيدي، لقد كنت عبدًا لديهم منذ أن وُلِدت، لم أعرف طفولة أو لهو، تعلمت أن أمسح وأُنَظِّف بدلًا من تعلم القراءة والكتابة، تعلمت تلقّي الصفعات والركلات منذ الصغر من سيدي صاحب تلك المزرعة في تكساس التي رأيتها في الصورة، تعلمت أن أرى أمي تُضْرَب بالسياط أمامي ولا أملك فعل شيء لحمايتها أو الزود عنها، تعلمت أن أرى أبي

يُهان كل يوم عشرات المرات وهو يقوم بتقليد حركات القرود أمام ضيوف سيدي لإضحاكهم والترفيه عنهم، هذه الصورة هي الشيء الوحيد الذي يذكرني بماضيَّ وبمستقبل ولدي؛ لأنني لن أجعله يرى ما رأيته، لقد هربت من تلك المزرعة منذ عدة شهور للانضمام لجيش الاتحاد عندما علمت أن الرئيس لينكولن يسعى لإلغاء العبودية، جئت لأحارب وأشق طريقًا لولدي وعائلتي، ولكن هذه المرة كإنسان حر وليس عبدًا لأحد.

صمتُّ لبعض الوقت وأنا أنظر إليه قبل أن أقول له وأنا أضع يدي على ذراعه:

- لا تقلق يا صديقي، اليوم لن تحارب وحدك، سأحارب معك ومن أجلك اليوم، من أجل أن ترجع إلى ولدك لتحمله مرة أخرى بين ذراعيك وأنتما أحرار كما خلقكما الله.

ابتسم الرجل وهو يضع يده فوق يدي ولم يرد، كان خلفنا الكولونيل فنسنت يتحدث مع قائد فرقتنا كولونيل جوشوا شامبرلين، والذي سيتم تخليد ذكراه فيما بعدُ عن دوره البطولي في معركة اليوم، سمعت كولونيل فنسنت يقول لشامبرلين بحزم:

- هذا هو يسار خط دفاع قوات الاتحاد، دافع عن تلك الأرض مهما كانت الخسائر.

كنا نعلم أن سقوط تلك الأرض في أيدي القوات الكونفدرالية يعني ببساطة سقوط الجناح الأيسر لجيش الاتحاد؛ مما سيسمح لهم بتطويق باقي القوات لتنتهي تلك المعركة بانتصار الجنوب وزحفهم نحو العاصمة واشنطن نفسها، انصرف فينسنت ليبقى شامبرلين الذي علا صوته وهو يقول لأفراد فرقته:

- أيها الرجال، أنتم تعلمون أننا لا يمكننا الانسحاب ولا يمكننا خسارة تلك الأرض، أنتم هنا لا تدافعون عن أنفسكم فقط، ولكنكم تدافعون أيضًا عن باقي إخوانكم الذين يحاربون الآن بقوة وشجاعة سيذكرها التاريخ، تدافعون عن حق كل إنسان في أن يكون حرًّا دون أن يمتلكه إنسان مثله، دون أن يكون لبشري ثمن يُشترى ويُباع به؛ لأن الإنسانية والكرامة أغلى من أي ثمن، لا أعدكم بالرجوع أحياء لعائلاتكم ولكنني أعدكم بأنكم ستصبحون أبطالًا يتباهى بهم أبناؤهم سواءً نجيتم من هذه المعركة أم لا، أنتم أبطال في نظري من الآن وقبل أن تبدأ المعركة وستصبحون كذلك في أعين كل من تدافعون من أجله اليوم.

نظرت بإعجاب نحو هذا الرجل الرفيع ذي العينين النافذتين والشارب العملاق، نظرت له بإعجاب؛ لأنه مؤمن بالفعل بما يقوله، هذا الرجل ترك عائلته وأبناءه ووظيفته المرموقة كبروفيسور في جامعة ماين، في سبيل ما يؤمن به حقًّا، برغم أن تلك المعركة تدور في عقلي فقط ولكنني فخور؛ لأنني وُجِدتُّ هنا في هذا المكان مع شخص مثل شامبرلين.

لم ننتظر طويلًا بعد كلماته حتى بدأ الهجوم علينا، أكثر من ثمان مائة جندي وضابط من الفوج الرابع والخامس تكساس انقضُّوا علينا ونحن لم نتجاوز الأربع مائة مقاتل وبدأت المعركة، بدأت الأعيرة النارية في الانطلاق، وبدأت سحب الدخان الأبيض في التصاعد من فوهات بنادقنا، كان هجومهم عنيفًا ولكن إرادتنا كانت أعنف وأقوى، بدأنا أنا وباقي المحاربين في اتباع ما قاله لنا كامل قبل المعركة، كنا نطلق الأعيرة النارية تباعًا حتى يتسنى للباقين تلقيم بنادقهم كما فعلنا في المعركة السابقة، كانت القوت الكونفدرالية تركض باتجاهنا وهم يطلقون رصاصاتهم علينا في سخاء لحصد أرواحنا، سقط منا الكثيرون ولكن لم يتوقف أحد عن القتال، كان المحاربون يطلقون بدورهم رصاصاتهم لتصيب بدقة أهدافها، بدأت الجثث في ملء ميدان المعركة من الطرفين، ولكن على الرغم من بسالة قوات الاتحاد في الدفاع عن ليتل راوند توب فإن قوات الجنوب بدأت في الاقتراب منا وحَصْدِ المزيد من جنودنا، كانوا يحتمون بالأشجار التي تملأ المكان ويبدأون في الزحف نحونا ببطء، امتلأ المكان بصخب المعركة، صوت الطلقات النارية التي تُطْلَقُ من الجانبين وصرخات المصابين وصيحات التشجيع من الضباط خلفنا، استمرت المعركة لحوالي ساعة ونصف من القتال والضحايا من الجانبين، بدأت ذخيرتنا في النفاد بينما المعركة لم تنتهِ بعدُ، كان الكونفدراليون مصممين على الاستيلاء على تلك المنطقة الحيوية بالنسبة إليهم وإلينا، كانوا مستعدين لأي تضحية في سبيل الحصول عليها، كانت منطقة ليتل راوند توب مصيرية للطرفين، من يفوز بها يفوز بالحرب بأَسْرِهَا؛ لذا توالت هجماتهم علينا بإصرار عنيف، بعد فترة كانت ذخيرتي قد نفدت ولم ينتهِ هجومهم علينا بعدُ، كنت في موضعي هدفًا سهلًا لهم دون أن يكون لديَّ فرصة للدفاع عن نفسي، في المعارك السابقة كنت أخوضها وأنا غير مبالٍ بأي شيء، كنت أعتبرها مغامرة لا أكثر؛ لأن معي سلاحًا أستطيع به الدفاع عن نفسي أمام أعدائي، ولكن الآن أنا مجرد بطة جالسة تنتظر طلقة من صياد لتنتهي حياتها بأكملها، في هذه اللحظة بالتحديد عندما شعرت باقتراب الموت أحسست بأنني كنت أحمق من قبل عندما اعتبرت أن الحياة مغامرة كبيرة لا أكثر، كنت أحمق لأنها أعمق وأفضل من ذلك بكثير، الحياة هي أن تجعل حياة الآخرين أفضل حتى تشعر أن لحياتك هدفًا ومعنًى، لن تشعر بآدميتك إلا عندما تجعل مَنْ حولك يشعر بها أولًا، للأسف اكتشفت ذلك متأخرًا، حينها أقدمت على فعل جنوني، وقفت وأنا مغمض عيناي وفردت ذراعاي في انتظار الطلقة التي ستنهي حياتي، لثوانٍ كنت أسمع صوت الطلقات المنطلقة وأتخيل إحداها وهي تخترق جسدي وتنجز مهمتها التي صُنِعَت من أجلها، وبينما أنا واقف وجدت من يرتمي فوقي ليسقطني أرضًا، لم يكن سوى كامل الذي نظر لي بذعر وهو يصيح:

- هل جُنِنْتَ يا رجل؟ ماذا تظن نفسك فاعلًا؟ هل أنت أحمق؟

رددت عليه وأنا أزيحه من فوقي قائلًا:

- نعم، لقد كنت أحمق طيلة حياتي، ولكن ليس بعد الآن.

لم يعقب كامل على ما قلته، نظر لي لثوانٍ قبل أن ينادي على مانويل وسليم وليوناردو ويقول لهم:

- تحلَّقوا حوله وامنعوه من ارتكاب أي فعل أحمق، إذا حاول الوقوف مرة أخرى أَفْقِدوه وعيه، أنتم مسئولون عنه حتى أرجع إليكم.

ثم خلع حقيبته والتي تحوي البارود والطلقات وأعطاها لي وهو ينظر لي في حزم:

- لن تموت اليوم، هل تسمعني يا توماس؟ لن تموت اليوم، إذا لم تُرِد القتال من أجل نفسك فقاتِلْ مِن أجل مَن معك الآن، هم يستحقون ذلك منك.

لم أرُدَّ عليه في الوقت الذي صاح فيه سليم موجهًا سؤاله لكامل:

- إلى أين أنت ذاهب أيها المعتوه؟

رد عليه كامل قبل أن يختفي وسط الأدخنة البيضاء:

- سوف أحضر المزيد من الذخيرة.

لثوانٍ نظرت لحقيبة كامل التي تحوي ذخيرته المتبقية والتي تركها لي قبل رحيله، نظرت إلى الاتجاه الذي ركض فيه كامل لأجده ينحني ليلتقط حقائب الذخيرة من الجنود الذين قضوا نحبهم رغم الطلقات التي تنطلق صوبه من الكونفدراليين وكأنهم أدركوا خطته المجنونة، كانوا يحاولون منعه من تزويد الجنود المتبقين بالذخيرة، ولكنه لم يبالِ بطلقاتهم المتناثرة، هذا الرجل إما أكثر الرجال جنونًا قابلتُهُ في حياتي أو أكثرهم شجاعة، نظرت مرة أخرى للحقيبة وبدأت في إخراج البارود منها لتلقيم بندقيتي وأنا أهمس لنفسي:

- لن تشعر بآدميتك إلا عندما يشعر بها مَنْ حولك.

انتهيت من تلقيم البندقية لتنطلق أولى طلقاتي نحو أحد الجنود الذي كان يستهدف كامل، سقط الجندي بينما أنا أصرخ في المحاربين قائلًا:

- احموا كامل، احموا كامل.

انتبه المحاربون حينها للطلقات التي تتجه صوب المصري فبدأوا في إطلاق نيرانهم على الجنود الذين يستهدفونه، شعرت حينها بحماس وقوة لم أشعر بها من قبل، شعرت وكأنني وجدت هدف حياتي الذي جاهدت طويلًا من أجل العثور عليه، صِحْتُ بقوة:

- لن نستسلم أيها الأوغاد، لن نستسلم.

تعالت صيحات الجنود وهم يكملون قتالهم ضد القوات الكونفدرالية، مر بعض الوقت شعرت وكأنه دهر بأكمله قبل أن أجد كامل قادمًا نحونا ويقوم بتوزيع حقائب الذخيرة على الجنود، تبقى معه عدة حقائب قام بتوزيعها علينا وهو يقول ضاحكًا:

- هل فاتني شيء؟

ابتسم مانويل قبل أن يردَّ عليه قائلًا:

- نعم، لقد فاتك أن ترى توماس وهو يطلق الطلقات لحمايتك بينما أنت تتصرف كالمجنون وتجمع حقائب الذخيرة.

نظر لي كامل بامتنان وقال لي:

- شكرًا يا توماس على إنقاذك حياتي.

ابتسمت له وأنا أرد عليه قائلًا:

- بل شكرًا لك أنت، أنت من أنقذت حياتي أولًا، شكرًا يا صديقي.

أتاني صوت مانويل وهو يقول:

- لا أقصد أن أقاطعكما بالطبع، ولكن ألا تلاحظان أننا في معركة طاحنة؟ فلتقاتلا الآن ثم بعد ذلك اشكرا بعضكما البعض كما تشاءان.

ابتسم كامل وهو يلقم بندقيته وقال لي:

- هذا هو مانويل، ستعتاد عليه مع الوقت كما اعتدنا عليه للأسف.

لَكَمَهُ مانويل في كتفه وهو يقول:

- هو يقصد أنك ستعتاد على شجاعتي وجرأتي، ولكن الآن هلا ركزنا في المعركة أيها الحمقى؟

بدأنا في مواصلة القتال مرة أخرى وصد ذلك الهجوم العنيف والمتواصل من الكونفدراليين، كانوا يستميتون في قتالهم للسيطرة على ليتل راوند توب ونحن نستميت في الدفاع عنها، بدأت أعدادنا في التناقص بشدة جراء الهجوم علينا، كانت الهزيمة على مرمى دقائق أمام قوات الجنوب، بدأ اليأس يسري كالنار في الهشيم بين رجال فرقتنا والفرق الأخرى وهم يرون زملاءهم وإخوانهم يموتون كل دقيقة أمام أعينهم دون أن تلوح في الأفق بارقة أمل في انتهاء ذلك الهجوم، ولكن قبل أن يحرق اليأس آخر زهور الأمل بداخلهم بزغ ذلك البطل، كولونيل باتريك أوروك قائد الفرقة مئة وأربعون نيويورك، اقتحم المكان بقوة هو ورجاله وصاح بصوت عالٍ:

- لقد جئنا إليكم أيها الرجال، أَكْمِلوا الدفاع عن ليتل راوند توب، لن يحصلوا عليها اليوم هؤلاء الأوغاد، نحن معكم أيها الأبطال، نحن معكم.

بدأ رجاله في الوقوف بجانبنا وتلاصقت أكتافنا مع أكتافهم وهم يلقمون بنادقهم ويطلقون أولى طلقاتهم في المعركة ضد الكونفدراليين الذين بَدَا لهم لوهلة أنهم قد انتصروا علينا، ولكن ها هي فرقة كولونيل أوروك تأتي لتنقذ الأمل الذي كاد يموت بداخل جنود الاتحاد، أتت إلينا كنجدة من السماء، كان جنودها يقفون بجانبنا ويساعدون في نقل المصابين للخلف بعيدًا عن مرمى النيران، لم يمر كثير من الوقت قبل أن نرى الكولونيل البطل باتريك أوروك ساقطًا على الأرض مضرجًا في دمائه جراء إصابته في المعركة، ما زلت أتذكر آخر كلماته حين قال لمن حوله:

- لن ننسحب من تلك الأرض، أكملوا القتال، كل جندي يسقط منا سيجد مكانه واحد آخر يقاتل من أجله ومن أجل ما نؤمن به.

سقط أوروك ميتًا في أرض المعركة، بينما أصيب الكولونيل فينسينت إصابة بليغة، لم يكن يعلم حينها أنها الإصابة التي ستُودي بحياته بعد أسبوع من الآن.

مقتل أوروك وكلماته أعطتنا الدافع لكي نبذل أقصى ما في استطاعتنا حتى لا نجعل موته يذهب هباءً، قاتلنا كما لم نقاتل من قبلُ، لم يعد الأمر مجرد تنفيذ لأمر عسكري تم إصداره لنا ولكنه أصبح ثأرًا شخصيًّا لكل مقاتل ما زال على قيد الحياة في ليتل راوند توب، لم يكن هناك مَن لم يفقد أخًا أو جارًا أو صديقًا أو قريبًا في هذه المعركة وفي الحرب كلها، كان الدفاع عن ليتل راوند توب مسألة حياة أو موت، يومًا ما سيتذكر التاريخ تلك المعركة بكل الفخر والاحترام ويقول: كان هنا رجال قاتلوا وقُتِلوا في سبيل ما يؤمنون به، أما بالنسبة للمحاربين فقد كان الأمر أصعب من أن تصفه كلمات، لم يمر عليَّ الكثير من الوقت قبل أن أشعر وكأنني أعرف هؤلاء الرجال منذ زمن طويل، مانويل المرح وسليم الجاد وليو الطيب وكامل، كامل الحنون والشجاع، والمجنون أحيانًا، كامل الذي كنت ألاحظه كل فترة ينظر إلينا جميعًا وكأنه يطمئن على أننا لم نُصَبْ بأذى قبل أن يواصل القتال مرة أخرى، رغم اشتراكي في ثلاث معارك سابقة حتى الآن، ولكنني لأول مرة أشعر بالأمان وأنا أعلم أن كامل يقاتل بجواري وفي صفي، وكأنني أستمدُّ منه القوة لكي أواصل القتال رغم الهجوم العنيف علينا، بمجرد أن يقول أحدنا أن ذخيرته نفدت يجد أيدي باقي المحاربين تمتد إليه بذخيرتهم لكي يواصل القتال، وكأن كل واحد منهم لا يكترث بحياته قدر اكتراثه بحياة مَنْ معه.

زادت حدة الهجوم عندما قرر الميجور جنرال جون بي هود إشراك فرق أخرى في المعركة بعدما رأى بنفسه بسالة وتصميم قواتنا على عدم التخلي عن ليتل راوند توب مهما كانت تضحياتنا؛ لذا فقد أمر الفرقة الخامسة عشر والسابعة وأربعين ألاباما بالهجوم علينا، وتدعيم الفرقة الرابعة والخامسة تكساس التي بدأت أعدادها في التناقص أمام نيراننا، كانت أعداد القوات الكونفدرالية تتزايد أمام تناقص أعدادنا، ولكن إنقاذ آخر جاء من السماء، كولونيل سيرجنت أندرو توزيير وفرقته الثانية ماين جاءت إلينا لتنقذنا وتقف بجانبنا وتحارب معنا لتعطينا المزيد من التصميم، كولونيل توزيير نفسه والبالغ من العمر خمسة وعشرين عامًا فقط وقف كأسد وسط الأشجار وقام بتشجيعنا لمواصلة القتال، بينما يطلق رصاصاته من مسدسه تجاه الكونفدراليين، كانت الرصاصات تتطاير من حوله ولكنه لم يتحرك قيد أنمله من مكانه، وواصل القتال غير عابئ بحياته، كان يذكرني بكامل الذي يقاتل بجواري الآن بشجاعة وتضحية لا تقل عن توزيير أو أوروك، في النهاية بدأ الكونفدراليون في التراجع بعدما علموا أن هزيمتنا أصعب مما تخيلوا، كنا نعلم أن النهاية لم تأتِ بعدُ، تراجعهم كان هدفه فقط تجميع قواتهم المتبقية والتزود بالذخيرة لشن هجوم آخر علينا، ولكن رغم علمنا بذلك فقد كانت سعادتنا غامرة، لقد أجبرناهم على التراجع رغمًا عنهم مما أعطانا بعض الوقت لالتقاط أنفاسنا قبل مواصلة القتال، ولكن ليس كامل، كامل في الوقت الذي يستريح فيه الجميع على الأرض العشبية أو يستند لشجرة كان هو يساعد في نقل الجرحى لإسعافهم، نظرت إليه وهو يعين أحد الرجال على النهوض بعد أن أُصيب في ساقه ويبتسم في وجهه ويخبره أن كل شيء سيكون على ما يرام، نظرت إليه ووجدت نفسي أسأل سليم الذي كان مستندًا على شجرة بجواري وهو يشرب بعض الماء:

- لماذا يفعل ذلك؟ لماذا هو مهووس بمساعدة الجميع؟

أجابني سليم وهو يناولني قارورة الماء:

- لأنهم بالنسبة إليه مسئوليته، لقد تساءلت من قبلك بخصوص هذا الأمر ولم أجد إلا إجابة واحدة يا صديقي.

نظرت إليه مستفهمًا فأجابني:

- لأن هذه هي طبيعته، يوجد مَنْ يولد منا لكي يعيش لنفسه ويوجد مَنْ يولد ليعيش للآخرين، هناك مَنْ يولَد تابِعًا وهناك مَنْ يولد قائدًا، قائدًا يخاف على الآخرين أكثر من خوفه على نفسه، يهتم بهم لأنه يرى أنه بذلك يستحق لقب إنسان ويستحق أن يعيش، هذا هو الشيء الوحيد الذي يعرفه في حياته، أن يكون الأب والصديق والأخ لجميع مَنْ حوله، صدِّقني هو لا يفعل ذلك من أجل بطولة زائفة، ولكن يفعله لأنه بالفعل يهتم ويكترث بالآخرين.

ساد الصمت بيننا بعد كلمات سليم، كنت أفكر بما قاله وأنا أرى كامل يحمل مصابًا آخر بين ذراعيه ويضعه برفق على الأرض أمام أحد الأطباء لفحصه، بعدما انتهى من مهمته أتى إلينا وجلس بجوارنا، ناولته قارورة الماء ليبتسم ويشكرني قبل أن يجرع منها الماء بنهم، كنت أنظر إليه وحينما لاحظ ذلك نظر لي باسمًا وهو يتساءل:

- هل هناك خطب ما؟

ابتسمت له بدوري وأنا أرد عليه:

- لا، لا شيء يا صديقي.

بعد استراحة دامت لبعض الوقت بدأ الكونفدراليون في الاحتشاد أسفل الهضبة في هجوم جديد على منطقة ليتل راوند توب، ولكن المشكلة أن معظم الجنود قد نفدت ذخيرتهم أو كادت، لم نكن نملك ما يكفي من الطلقات والبارود لكي نستطيع الصمود في تلك الجولة، وبينما كان الجنود يتساءلون فيما بينهم عما سوف نفعله وجدنا صوت شامبرلين الهادر يقول:

- الحِراب، الحِراب.

قمنا على الفور بتثبيت الحراب التي بحوزتنا في مقدمة بنادقنا استعدادًا للمعركة، كان ذلك يعني أنها ستكون معركة غير متكافئة سيسقط خلالها الكثيرون، ربما أكثر بكثير ممن قضوا نحبهم حتى الآن، أخذت أتنفَّس بعمق وأنا ممسك بندقيتي بقوة، ربما كانت تلك المعركة هي نهايتي ونهاية المحاربين، ولكن إذا كانت النهاية هي اليوم فأنا فخور بأنني سأموت وسط هؤلاء الأبطال بجوار كامل وسليم ومانويل وليو.

بعدما انتهينا من تجهيز أنفسنا اصطففنا متراصِّين بجوار بعضنا البعض، الأبيض بجوار الأسود بدون تفرقة كما خلقنا الله، نظرت بجواري لأجد الرجل الأسود الذي قابلته في بداية المعركة، ابتسم لي ابتسامة عريضة كشفت أسنانه الناصعة البياض مثل قلبه وروحه، ابتسمت له وأنا أقول:

- سوف ننتصر يا صديقي، وحينها سترجع مرفوع الرأس لابنك لكي تحتضنه وتخبره أنه أصبح حرًّا كما قدَّر الله له دون أن يملكه أحد ببضعة دولارات، سترجع وتخبره ببطولاتنا اليوم، حينما يتناقل الناس أخبار تلك المعركة وتصل إلى مسامع ولدك سيدرك حينها أن

والده أصبح بطلًا من أجله، من أجل أن ينال أعظم ما وهبنا خالقنا؛ حريتنا.

تجمعت الدموع الصامتة في عينيه ثم وضع يده على كتفي وهو يقول:

- سأخبره يا سيدي، سأخبره بأنني قابلت بعضًا من أعظم الرجال حتى يعلم أنه كان هناك مَن يقاتل من أجله ومن أجل حريته، شكرًا لك يا سيدي، شكرًا على أنك إنسان.

تجمعت قوات الكونفدراليين أسفل الهضبة بينما نحن في الأعلى ننتظر الأمر بالهجوم، لم يطل انتظارنا، أصدر شامبرلين أمره لنا بالهجوم على القوات الكونفدرالية التي فوجئت بنا نندفع إليها كالموج الهادر بينما حناجرنا يرتفع منها صوت صيحاتنا العالية، كل منا أمسك بندقيته بقوة وهو يهبط الهضبة ركضًا باتجاه قوات الجنوب التي بدأت في إطلاق نيرانهم علينا، لا أعلم من سقط ومن ظل على قيد الحياة، كنا نركض باتجاههم بينما الطلقات تصيب الأشجار من حولنا وتصيب بعض رجالنا، حتى من كان يُصاب كنت أراه يكمل ركضه نحو الكونفدراليين الذين فوجئوا بما نفعله، وصلنا إلى حيث يتمركزون لنبدأ قتالهم بحِراب بنادقنا التي توجَّهت نحو صدورهم بقوة، وعلى الرغم من ذخيرتهم وبنادقهم إلا أنهم بدأوا في التراجع أمامنا، واصلنا القتال والهجوم عليهم بكل ما أوتينا من قوة، سقط حينها العديد من الضحايا من الجانبين، افترشت أرض الغابة بجثث قوات الاتحاد ذات البذلات الزرقاء وقوات الكونفدرالية ذات البذلات الرمادية، بعضهم يحدِّق في الفراغ بعيون فارغة وبعضهم مغمض عينيه في رضا وكأنه وجد أخيرًا السلام الذي كان يبحث عنه منذ وقت طويل، ولكن في النهاية كان مَنْ تبقى من قوات الكونفدراليين قد انسحب للمرة الأخيرة، تطلعت حولي لأطمئن على باقي المحاربين، كانوا يلهثون من فرط المجهود الذي بذلناه، ولكنهم كانوا جميعًا أحياءً لم يُصَبْ أحد منهم بأذى، بعد انتهاء هذه المعركة سيعلم العالم أنه في ثلاثة أيام هي عمر تلك المعركة تعدَّت الخسائر واحدًا وخمسين ألفًا ما بين قتيل وجريح ومفقود، سيعلم العالم عن تضحيات وبطولات هؤلاء الفتية الذين أتوا من نيويورك وبنسلفانيا وميتشيجان وماين وغيرها من المدن، أتوا حينما استدعتهم الإنسانية والواجب والحرية.

▪ ▪ ▪

القادم آسوآ

للمرة الرابعة أستيقظ من سبات المعركة التي كنت أخوضها، ولكن هذه المرة كانت مختلفة عن المرات السابقة، هذه المرة لم أكن وحيدًا مثل المرات السابقة، فتحت عيناي ليسرع نحوي أفراد الطاقم الطبي للاطمئنان عليَّ ولإجراء فحوصاتهم التي يجرونها عقب كل معركة، بعدما انتهينا من الفحوصات واطمأن دكتور جايمس علينا سمح لنا بالانصراف، سِرت في ذلك الممر كما فعلت في المرات السابقة ولكن هذه المرة بجوار كامل وسليم ومانويل وليو، كنا نمزح ونضحك بصوت عالٍ فرحين بنجاتنا من معركة جديدة ورجوعنا منتصرين، لم يتبقَّ لنا إلا معركتان ونعلن حينها انتصارنا على الزمن والتاريخ، معركتان تفصل بيننا وبين تحقيق المحاربين لأحلامهم، معركتان ويتمكن بعدها مانويل من علاج ولده المريض بالسرطان، لقد أخبرني كامل عن مرض أليهو في الليلة السابقة في ليتل راوند توب قبل أن نخلد للنوم، بمجرد انتهائنا من السير في الممر كنا قد وصلنا لقاعة الطعام والتي كان ينتظر بها عائلات المحاربين الأربعة، لقد علمنا من الطبيب قبل انصرافنا من المعمل أن إدارة البرنامج قررت أن تظل العائلات متواجدة معنا في المعسكر حتى انتهاء المعارك، ابتسمت وأنا أرى مانويل يركض نحو ولده الذي فتح ذراعيه لأبيه في شوق، وأنا أرى ابنة سليم تتعلق برقبة أبيها وعلى وجهها الملائكي أروع ابتسامة قد تراها في حياتك، وأنا أرى فخر والد ليو وهو يرى ابنه البطل سليمًا ومنتصرًا أمامه، وأنا أرى اللهفة في عيون إخوة كامل الذين احتضنوه بشدة وكأنهم يتأكدون من أنه بخير، ابتسمت عندما رأيت كل هذا، ولكنها كانت ابتسامة فرحة لهم وحزن على نفسي، حزن على ما ضيَّعته من يدي عندما انشغلت بالعمل وبالبحث عن معنًى لحياتي، وأهملت زوجتي الجميلة التي كانت يومًا ابتسامتها في الصباح تجعلني أشعر وكأنني امتلكت الدنيا وما فيها، نظرت نظرة أخيرة على رفاقي وهم يضحكون ويبكون من الفرحة مع عائلاتهم قبل أن أهُمَّ بمغادرة المكان، بدأت في السير في اتجاه غرفتي لأجد تلك اليد الحانية تمسك بمعصمي، نظرت خلفي لأجده مانويل حاملًا أليهو على ذراعه، قال لابنه وهو ينظر لي:

- أريدك أن تتعرف على صديقي توماس، توماس، هذا هو أليخاندرو ولدي ولكننا نطلق عليه أليهو.

علت الابتسامة وجهي وأنا أنظر لأليهو قبل أن أمدَّ يدي لمصافحة يده الصغيرة وأنا أقول:

- أهلًا بك أليهو، كنت أتطلع لمقابلتك أيها الصغير.

تطلَّع لي أليهو لبعض الوقت قبل أن يقول:

- لقد أخبرني والدي أنك كنتَ شجاعًا في المعركة يا سيدي، لقد حاولت أن أكون شجاعًا من قبل عندما أرادوا إعطائي حقنة في المستشفى ولكنها كانت مؤلمة فبكيت؛ لذا أنا لست شجاعًا، أليس كذلك؟

أمسكت وجهه الصغير برفق قبل أن أقول له بتأثر:

- بل أنت أشجعنا أيها البطل، أنت أشجعنا على الإطلاق، أنت تحارب مرضك وتريد أن تنتصر عليه، أليس كذلك أليهو؟

أومأ لي الصغير برأسه إيجابًا فأكملت قائلًا:

- وهذه هي الشجاعة، أن تحارب وتقاتل دون أن تيأس مهما كانت نتيجة المعركة ومهما كانت مؤلمة أو قاسية، أنت تفعل ذلك كل يوم ودون أن تنتظر مقابلًا من أحد، صدقني أنت أشجعنا جميعًا، أنا فخور بلقائك أيها البطل.

ابتسم الصبي لي عقب انتهائي من كلماتي، قمت بتقبيل رأسه فوجدته ينظر لي ويقوم بأداء التحية العسكرية بيده الصغيرة الناعمة، نظرت له ثم لوالده ووقفت منتصبًا وأنا أؤدي له التحية العسكرية بدوري، بعدها وجدت مانويل وهو يجذبني من ذراعي قائلًا لي بحزم:

- هيا، ستتناول معنا الإفطار، سوف أقوم بتعريفك على بقية عائلات المحاربين.

حاولت إثناءه عن ذلك مغمغمًا بأنني أريد تركهم لكي ينعموا ببعض الوقت مع عائلاتهم، ولكنه قال لي بحزم:

- أنت محق، سوف نجلس مع عائلاتنا؛ لذا فيجب أن تكون معنا؛ لأنك من عائلتي الآن.

وقبل أن أردَّ عليه وجدت كامل وسليم وليو يحيطونني، بينما كامل يقول:

- ومن عائلاتنا نحن أيضًا، أنت واحد منا الآن يا صديقي.

ابتسمت في تأثر ولم أرُد، تركتهم يجذبونني باتجاه المكان الذي جلست فيه عائلاتهم يتحدثون ويتسامرون بودٍّ، قام كامل بتعريفي على أفراد عائلته وكذلك فعل الباقين، جلست معهم وبدأنا في الحديث عن المعركة وعما حدث بها، كانت عيون الأطفال متسعة وهم يستمعون لما حدث لنا في المعركة، وكيف واجهنا الآلاف حتى ننتصر عليهم ونرجع مرة أخرى جميعًا، نظرت نحو كامل الذي لم يكن منتبهًا لما نقوله، كان يتطلع لشيء ما بجوارنا، نظرت لما ينظر إليه كامل لأجده يتطلع إلى ذلك الوغد الذي يُدْعَى هاريسون، كان وحيدًا تمامًا يتناول إفطاره في صمت وهو ينظر إلينا من وقت لآخر قبل أن يكمل طعامه، نظر لي كامل وفهمت ما الذي يرمي إليه، لم أكن متحمسًا لذلك بالطبع ولكنني وافقته بإيماءة مني، نهض كل منا واتجهنا نحو هاريسون الذي استمر في تناول إفطاره دون أن يتطلع إلينا، بينما نحن واقفين أمام مائدته وكأننا غير موجودين، ظللنا واقفين لبضع ثوانٍ دون أن يتكلم هاريسون أو كامل قبل أن يقطع الأخير ذلك الصمت قائلًا للأسترالي في تودد:

- تستطيع الانضمام إلى مائدتنا إذا أردت، سيكون ذلك مَدْعَاةً لسرورنا.

لثوانٍ لم يتحدث هاريسون ولم يَبْدُ عليه أنه سمعنا، فقط أكمل إفطاره في صمت، ثم بعد فترة نظر لي ولكامل بازدراء واضح قبل أن يقول:

- أعلم أنه مدعاة لسروركم، هو بالأحرى شرف لكم، ولكنه ليس مَدْعَاةً لسروري، اذهبوا من أمامي حتى أستطيع تناول إفطاري في هدوء، فلتنضموا لباقي الحمقى.

استفزتني كلماته الوقحة فكوَّرت قبضة يدي وأنا أصيح بغضب:

- لقد كنا حمقى بالفعل عندما فكرنا أنك تستحق مكانًا معنا أيها الـ ...

قاطعني كامل بحزم قائلًا:

- توماس، يكفي هذا، لا نريد الشجار أمام عائلاتنا، من الأفضل لنا أن نرحل.

ثم قال موجهًا كلماته لهاريسون:

- سوف ندعك تكمل إفطارك كما طلبت، أَكْمِلْهُ وحيدًا.

كنت أتمنى تكسير جمجمة هذا القذر في هذه اللحظة حتى لو كلفني ذلك مشاركتي في البرنامج، ولكن يد كامل الحازمة سحبتني بعيدًا عن هاريسون قبل أن يتطور الحديث إلى معركة بيننا نحن الاثنان، كان بقية المحاربين وعائلاتهم ينظرون إلينا في قلق عندما لاحظوا صوتي المرتفع وأنا أتحدث مع ذلك الوغد، لم أشأ أن أفسد صباحهم بعراكي معه؛ لذا اكتفيت بما حدث واتجهت نحو مائدتنا مع كامل الذي قال لي في أسف:

- أعتذر لك يا صديقي؛ لأنني جعلتك تفقد أعصابك بينما ...

هذه المرة أنا من قاطعته قائلًا له:

- لا تعتذر يا كامل، أنت تملك قلبًا ذهبيًّا ولك مني الاحترام على ذلك ولكن صدقني ليس كل شخص يستحق معاملتك الحسنة.

ثم أردفت وأنا أنظر بكراهية نحو هاريسون:

- أكثر ما يحنقني أنني لوهله شعرت بالشفقة على ذلك الحيوان المدعو هاريسون.

لم يعقب كامل على جملتي وجلس على المائدة بجوار عائلته ولم تمضِ سوى بضع دقائق حتى كنا قد نسينا هذا الموقف تمامًا، ورجعنا للمزاح والضحك كأن شيئًا لم يكن، لم يكن هناك أحد فينا يريد أن يكون هاريسون سببًا في تعكير صفو هذا اليوم الجميل الذي استحققناه بجدارة بعد معركتنا الأخيرة.

أكملنا اليوم كما في المرات السابقة، الحصول على بعض الراحة وخضوعنا لعملية استخلاص المعلومات والذكريات المتعلقة بالمعركة الرابعة والمقابلات التليفزيونية المنفردة لكل منا لكي يتحدث عما دار في أرض المعركة، أكملنا كل ذلك في جو من الصداقة والدفء الذي لم أشعر به منذ فترة طويلة، تلك المجموعة من المحاربين جعلتني أدرك أن حياتي السابقة كانت سيئة من دونهم، وأن حياتي القادمة ستكون أفضل بسببهم؛ لذا كان امتناني كبيرًا لهم لأنهم جعلوني أفهم ما هو المهم في الحياة.

أنهينا برنامجنا الخاص بهذا اليوم، لم يتبقَّ لنا إلا الاجتماع المعتاد مع الميجور والطبيب العجوز قبل أن ننام لبعض الوقت استعدادًا للمعركة القادمة التي لا نعلم ما هي حتى الآن، جلسنا في أماكننا نحن الستة في انتظار قدوم كليهما، لم يدم انتظارنا طويلًا قبل أن يظهر الرجلان المضطربان، أقول: مضطربان؛ لأن هذا هو ما بَدَا عليهما لدى دخولهما قاعة الاجتماعات، كانا ينظران لبعضهما بعضًا وكأن كلًّا منهما يريد الآخر أن يتحدث بدلًا منه، لم نعتد على ذلك خاصة من الميجور في المعارك السابقة مما زاد من قلقنا جميعًا، في النهاية أخذ الميجور نَفَسًا عميقًا قبل أن يبدأ حديثه قائلًا:

- في البداية أحب أن أخبركم بأنني فخور جدًّا بكل فرد منكم، لأصدقكم القول لم أكن أتوقع أن تصمدوا جميعًا طوال المعارك السابقة، لقد كنت أظن أن بعضكم ربما ينسحب من البرنامج بوصولنا إلى هذه المرحلة، ولكنكم جميعًا خيبتم أملي وجعلتموني أدرك كم أنا محظوظ بأنكم أنتم من وصلتم للقب محارب الزمن، أنتم بالضبط السبب في اشتراكي وموافقتي على تدريب واختبار المرشحين للبرنامج، كنت أتطلع للعثور على مقاتلين من نوع خاص، محاربين يهابون الموت ولكن في نفس الوقت لا يخافون منه إذا كان الموت هو السبيل الوحيد لإنقاذ المحارب الذي بجانبهم، أنا جدُّ فخور بالعمل معكم أيها الأبطال، ولكنني للأسف أحمل بعض الأنباء المزعجة.

تَطَلَّعَتْ للميجور عيوننا جميعًا في انتظار كلماته التالية التي كان يبدو أنه يختارها بعناية قبل تلفُّظه بها، صمت لبعض الوقت قبل أن يكمل حديثه:

- المعركتان المتبقيتان ستكونان من أصعب المعارك التي مرت عليكم، لم يخُضْ أحدكم معركة بهذه القوة في حياته من قبل، لم يكن من المفترض أن تقاتلا في هاتين المعركتين، ولكن إدارة البرنامج قررت تغيير المعارك الأصلية التي اخترناها من قبلُ بمعارك أكثر حدة وعنف عن السابقة، لقد حاولنا أنا ودكتور جايمس إثناءهم عن ذلك ولكنهم أصرُّوا على المعارك الجديدة حتى لو كلفهم ذلك انسحاب بعض المحاربين.

صاح هاريسون بغضب وهو ينهض من مكانه:

- هؤلاء الخنازير يتعاملون معنا وكأنهم يلعبون لعبة فيديو جديدة، فلنَزِدْ عنف المعركة قليلًا للحصول على بعض الإثارة، لا يهمُّ إن مات هؤلاء الرجال ما دام ذلك يعني المزيد من الأموال في خزينتنا، لِمَ لا يذهبون هم للمعركة بدلًا منا وحينها سنرى مدى شجاعتهم، لِمَ لا تذهب أنت للقتال بدلًا منا أيها العسكري العظيم؟

كنا نتوقع انفجار الميجور في هاريسون بعد كلماته الوقحة ولكن بدلًا من ذلك وجدناه يرد عليه بحزن:

- صدِّقني يا هاريسون لو كان باستطاعتي ذلك لفعلت، لو كان باستطاعتي الذهاب معكم للمعركة وقيادتكم خلالها لكي أضمن رجوعكم سالمين لفعلت ذلك، حتى لو عنى ذلك موتي هناك.

نظر هاريسون نحو الميجور بوجه تعلوه الدهشة والأسف في آن واحد، كان معتادًا على كلمات الميجور الجارحة كلما انفجر غاضبًا، ولكن هذه المرة كان مختلفًا معه؛ لذا فقد صمت تمامًا وجلس في مكانه ببطء، حينها سأل ليو الميجور قائلًا:

- ما اسم المعركتين اللتين سنخوضهما سيدي الميجور؟

تردد الأخير بعض الوقت قبل أن يردَّ عليه قائلًا:

- المعركة الخامسة ستكون معركة سوم في فرنسا، حدثت أثناء الحرب العالمية الأولى، ستكونون من ضمن قوات الجيش البريطاني، ذلك الجيش الذي فَقَدَ في اليوم الأول للمعركة حوالي ستين ألفًا ما بين قتيل وجريح وأسير، في ذلك اليوم فقدت بريطانيا عددًا من الجنود فاق ما فقدته في ثلاث حروب مجتمعة، وهذا هو اليوم الذي ستحاربون فيه.

ساد الصمت لبعض الوقت قبل أن يخرج السؤال التالي من سليم الذي قال:

- وما هي السادسة؟

نظر الميجور نحو سليم قبل أن يردَّ عليه:

- ستكون معركة نورماندي في الحرب العالمية الثانية، حدثت هي الأخرى في فرنسا وخسر الحلفاء حينها أكثر من مئة وعشرين ألفًا خلال بضعة شهور في المعركة ما بين قتيل وجريح.

ساد الصمت التام في القاعة لبضع دقائق، اكتفى الميجور خلال تلك الدقائق بالجلوس في مقعده وكذلك فعل الطبيب، لم يكن هناك ما يقال منهم بعد ما قاله الميجور، كان يقول لنا ببساطة: إن ذهابنا انتحار ورجوعنا معجزة، بحكم عملي في مجال التدريب العسكري فقد كنت قرأت من قبل عن الحرب العالمية الأولى والثانية، حجم الضحايا من العسكريين والمدنيين كان بالملايين في كلا الحربين، كانت موافقتنا على خوض المعركتين المتبقيتين بمثابة شراء تذكرة في اتجاه واحد فقط، الموت في المعركة، والذي يعني غيبوبة كاملة في عالم الواقع ربما لن نستيقظ منها أبدًا، كانت موافقتنا لا تعني إلا الانتحار؛ لذا فقد كان الميجور متفهمًا لهذا الصمت الذي أحاط بالقاعة من الجميع، كان قرارًا صعبًا علينا جميعًا سواء بالموافقة أو الانسحاب، ولكن بعد مرور دقائق على ذلك الصمت وقف كامل وقال موجهًا كلامه للميجور:

- لا أستطيع التحدث نيابة عن الآخرين ولكن بالنسبة لي لا أظن أنني وصلت لهذه المرحلة حتى أقوم بالانسحاب الآن، سوف أخوض المعارك المتبقية سيدي الميجور.

بمجرد أن أنهى كامل كلماته وقف مانويل بدوره وقال:

- وأنا أيضًا لا يمكنني الانسحاب الآن، حياة ابني متوقفة على نجاحي في المعركتين المتبقيتين، لا أستطيع الانسحاب ورؤيته يموت أمام ناظريَّ دون أن أملك شيئًا لفعله، لقد جرَّبت هذا الشعور مرارًا قبل أن آتي إلى هنا ويصبح لديَّ أمل في علاج ولدي الوحيد، ولن أسمح لنفسي بتجربته مرة أخرى، لن أسمح لنفسي بالعجز عن حماية مَنْ أحب حتى لو كلفني ذلك حياتي، لن أدفن ابني يا سيدي، سوف أخوض المعارك المتبقية.

كذلك وقف سليم وقال:

- ربما لا يعلم جميعكم بذلك ولكنني مريض بالسرطان، وفي مرحلة متقدمة، سوف أموت قريبًا على أي حال، لقد صُدِمْتُ في البداية، تساءلت مئات المرات: لماذا أنا بالذات يحدث معي ذلك؟! ثُرْتُ وغضبت وانفجرت في البكاء ولكن في النهاية تقبلت نهايتي المحتومة؛ لأن غضبي وحزني وبكائي لن يشفيني من السرطان، سيظل موجودًا بداخلي يلتهمني سواء حزنت أم لا، بعد فترة لم أحزن على نهايتي قدر حزني على تركي لعائلتي.

توقف سليم عن الكلام لبعض الوقت، كانت دموعه تنهمر في صمت رغمًا عنه، لم تكن دموعه هي الوحيدة في القاعة، بعض المحاربين شاركوه دموعه التي سقطت منهم تأثرًا بما يقوله، حاولت منع نفسي من مشاركتهم دموعهم ولكنني فشلت في ذلك، نهضت من مقعدي واتجهت إليه واحتضنته في رفق وبكيت معه، بينما الباقون التفُّوا حوله في صمت، بعد فترة أكمل سليم حديثه قائلًا:

- سيدي الميجور، أنا ميت لا محالة، على الأقل دعني أموت وأنا أحاول توفير الحماية الكافية التي تستحقها عائلتي، لا أريد ابنتي أن تتذكرني بالأب الجبان الذي خشي على نفسه من الموت، ولكن دعها تتذكرني بالأب الذي فعل كل ما باستطاعته من أجلها ومن أجل والدتها، سوف أخوض المعارك المتبقية.

بعدما انتهى من كلماته قال ليو:

- وأنا أيضًا سوف أخوض المعارك المتبقية، لقد دخلت البرنامج لكي أثبت لوالدي أنني أفضل مما يظنني، ولكنني الآن سأكمل حتى أثبت لنفسي أنني أفضل مما ظننت نفسي، أنا معكم.

نظر الميجور لي في انتظار ردي الذي جاء سريعًا حيث قلت له:

- عندما جئت إلى هنا جئت فقط من أجل المغامرة لا أكثر، لم أطمح في المكافأة والجائزة، ولكنني جئت لأنني ظننت أن المغامرة هي مكسبي الوحيد، ولكن الآن وبعدما عرفت هؤلاء الرجال أدركت أنهم هم جائزتي الحقيقية، معرفتهم وتعاملي معهم جعلني أدرك أنني كنت سأخسر الكثير لو لم أشترك في البرنامج؛ لأنه حينها لم أكن لأعرفهم وأشعر معهم بمشاعر نسيت أنها بداخلي منذ زمن، سوف أشترك من أجلهم قبل أي شيء، سوف أخوض المعارك المتبقية سيدي الميجور.

لم يتبقَّ سوى رد هاريسون، لقد كنت أتمنى بصدق أن يكون رده بعدم الموافقة، كنت أتمنى أن ينسحب ويرحل عنا؛ لأنه لا يستحق تواجده وسط تلك المجموعة الرائعة من الرجال؛ لذا كانت خيبة أملي عظيمة عندما نهض هاريسون من مكانه وقال للميجور بوقاحة:

- لن أكون أنا الجبان المرتعد الذي فرَّ هربًا لدى علمه بصعوبة المعارك المتبقية، سوف أثبت لهؤلاء الأوغاد في إدارة البرنامج أنهم مجموعة من الحمقى، سوف أثبت لهم ذلك عندما أرجع بعد آخر معركة منتصرًا، سوف أكمل البرنامج لأنني لست جبانًا.

ابتسم الميجور ونظر لنا قبل أن يقول:

- أنا بحق فخور بكل واحد منكم، لقد استحققتم لقب محارب الزمن منذ زمن طويل، حتى لو رفضتم إكمال البرنامج؛ لظللتم رجالًا وأبطالًا في نظري ونظر الجميع، والآن يمكنكم الانصراف إلى غرفتكم للقراءة عن معركة الغد ونيل قسط من الراحة قبل أن نبدأ إعدادكم للمعركة الجديدة أيها الأبطال.

أكملنا طريقنا نحو غرفتنا للاستعداد ليوم جديد من القتال، رغم ما أعلم أننا سنعاني منه في المعركة إلا أنني لم أكن قلقًا على الإطلاق؛ لأن الميجور محق فيما قاله، لم أكن قلقًا لأنني سأحارب وسط مجموعة من أروع الرجال الذين قابلتهم في حياتي، ولأن قائدي هو ذلك الرجل الذي يمشي بجواري وأنا أعلم أن جُلَّ ما يهمه الآن هو كيفية إرجاعنا سالمين، كانت مسئولية ثقيلة ألقاها الميجور على عاتق ذلك الفتى المصري ولكنني أعلم في قرارة نفسي أنه أهل لهذه الثقة وهذه الصفة؛ صفة القائد، قائد محاربي الزمن.

▪ ▪ ▪

المعركة الخامسة بعقل هاريسون

فتحت عيناي على صوت الأبواق في الصباح الباكر، نظرت حولي لأجد بقية الجنود يستيقظون بدورهم في تكاسل وانزعاج، بدأنا في النهوض من النوم لكي نستعد لهذا اليوم الدامي، إنها لكارثة حقًّا أن تعلم ما الذي ينتظرك على عكس الآخرين الذين ينعمون بالجهل، أتطلع إلى وجوه مَنْ حولي وأنا أعلم أن أكثرهم لن يرجع اليوم لهذا الفراش بل فراش الموت سيكون في انتظاره، كان اليوم هو الأول من شهر يوليو لعام ١٩١٦، اليوم الأول في معركة السوم التي دارت خلال الحرب العالمية الأولى، أرض المعركة هي فرنسا التي عانت كثيرًا بسبب تلك الحرب، عانت للدرجة التي جعلت قادتها يصرخون في وجه بريطانيا بأنهم إن لم يساعدوهم فسوف تسقط فرنسا ومن بعدها بريطانيا العظمى، كانت فرنسا قد عانت خلال الحرب من خسائر فادحة في الأرواح حتى أصبح جيشها على حافة الانهيار أمام الهجوم الألماني الرهيب؛ لذا فقد وجدت بريطانيا نفسها مضطرة للهجوم بكل ما أوتيت من قوة لصدِّ الطموح الألماني في فرنسا حتى لا يصل إلى عقر دارهم في لندن، وكانت معركة السوم، تلك المعركة التي فَقَدَ كلا الجانبين فيها خلال أربعة أشهر ونصف أكثر من مليون ونصف جندي وضابط ما بين قتيل وجريح، كنا في اليوم الأول منها، ذلك اليوم الذي فقدت فيه بريطانيا حوالي عشرين ألف قتيل وأربعين ألف مصاب في واحدة من أسوأ معاركها على الإطلاق، مئة ألف جندي عبروا في اليوم الأول ولم يَنْجُ منهم إلا أربعون ألفًا فقط، تلك هي الأرقام التي أعلمها بينما لا يعلمها أيٌّ من الجنود الذين يرتدون ثيابهم حولي، تلك هي المعركة التي اختارها لنا هؤلاء الأوغاد القذرين في البرنامج وكأنهم يلعبون لعبة إلكترونية ويختارون لأنفسهم معركة صعبة، ولكن المشكلة أن الجنود الذين سيحاربون عن طريقهم هم نحن، في اللعبة يمكنك الخسارة وإعادة المحاولة مرة أخرى، ولكن هنا لا يمكنني الخسارة، هي محاولة واحدة فقط إن فشلت كانت حياتي ثمنًا لهذا الفشل، كنت في قمة غضبي وثورتي حينما أخبرنا ذلك الميجور العجوز بالتغيير الذي حدث في المعارك، لَكَمْ وددت حينها تحطيم رأس مَنْ قام بذلك التغيير اللعين، ولكنني للأسف لم أستطع ذلك، كما لم أستطع الانسحاب، كانت حياتي حرفيًّا متوقفة على نجاحي في المعارك، لا يمكنني العودة مرة أخرى لأستراليا خالي الوفاض؛ لأنتهي جثة تجدها الشرطة في مكبِّ النفايات بعد أن يقتلني أحد المرابين الذين أدين لهم بالمال ليجعلني عبرة لمن هم على شاكلتي، لا يمكن أن تكون تلك هي نهايتي بعدُ، لن أسمح لنفسي بتلك النهاية المزرية، من الأفضل لي أن أموت هنا في ساحة المعركة مقاتلًا على أن أموت مخمورًا وسط القمامة بواسطة أحد الحثالة ممن يعملون عند دائنيَّ، بدأت في النهوض بدوري للاستعداد للمعركة، كنا تابعين للفرقة الخامسة عشر لانكشاير، ولكنه لم يكن الاسم الذي يطلقه الجنود على أنفسهم، كانوا يطلقون اسم رفاق سالفورد، تلك الفرقة التي أنا منها الآن كانت فرقة من المتطوعين والذين جاؤوا من مدينة واحدة، معظم من حولي هم رفاق في العمل أو جيران أو أقارب جاؤوا متطوعين لمحاربة الألمان، لم يخُضْ أحد منهم معركة من قبل، للكثيرين منهم كان اليوم هو اليوم الأول والأخير لهم في ساحة المعركة، لم يكونوا يعلمون ذلك وهم يضحكون ويطلقون النكات على مسامعي، لم يعلموا بعدُ أن حياتهم ستنتهي اليوم بعد ساعات قليلة من الآن، بدأنا في الانطلاق في طريقنا لخطوط القتال لبدء المعركة، كان جميع من حولي يتمازحون ويضحكون بينما هم في طريقهم، حتى بقية المحاربين كانوا يسيرون سويًّا ويتحدثون كأنهم أصدقاء قدامى، بينما أنا فضلت السير وحيدًا، لم أكن كذلك في الماضي، لم أكن أحب الوحدة ولا أطيقها ولكنها الآن أقرب أصدقائي وجليستي الوحيدة، لقد آذيت الكثيرين ممن حولي من قبل، في البدء كان دون قصدي ولكن بعد ذلك أصبح بإرادتي حتى أبقى بعيدًا عمن أحببتهم يومًا ما، لن أضعف اليوم بعدما اقتربت من النهاية، لن أرجع إلى ما كنت عليه من قبل حتى لا أُوذي شخصًا آخر، على الأقل وأنا وحيد لا أوذي إلا نفسي، وهذا يمكنني التعايش معه، يجب أن يَنْصَبَّ تركيزي الآن على المعركة ولا شيء سواها، أخذت أراجع في عقلي المعلومات التي قرأتها البارحة قبل أن أَخْلُدَ للنوم، ربما أستطيع بسبب تلك المعلومات النجاة من مجزرة اليوم، لقد استمرت الحرب هنا في منطقة السوم لأكثر من عامين قبل مجيئنا اليوم، كان اليوم هو اليوم الأول في معركة السوم ولكنه لم يكن اليوم الأول في الحرب مع الألمان هنا، كانت جميع الأطراف مستميتة في دفاعها عن مواقعها في السوم، تلك المنطقة التي سُمِّيَت بهذا الاسم نسبةً لنهر السوم الذي يقسم خط القتال، لسبعة أيام وليال متواصلة قبل اليوم استمرت ثلاثة آلاف مدفع فرنسي وبريطاني تدك حصون الألمان تمهيدًا لمعركة اليوم، أكثر من ثلاثة ملايين طلقة مدفعية تم استخدامها لتدمير خطوط الألمان في سبعة أيام فقط، كان يتم إطلاق قذيفة كل ثلاث ثوانٍ تقريبًا، كان الهدف الآخر من هذا القصف المركز هو تدمير الأسلاك الشائكة التي نَصَبَهَا الألمان في المسافة الفاصلة بيننا وبينهم لإعاقة حركتنا وإبطائها مما يجعلنا أهدافًا سهلة لنيران أسلحتهم؛ لذا فقد قامت المدفعية البريطانية بتكثيف ضرباتها في تلك المسافة الفاصلة لتدمير الأسلاك الشائكة للسماح بعبورنا خلال الهجوم، ولكن ما لم يخطر على بال القادة العسكريين أن الألمان قد حصَّنوا دفاعاتهم بصورة جيدة جدًّا، لقد كانوا هنا قبلنا بعامين كاملين استطاعوا فيهما حفر خنادق عميقة يصل عمقها إلى تسعة أمتار وفي بعض المناطق عشرة أمتار تحت الأرض، خنادق لا تتأثر بسهولة بنيران المدفعية مهما بلغت قوتها، للأسف لن يدرك الجنود البريطانيون ذلك إلا بعد فوات الأوان، هؤلاء البؤساء الذين استجابوا لنداء الواجب وتطوَّعوا بالآلاف رغم عدم خبرتهم العسكرية ليدافعوا عن أرض غريبة حتى لا تصل الحرب إلى أرضهم وإلى من يحبون ويكترثون لأمرهم، كنت أسير مع باقي فرقتي بينما تمر بجوارنا المدافع والمؤن والأسلحة المحملة على عربات تجرُّها الخيول والبغال، كانت السيارات لا تزال في أعوامها الأولى ولم تدخل بشكل كامل في المجال العسكري؛ لذا فقد كانت الخيول والبغال الوسيلة الأفضل لنقل أدوات رسل الموت إلى ساحة المعركة، كان البعض يغني بعض الأغاني الفولكورية، أغاني تتحدث عن الحبيبة والأم والعائلة، أغاني لن تتردد مرة أخرى بمجرد أن تبدأ المعركة، بعد مسيرة لساعة تقريبًا وصلنا إلى الخنادق التي سننطلق منها في أول موجة هجوم على الجانب الألماني، الطائرات تحلق من فوقنا وترمي رسائل للضباط البريطانيين، حيث لم يكن اللاسلكي موجودًا في هذا الوقت بعدُ، كانت الطائرات تستكشف أماكن وتحصينات العدو ثم يتم كتابة الإحداثيات في رسالة خطية، ومن ثم إلقاؤها للجانب البريطاني، اختلطت في عقلي كل الأصوات التي تصل لمسامعي، صوت الطائرات وهي تعبر من فوقنا وضجيج المدافع التي تهدر منذ الصباح الباكر لتمهيد الهجوم الكبير، وأغاني الجنود التي تتحدث عن اشتياقهم للوطن، وأوامر الضباط التي تنطلق بصوت عالٍ في محاولة للتغلب على أصوات المدافع، كانت الساعة تشير إلى السابعة وعشرين دقيقة صباحًا، عشر دقائق قبل بدء الهجوم الأول، كانت فرقتي تسمى الفرقة الأولى لرفاق سالفورد، فرقة مكوَّنة من أربعة وعشرين ضابطًا وست مائة وخمسين جنديًّا، فرقة سيموت منها واحد وعشرون ضابطًا وأربع مائة وخمسون جنديًّا في اليوم الأول من القتال، هل سيكون ذلك الضابط من الثلاثة المحظوظين أم ستنتهي حياته اليوم؟ نظرت بعدها إلى كامل الذي أمقته، أمقته لأنه يذكرني بشخص نسيته منذ زمن بعيد، ولكن هذا المصري أجبره على الطفو فوق سطح ذكرياتي بعدما تأكدت من غرقه من قبل، لم يَبْدُ على وجهه خوف مما هو قادم، كأنه يعلم يقينًا أنه سوف ينجو، أو ربما لأنه يريد أن يطمئن باقي المحاربين الذين كانوا ينظرون إليه من حين لآخر وكأنهم يستمدون منه القوة لمواصلة القتال، كان رابط الجأش لدرجة جعلتني أكرهه أكثر من ذي قبل، لَكَمْ تمنيت أن يبدو عليه الخوف أو الهلع حتى أستطيع أن أشمت فيه، ولكنه كان مصممًا دون قصد على إثارة غيظي وربما حسدي، لا يهمُّ ذلك الآن، لم يتبقَّ على المعركة إلا ثلاث دقائق، ثلاث دقائق تفصلنا عن الساعة السابعة والنصف صباحًا موعد بدء الهجوم، كانت الساعة السابعة وثماني وعشرون دقيقة عندما دوَّت الانفجارات التي صمَّت آذاننا، مئات الكيلوجرامات من المتفجرات انفجرت بالقرب من الدفاعات الألمانية، كان البريطانيون قد حفروا أنفاقًا تحت الأرض حتى وصلوا إلى الجانب الألماني، وقاموا بوضع تلك المتفجرات بكميات كبيرة في سرية تامة على أن يتم تفجيرها قبل الهجوم بدقيقتين فحسب، كان دويُّ تلك الانفجارات عاليًا للدرجة التي جعلت بعض الجنود يصرخون من شدة الصوت الذي اخترق آذانهم، بعض التفجيرات خَلَّفَتْ فجوات في أرض المعركة قطرها يتعدى الثلاث مائة متر، ظلت الانفجارات تتوالى لمدة دقيقة كاملة بينما نحن في الانتظار، بعد أن انتهت أطلَّ علينا صمت رهيب لدقيقة كاملة، كأن العالم وكل

شيء من حولنا توقف عن الحركة، دقيقة لم أسمع فيها سوى صوت تنفُّس الجنود الثقيل بينما هم في انتظار البداية، لم يدم الانتظار طويلًا، في تمام السابعة والنصف بدأت صافرات الهجوم، صافرة وراء أخرى تنطلق بينما صوت الضباط يعلو بكلمة واحدة:

- هجوم.

بدأت أحذيتنا تَسْحَقُ الرمال الناعمة تحت أقدامنا بينما نحن نصعد من الخنادق إلى أرض المعركة، كانت الأوامر الصادرة للجنود ألَّا يركضوا وأن يسيروا تلك المسافة الفاصلة بيننا وبين الجانب الألماني، كان القادة يظنون أن المدفعية قد قضت على الدفاع الألماني العنيد، لم يعلموا أن الألمان كانوا أشدَّ عنادًا مما ظنوا؛ لذا وبمجرد أن وطئت أقدامنا أرض المعركة انفتحت أبواب الجحيم على الجميع، المئات من المدافع الرشاشة انطلقت طلقاتها في سخاء كبير لتحصد أرواح الجنود البريطانيين في سرعة وقسوة، كان الجنود يسيرون كما أمرهم قادتهم وهم يرون أصدقاءهم يسقطون بجوارهم دون أن يملكوا مساعدتهم، كانوا فقط يستمرون في المشي ببطء بينما طلقات الألمان تحصد العشرات كل دقيقة، الموت في الحقيقة يختلف عن الأفلام التي نراها، هنا يسقطون دون كلمات وداع أو عبارات رنانة، هنا ترى صديقك الذي يمشي بجوارك وقد أصابته طلقة في صدره، يسقط على الأرض ببطء وهو ينظر إليك دون أن يملك الوقت لكي يتحدث، فقط ينظر إليك دون أدنى كلمة بينما عيناه تفارقهما الحياة أمامك دون أن تملك مساعدته، رأيت ذلك يحدث أمامي مع جنديين: سقط أحدهما أرضًا ونظر لصاحبه في صمت يعني الكثير، وقف الصديق للحظات ينظر بعيون باكية نحو صديقه الموشك على الموت، لحظات كانت كافية لكي تصيبه هو الآخر طلقات متتالية من الجانب الألماني ليفترش الأرض وكلٌّ منهما ينظر للآخر، جاءا من أرض بعيدة ليموتا على أرض غريبة، سمعت أحدهما يهمس للآخر قائلًا:

- لقد جئنا هنا سويًّا وها نحن سنرحل سويًّا.

واصلت السير ببطء وأنا أجرجر في قدميَّ مبتعدًا عن الصديقين اللذين اشتركا في رحلة نهاية واحدة، صوت نيران المدفعية الألمانية وصوت الأسلحة الرشاشة طغى على كل شيء، صوتهما وهما يتعاونان سويًّا لحصد أرواح فرقة رفاق سالفورد وغيرها من الفِرَق والكتائب التي جاءت لتحارب؛ لتجد نفسها أنها قد جاءت لتموت فقط، البعض كان منبطحًا على الأرض من حولي، والبعض الآخر كان متكورًا على نفسه أرضًا في وضع الجنين، بينما ينتحب بصوت يدمي القلوب، واصلت المشي وأنا أرى الجثث التي تتراكم بجواري وأمامي وخلفي، جثث في كل مكان تملأ الأرض على امتداد البصر، البعض منهم يلفظ أنفاسه الأخيرة وحيدًا دون أن يجد يدًا حانية تَرْبِتُ على شعره في لحظة النهاية، والبعض يصرخ من الألم وقد فَقَدَ ساقًا أو يدًا دون أن يستطيع أحد مدَّ يد المساعدة له، كانت القذائف الألمانية دقيقة في عملها، كان قد تم تقسيم أرض المعركة لمناطق، وكل ضابط ألماني مسئول عن منطقة معينة، بمجرد أن يجري الاتصال مع المدفعية تنطلق القذائف للمنطقة المسئول عنها ذلك الضابط، كل شيء تم إعداده بعناية بالغة لكي نموت وبأعداد كبيرة، كانت القذيفة الألمانية الواحدة تصيب العشرات في كل مرة، كنت أركض وأنا منحنٍ حتى لا تصيبني نيران القناصة الألمان، وبينما أنا على هذه الحالة سمعتها قبل أن تصل إليَّ، ذلك الصوت الذي يتعالى بالتدريج ليَصمَّ آذانك في النهاية قبل أن يحدث الانفجار، قذيفة ألمانية سقطت بالقرب مني لتطيح بي من مكاني وتقذفني لعدة أمتار في الهواء قبل أن أسقط أرضًا وكل عظمة من عظام جسدي تئنُّ من الألم، بينما ذلك الصفير المروِّع يدوِّي في أذنيَّ بلا توقف، ظللت لعدة دقائق في مكاني لا أقدر على سماع شيء أو الإحساس بجسدي نفسه، بعدها تفحصت جسدي بكلتا يديَّ لأجد أنني لم أُصَبْ بجروح، كنت وغدًا سعيد الحظ حقًّا ولكن لم يكن الآخرون بمثل حظي، كانت ملابسي مغطاة بدماء متناثرة من أشلاء الجنود الذين أصابتهم القذيفة، سمعت صرخات أحدهم بجواري، كان يصرخ بشدة بينما تلك الشظية الكبيرة اخترقت صدره، كان ينظر إلى تلك القطعة المعدنية البارزة من صدره ويصرخ ويبكي، كان غير مصدِّق أن تلك هي نهايته، عمره لا يتجاوز الثانية والعشرين تقريبًا، فتى أشقر الشعر أزرق العينين ضئيل الجسد، زحفت نحوه في صعوبة حتى وصلت إليه، لم أكن أعلم ما يمكنني فعله له، كنت فقط أنظر إليه بعيون ملتاعة صارخة دون أن أملك أي شيء لمساعدته، بمجرد أن لمست الشظية العالقة بصدره في محاولة خرقاء مني لنزعها؛ ازدادت صرخاته حتى غَطَّت على أصوات المعركة وكأنه يصرخ داخل عقلي، تركتها في سرعة بينما أنا أصرخ بدوري بلا صوت، كان فمي مفتوحًا وكأنني أصرخ ولكن بلا صوت، لم أكن أعلم ماذا يمكنني فعله لهذا المسكين، حينها فقط وجدت تلك اليد التي تشير لي لكي أذهب باتجاهها، لم يكن سوى كامل المصري الذي كان يشير لي لأذهب باتجاهه، كان مختبئًا وبقية المحاربين في أحد الحفر العملاقة التي خلفتها الانفجارات، بدون تفكير بدأت في الزحف نحوه بينما أَشُدُّ خلفي ذلك الجندي الذي يحتضر بين يديَّ، ظللت أزحف حتى وصلت إليهم، تلقَّفوا مني الجندي برفق، ذلك الجندي الذي أمسك بيدي بقوة وهو يقول من بين دموعه:

- أريد أمي، أنا لا أريد الموت، أريد رؤيتها الآن، أريدها معي، أَحْضِرْها لي الآن، أتوسل إليك.

كان يقول تلك الكلمات بينما الدماء تخرج من بين شفتيه مع كل كلمة، لم أستطع المقاومة أكثر من ذلك، انهمرت دموعي غزيرة للمرة الأولى منذ سنوات وأنا أصرخ فيمن حولي:

- فليُحْضِرها أحدهم له، إنه يريد أمه، أَحْضِروها له بسرعة أيها ...

لم أستطع إكمال كلماتي، كان صوته يتحشرج بينما الدماء تملأ فمه ببطء وعينيه تنظران لي في استجداء واضح دون أن أملك فعل أي شيء، كنت أراقب عينيه الزرقاوين بينما نور الحياة ينطفئ فيهما رويدًا رويدًا حتى مات المسكين بين ذراعيَّ، حينها تذكرت ذلك المشهد، المشهد الذي حوَّل حياتي إلى كابوس طويل من الفشل والإخفاقات والسقوط، المشهد الذي بدأت معه نهايتي، وجدتني بلا وعي أحتضن رأسه وأنا أصرخ باكيًا:

- سامحني يا ستيفن، سامحني يا صديقي، أنا مَنْ قتلتك، لم يكن ينبغي أن أجعل ذلك يحدث، أنا السبب فيما حدث لك، لم يكن ينبغي أن نخرج من السيارة، أنا مَنْ أمرت بذلك، سامحني يا صديقي، أنا من قتلتك.

كان المحاربون من حولي ينظرون لي في عدم فهم، لم يكن الجندي يُدْعَى ستيفن، لم يفهموا كلماتي، ولكن عندما نظرت إلى كامل وجدته ينظر لي في أسًى واضح، حينها شعرت بأنه يفهم ما لم يفهمه الباقون، للحظات تلاقت أعيننا بينما دموعي تنهمر في صمت، حاول الاقتراب مني ولكنني وجدت نفسي أدفعه في قوة بينما أنهض من مكاني وأنا ممسك بندقيتي وأبدأ في إطلاق الطلقات على أعدائنا قائلًا:

- يا لكم من أوغاد! لقد قتلتم رجالي أيها الداعرون، لقد قتلتم رجالي.

كنت أعلم أنني هدف سهل للقناصين ولنيران أسلحتهم الرشاشة ولكنني لم آبَهْ بذلك، واصلت إطلاق الطلقات لعدة ثوانٍ قبل أن يَشُدَّني كامل بقوة نحو الحفرة حتى لا أُصَاب، ولكنني وجَّهت له لكمة قوية في فكِّه قبل أن أنهض مرة أخرى وأطلق الرصاصات

وأنا أصرخ في غضب، بدأ المحاربون في التكالب عليَّ لمنعي من قتل نفسي بتلك الطريقة، حاولت دفعهم وأصابت لكماتي بعضًا منهم ولكن في النهاية كثرتهم غلبت قوتي، كنت راقدًا على الأرض محاولًا التملص من أيديهم بلا جدوى، حتى أمرهم كامل بتقييدي، كنت أسبُّهم بأفظع الشتائم حتى يتركوني، ولكنهم لم يتوقفوا عن تكبيل يداي وقدماي في سرعة وقوة دون أن يلتفتوا لما أقوله لأصبح في النهاية مكبَّل اليدين والقدمين، لحظات وبدأ دخان أبيض في الانتشار ببطء حولنا، اتسعت عينا كامل في ذعر قبل أن يصرخ بأعلى صوته:

- أقنعة الغاز، الكل يرتدي أقنعة الغاز.

لم تكن تلك السحابة البيضاء القاتلة سوى غاز الأعصاب، السلاح الكيماوي الذي جرى استخدامه في الحرب العالمية الأولى لأول مرة في التاريخ، بدأ الجميع في إخراج الأقنعة بحوزتهم لارتدائها بسرعة قبل أن يصل الغاز القاتل إليهم، كان يوجد معنا في تلك الحفرة العشرات من الجنود الذين لجأوا إليها للاحتماء من النيران والمدفعية الألمانية، بدأوا في ارتداء الأقنعة وكذلك فعل المحاربون، وبمجرد أن ارتدى كامل قناعه اقترب مني بخطوات سريعة ليقوم بتثبيت القناع على وجهي، وبعدما فعل ذلك نهض من مكانه وصاح في المحاربين آمرًا:

- يوجد الكثير من المصابين، احرصوا على ارتدائهم الأقنعة بشكل صحيح.

على الفور قام المحاربون من أماكنهم رغم الانفجارات التي تتوالى فوق رؤوسهم وبدأوا بتنفيذ ما قاله كامل لهم، ودون أن يأمر بقية الجنود بذلك بدأ الباقون في تنفيذ أمر كامل، كل جندي نهض من مكانه وبدأ في مساعدة الجرحى في ارتداء قناعه وأحكم غلقه، بينما سُحُب الدخان الأبيض تقترب منا في إصرار وكأنها مصمِّمة على القضاء علينا وتنفيذ هدفها التي صُنِعَت من أجله، كنت أتطلع لكامل بينما لا أسمع سوى صوت تنفسي الثقيل داخل القناع، أتطلع إليه وأنا أراه يركض هنا وهناك غير عابئ بالقصف الذي تمطرنا به أسلحة الألمان ويطمئن على كل جندي بنفسه وكأنه قائد عسكري على هؤلاء التعساء الذين أوقعتهم ظروفهم في أتون تلك الحرب اللعينة رغم أنه جندي مثلهم في المعركة، أتطلع إليه وأنا أتذكر حياتي السابقة، حياتي التي ضاعت مني في يوم من الأيام حينما خسرت كل شيء بسبب عجرفتي وغروري.

حينما بدأت سُحُب دخان الموت في إحاطتنا كان الجميع في تلك الحفرة قد انتهى من ارتداء الأقنعة، ولكن لم يكن الجميع بذلك القدر من الحظ السعيد، سرعان ما تناهت إلى أسماعنا صرخات الجنود الذين لم يجدوا الوقت الكافي لارتداء أقنعتهم، كانت أعراض التعرض لغاز الأعصاب حينها كما قرأت من قبلُ؛ هي العجز عن الرؤية والآلام الحادة في الحنجرة، كنا نرى الجنود يمشون في ميدان المعركة وهم يُغمضون أعينهم بينما يصرخون من الألم، كانوا كالعميان يمدون أيديهم أمامهم لعل أحدهم يساعدهم، ولكن قبل أن يحاول أي شخص مساعدتهم كانت الرشاشات الألمانية تنهي حياتهم في لحظات، مَنْ لم يمت بتلك الطريقة كانت أمامه أربع وعشرون ساعة من الموت البطيء، لم يكن هؤلاء الجنود يعلمون أنهم لو رجعوا إلى قواعدهم دون أن تصيبهم الطلقات الألمانية فإنهم سيموتون خلال ساعات غرقًا، نعم غرقًا، سوف تمتلئ رئتيهم بسوائل أجسادهم ليموتوا ببطء وهم يجاهدون لالتقاط أنفاسهم كمن يحاول الصعود على سطح المياه، أربع وعشرون ساعة من العذاب والألم واليأس والخوف والغرق.

بدأ كامل في تنظيم صفوف الجنود الأصحاء داخل تلك الحفرة العملاقة المتواجدين بها، كان يهدف لتوفير الحماية للجنود الذين ما زالوا في ميدان المعركة، وكذلك للجنود الذين يتم إلقاؤهم حرفيًّا في ميدان المعركة بواسطة القادة الذين لا يهمهم إلا النصر؛ لذا فقد تأكد كامل من تقسيم الجنود إلى مجموعات صغيرة بطول الحفرة التي يبلغ عمقها بضعة أمتار تحمينا من نيران الألمان، وبدأ بإصدار أوامره بإطلاق النيران على الجنود الألمان الذين يمطروننا بالأسلحة الرشاشة والبنادق، سأله مانويل المكسيكي:

- ولكن يا كامل إن بدأنا بإطلاق النيران عليهم سوف يعلمون مكاننا بدقة وسيمطروننا بنيران مدفعيتهم، حينها لن نستطيع النجاة.

طمأنه كامل قائلًا:

- لا تقلق، نحن قريبون منهم إلى الدرجة التي تمنعهم من استخدام مدفعيتهم علينا، إذا فعلوا ذلك فإنهم يخاطرون بإصابة جنودهم الموجودين بالقرب منا، يجب أن نحاول تخفيف كثافة نيران أسلحتهم حتى يصبح للباقين على أرض المعركة فرصة للنجاة من تلك المجزرة، وكذلك من أجل منحنا فرصة أفضل عندما نحاول الرجوع إلى خطوطنا الدفاعية، لن نستطيع الصمود إذا ظلت تلك الأسلحة الرشاشة تقوم بعملها وتقتل كل من يتحرك في الميدان، يجب أن نحاول يا مانويل.

نظر له مانويل في صمت وأومأ له بمعنى الموافقة قبل أن ينطلق في طريقه وينبطح أرضًا وهو يقوم بتلقيم بندقيته استعدادًا لأمر كامل بإطلاق النيران، تعجبت من أمر هذا الرجل، جميع الجنود يقومون بتنفيذ تعليماته رغم كونه جنديًّا مثلهم وليس ضابطًا، كانوا ينظرون له باحترام واضح، كأنهم يرونه هو أملهم الوحيد في العودة لخطوطهم والنجاة من تلك المجزرة البشعة التي تسبَّب فيها القادة البريطانيون الذين يقيمون في قصر منيف على بُعْدِ خمسة أميال من أرض المعركة ويصدرون أوامرهم من هناك، صِحْتُ مناديًا على كامل الذي التفت إليَّ فقلت له:

- هل ستظل مكبِّلًا إياي طوال اليوم؟

نظر إلى الحبل الذي يحيط بيديَّ قبل أن يسألني هو الآخر بعيون قلقة:

- هل ستظل أحمق طوال اليوم؟

نظرت له ولم أَرُد، ولكن شبح ابتسامة حزينة ارتسمت على وجهي جعلته يعرف إجابتي، اقترب مني كامل وبدأ في فك وثاقي وهو يقول لي:

- هؤلاء الجنود بحاجة إلينا يا هاريسون، إذا كنت لا تريد الحياة من أجل نفسك فافعل ذلك من أجل أن تمنحهم أملَ الرجوع مرة أخرى إلى عائلاتهم، صدقني هذا السبب وحده يكفي لكي تظل حيًّا.

كان كامل قد انتهى من فك الحبل الذي يكبل يداي وظل متطلعًا إليَّ في انتظار ردي، تطلعت إليه أنا الآخر للحظات بينما يدي تمتد لبندقيتي لأمسكها وأنا أقول له:

- إذن فلنرجعهم إلى بيوتهم.

ابتسم كامل ابتسامة صادقة طيبة قبل أن يربت على كتفي ويمسك بندقيته هو الآخر بقوة وينظر نظرة أخيرة إلى الجنود قبل أن يشير بيده لإحدى المجموعات لتبدأ عملها، بدأ الجنود في تنفيذ ما أمرهم به، بدأوا في إلقاء القنابل التي يحملونها بأقصى قوة يستطيعونها نحو الخنادق الألمانية، بعض من تلك القنابل وصلت بالفعل وبدأت في الانفجار بقوة، كان الهدف من ذلك هو تشتيت انتباه الألمان وجعلهم يتوقفون عن استخدام الأسلحة الرشاشة لثوانٍ كانت تلزمنا لتنفيذ الجزء الآخر من المهمة، بمجرد أن بدأ الارتباك يدبُّ في صفوف الألمان بدأنا نحن في الصعود بحذر حتى وصلنا إلى قمة الحفرة، وبدأنا في اقتناص الجنود الألمان خاصة الجنود المسئولين عن الأسلحة الرشاشة، كانت طلقاتنا تنطلق في سرعة ودقة حتى لا نمنح الألمان فرصة لترتيب صفوفهم، بَدَا وكأن خطة كامل تؤتي ثمارها، كان الجنود الألمان المواجهين لنا يسقطون صرعى الواحد تلو الآخر بنيران بنادقنا، بينما ظلت المجموعة الأولى تواصل إلقاء قنابلها التي جمعتها من القتلى والجرحى وبقية الجنود، حتى نحافظ على تلك الحالة من الارتباك بين صفوف الجنود الألمان، وفي نفس الوقت أمر كامل بتعبئة الكثير من أجولة الرمال الفارغة التي كانت بحوزة الجنود، حيث كان من ضمن العتاد الذي يحمله الجنود في تلك المعركة أربعة أجولة فارغة، كان يقوم بتعبئة الأجولة بالرمال ومعه عدد من الجنود الذين سارعوا بمساعدته، ثم قام بوضعها على قمة الحفرة حتى يتسنى لنا الاحتماء خلفها من طلقات القوات الألمانية، بمرور الوقت بدأت شدة وكثافة النيران الألمانية تقلُّ تدريجيًّا على المنطقة التي نوجد بها، كان الألمان يئنُّون للمرة الأولى منذ بداية اليوم تحت ضغط نيراننا، نظرت حولي لأرى مشهدًا أعلم أنني لن أنساه بسهولة، نظرات التصميم على وجوه الجنود الذين يطلقون نيرانهم وثبات بقية محاربي الزمن في تلك اللحظة العصيبة، كان مانويل وليوناردو يقومان بإمداد الجنود أولًا بأول بالذخيرة لإكمال معركتهم، بينما سليم وتوماس يقومان بقنص الجنود الألمان بدقة كبيرة، وكامل - وسط كل مشاهد الحرب والدمار - كان يشجِّع الجنود المقاتلين ويعتني بالجرحى ويقوم بتغيير ضماداتهم، للحظات توقفت عن القتال وظللت أتطلع إلى ذلك المشهد، كان محقًّا حين قال: إنني أحمق، لقد كنت أحمق بالفعل حينما كنت فظًّا ومتعجرفًا مع تلك المجموعة من المقاتلين، كنت أحمق حينما ظننت أنني لا أحتاجهم ولا أريدهم، ربما تحيا عمرك بأكمله وأنت تتمنى أن تجد شخصًا واحدًا مثلهم وقد كانت أمامي تلك المجموعة طوال الوقت ولم ألتفت إليهم، حاولت بشتى الطرق أن يكرهوني ونجحت في ذلك بشدة، ورغم كرههم ومقتهم لي فلم يمنعهم ذلك من إنقاذي حينما انهرت في الصباح، لقد كنت بالفعل أحمق، ولكن ليس بعد الآن، هم يستحقون أفضل من ذلك مني، يستحقون أن أتذكر هاريسون عندما كان يحظى باحترام الجميع قبل أن يهوي في بئر القمار والخمور والديون والفشل والإحباط واليأس بعد تلك الحادثة التي دمرت حياته وحياة مَنْ أحبَّ.

استمر القتال لعدة ساعات، وامتزج كل شيء في آذاننا وعقولنا، ولكنها كانت معركة غير متكافئة بين جيش ألماني خاض العديد من المعارك وجيش بريطاني من المتطوعين الذين يخوضون في هذه المعارك أول يوم في حياتهم، بين جيش قام بتجهيز نفسه جيدًا لتلك المعركة لمدة عامين وجيش آخر تم - حرفيًّا - إلقاؤه في ميدان المعركة بعد تدريب قصير وغير كافٍ ليموت المئات والآلاف في اليوم الأول دون أي وسيلة تعينهم على البقاء والصمود، ولكن بعد ساعات طويلة من القتال والخسائر والموت والدفاع عن أنفسنا والاستبسال والصمود في أماكننا كانت النتيجة المؤسفة تعلن عن نفسها بوضوح، نحن لا نتقدم على الإطلاق، معظم القوات البريطانية التي أُلْقِيَت في ميدان المعركة لم تستطع الوصول إلى الجانب الألماني أو تحقيق مكاسب على الأرض؛ لذا فقد قرر القادة في منتصف ذلك اليوم أنه لا مفر من الانسحاب في محاولة يائسة لتقليل الخسائر المهولة في الأرواح، جاءت الأوامر لنا بالانسحاب بعدما خسرت فرقتنا ثلثي أعضائها ما بين قتيل وجريح، ولكن المشكلة أننا كنا بعيدين عن الخطوط البريطانية، كنا نستطيع رؤية ملامح الجنود الألمان من موقعنا لقربنا منهم، بمعنى أننا لكي نرجع للجانب البريطاني مرة أخرى كان يجب علينا المشي أو الركض لعدة مئات من الأمتار تحت وابل لا ينقطع من الأسلحة الرشاشة الألمانية القريبة والمتعطشة للقضاء علينا، وحتى لو نجح الأصحَّاء في الركض والرجوع إلى الجانب البريطاني، فكيف سيتم إجلاء الجرحى وهم غير قادرين على المشي أو حتى الزحف؟! حينها بدأت الوجوه تتجه صوب كامل الذي وجد الجميع ينظرون إليه وكأنه أصبح قائدهم بالفعل، وأنه الآن مسئول عن إرجاعهم سالمين إلى ديارهم، كنت أرى الرجاء في عيون الجرحى التي تنظر نحوه، بينما هو يتلفَّت حوله ليجد الجميع ينظر إليه وحده دون غيره، حينها أشفقت عليه من هذا الموقف الذي وجد نفسه فيه دون رغبة منه، كانت آمال الجرحى وبقية الجنود متعلقة بما سيقوله، كان في موقف لا يُحْسَدُ عليه بعدما أصبح قائدًا رغم أنفه، اقتربت منه وجلست بجواره وهو يضم ساقيه بين ذراعيه بينما يرمق الرمال في صمت، نظر نحوي بعيون متوترة وكأنه يستغيث بي، وضعت يدي على كتفه وقلت له في رفق:

- أعلم أنك في موقف صعب ولكنك قلتَ لي في الصباح: إننا سوف نقوم بإرجاع هؤلاء الجنود إلى عائلاتهم وأطفالهم، رغبتك الصادقة في مساعدة هؤلاء الرجال جعلتني أكنُّ لك الاحترام، ورغبتك الصادقة في مساعدتي رغم فظاظتي السابقة معك جعلتني أكِنُّ لك الحب، أنا على يقين يا كامل أنك ستلتزم بذلك الوعد، سوف ترجعهم إلى من يستحقون رؤيتهم أحياءً، أنا أثق بك يا صديقي المصري.

ابتسم في حزن ونظر مرة أخرى للجنود الذين كانوا ينظرون إليه في صمت، اقترب بقية المحاربين من مكاننا، بينما بدأ مانويل الحديث قائلًا:

- كامل، الجميع في انتظار أوامرك، ماذا تريدنا أن نفعل؟

نظر الأخير لي فابتسمت له ابتسامة مشجِّعة بينما يدي تَرْبِتُ على كتفه، وقلت له:

- جميعنا في انتظار أوامرك أيها ... أيها القائد، ماذا تريدنا أن نفعل؟

أخذ كامل نَفَسًا عميقًا وأغمض عينيه للحظات واستغرق في تفكير عميق، لم يقاطعه أيٌّ منا حتى بدأ حديثه قائلًا:

- مانويل، أريدك أن تجمع كل الأسلحة التي ما زالت بحوزتنا.

انطلق مانويل في سرعة لتنفيذ ما طلبه كامل الذي استدار لي قائلًا بلهجة آمرة:

- وأنت يا هاريسون، أريدك أن تجمع كل الحبال الموجودة مع الجنود، وكذلك أجولة الرمال الفارغة المتبقية، جميعها يا هاريسون.

انطلقت أنا الآخر في طريقي لجمع الحبال والأجولة الفارغة رغم عدم علمي لسبب طلبهم بواسطة كامل، ولكنني قررت الثقة به وبقراراته، أعلم في داخلي أنه يستحق الثقة به، لم يمضِ كثير من الوقت حتى جمعنا كل ما طلبه كامل وتحلَّق الرجال حوله ليعلموا ما يدور في ذهنه، قال لنا الأخير وهو ينظر لنا جميعًا:

- سوف نقوم بملء بقية الأجولة الفارغة بالرمال لبناء حائط يمنع الجنود الألمان من رؤيتنا عندما نبدأ الانسحاب.

قاطعه سليم متسائلًا:

- ولكننا إن بدأنا بوضع الأجولة أمام أعين الألمان فسيبدأون بإطلاق النار علينا.

أجابه في حماس:

- هنا يأتي دور الأسلحة التي تبقت معنا، إننا لم نستعمل أيًّا من قنابل الدخان التي بحوزتنا حتى الآن، سوف نبدأ في إطلاقها تباعًا حتى نستطيع بناء ذلك الحائط بحذر ولكن في سرعة، الألمان لن يخاطروا بقذفنا بالمدفعية لقرب موقعنا من موقع جنودهم مما يعني أنهم سيضطرون لاستخدام الأسلحة الرشاشة، وهي على الرغم من كونها سريعة الطلقات ولكنها غير دقيقة على الإطلاق، معظم طلقاتهم ستصطدم بالحائط الرملي الذي سيغطي انسحابنا، وبفضل قنابل الدخان التي سنطلقها لن يعلموا أن ذلك الحائط موجود مما يعني أنهم لن يركزوا أسلحتهم نحو الحائط لتدميره، سيقومون بإطلاق نار عشوائي مما سيحسّن من فرص نجاتنا عند بدء الانسحاب.

هنا سأله توماس:

- ماذا عن الجرحى؟ كيف سنقوم بإخلائهم؟

رد عليه كامل قائلًا:

- هنا سيأتي دور الحبال التي طلبتها، سوف نزحف رجوعًا إلى خطوطنا ولكن لوجود مصابين معنا فسوف يقوم كل فرد غير مصاب بربط حبل حول خصره مربوط حول خصر أحد المصابين، أعلم أن ذلك عسير ومرهق، سوف نزحف تحت النيران ووسط الأسلاك الشائكة وأنت تجرُّ خلفك جنديًّا آخر ولكنها الطريقة الوحيدة لكي نرجع جميعنا.

صمت الجميع وأخذ كل منا يتطلع في وجه الآخرين، كانت خطة خطيرة ولكنها الطريقة الوحيدة لكي نرجع بالمصابين إلى جانبنا، قطع صمتنا صوت توماس وهو يقول ساخرًا:

- على أي حال لا يوجد أفضل من هاريسون لجرِّ الجرحى، لقد سمعت أن البغال الأسترالية هي الأفضل.

نظر كامل ناحيتي بقلق من رد فعلي ولكنه فوجئ بردِّي على توماس بطريقته الساخرة:

- ولكنها لا تضاهي الأبقار الهولندية في ذلك.

تطلَّع بقية المحاربين إلينا لثوانٍ قبل أن تنطلق ضحكاتهم بقوة لتملأ أرجاء المكان، نظرت إلى توماس الذي ابتسم في صمت قبل أن يمدَّ يده لي مصافحًا إياي في مودَّة قائلًا:

- لقد نِلْتَ مني، أعترف لك بذلك، أهلًا بك في صفوف المحاربين يا صديقي.

ألقيت نظرة على يده الممدودة لي ثم رفعت يدي لأصافحه أنا الآخر وعلى وجهي ابتسامة لم أكن أظن أنها ستخرج مني خاصةً لتوماس، ابتسامة صافية تلقائية نسيت أنني يمكنني رسمها على وجهي لأحد، شرعنا في تنفيذ خطة كامل، وبدأنا في ملء الأجولة بالرمال حتى انتهينا من ذلك في وقت قصير، ثم بدأنا في إلقاء قنابل الدخان الواحدة تلو الأخرى كل بضعة دقائق حتى لا يرى الألمان ما ننوي فعله، وبينما كان البعض يلقي القنابل كانت بقيتنا تقوم برصّ الأجولة فوق بعضها البعض في سرعة، أحيانًا كانت تنطلق ناحيتنا بعض الطلقات العشوائية ولكن لكي أكون صادقًا فإن توماس كان قنَّاصًا بالفطرة؛ فرغم سحب الدخان الأبيض كانت طلقاته تصيب الجنود الألمان بدقة عالية في منتصف جبهاتهم وكأنه وُلِدَ فقط من أجل هذا اليوم وهذه المهمة، أكملنا عملنا حتى انتهينا من ذلك، قام بعد ذلك كل جندي بربط أحد الجرحى به وقبل أن يبدأوا الزحف قال لهم كامل أن يقوموا بالزحف من حفرة إلى أخرى للاحتماء من نيران الألمان حتى يصلوا إلى الجانب البريطاني بسلام، بينما أمرني وبقية المحاربين بالبقاء حتى نغطي انسحاب هؤلاء الجنود، كانت مهمة سليم وتوماس قَنْصَ الجنود الألمان المسئولين عن إطلاق الأسلحة الرشاشة، وفي نفس الوقت لإيهام الألمان أننا ما زلنا نقاتل ولم ننسحب، بينما نواصل أنا وكامل إطلاق قنابل الدخان لتغطية المكان بسحابة متواصلة من الدخان الأبيض، وكلٌّ من مانويل وليوناردو واصلوا إلقاء ما تبقى من القنابل اليدوية لإجبار الألمان على الاختباء، بعد ساعة تقريبًا كان قد وصل جميع الجنود إلى الجانب البريطاني دون أن يصاب أحد منهم بأذى، بَدَا الارتياح على وجه كامل الذي شعرت حينها وكأنه قبطان سفينة غارقة لم يغادرها إلا بعد الاطمئنان على جميع الركاب، كان مرتاحًا لنجاتهم رغم أن الخطر ما زال يحدِّق في عينيه بنظرات ثابتة يتحين الفرصة للنَّيْل ممن أفقده تلك المجموعة من الضحايا الجدد، كان يستحق أن أحترمه، كان أفضل مَنْ عرفت بعد فترة طويلة من مصادقة السكارى والقوَّادين وتجار المخدرات والفاشلين والمدمنين والمرتزقة، بدأنا نحن أيضًا في الانسحاب بسرعة، أطلقنا آخر قنابل الدخان التي كانت بحوزتنا، وبدأنا في الزحف سريعًا قبل أن تنقشع سُحُب الدخان الأخيرة، كنا نريد أن نبتعد قدر الإمكان عن الخطوط الألمانية دون أن يرونا، كان ميدان المعركة كقطعة من الجحيم، الحرائق الناجمة عن آلاف القذائف تملأ المكان بلونها الناري المميز، وتلفحنا بحرارتها القاتلة التي جعلت الأسلاك الشائكة المبعثرة تتلون بلون برتقالي من شدة النيران، كانت تلك الأسلاك الملتهبة تحرق ستراتنا عشرات المرات كل دقيقة تمضي علينا في هذا الجحيم، كانت رائحة اللحم المحترق تزكم أنوفنا، بينما نتنقل من حفرة إلى أخرى حتى نتجنب الأعيرة الألمانية الطائشة، عبرنا فوق جثث وأشلاء المئات من الجنود الذين لقوا حتفهم في اليوم الأول للمعركة، لا أعلم كم من الوقت مَرَّ علينا ونحن نزحف تحت وطأة النيران التي تحاصرنا من كل جانب، نيران الحرائق والمدفعية والرصاصات التي تتطاير فوق رؤوسنا، رُسُل الموت المعدنية، ولكننا في النهاية وصلنا إلى الجانب البريطاني، وصلنا لنجدة الجنود الذين كانوا معنا في تلك الحفرة ينتظروننا بقلق ولهفة بَدَتْ على وجوه الجميع، حتى المصابين منهم كانوا في انتظارنا على النقَّالات التي ستنقلهم لتلقِّي العلاج، بمجرد أن وصلنا تعالت صيحات الجنود الذين قاموا بمعانقتنا بحرارة والابتسامات تعلو وجوههم المغبرَّة البائسة، ثم حدث المشهد الذي لن أنساه ما حييت، نهض أحد الجنود الجرحى وهو يتكئ على أحد زملائه وواجه كامل، وقال بتأثر وهو يُخْرِج بيده المرتعشة صورة لطفل رضيع من جيب سترته العسكرية:

- هل تعلم مَنْ هذا يا سيدي؟

نظر له كامل وعلى وجهه علامات التساؤل، يقول الجندي - والدموع تتجمع في عينيه -:

- إنه طفلي إدوارد يا سيدي، لقد وُلِدَ قبل مجيئي هنا ببضعة أسابيع، حينما أصِبْتُ في تلك الحفرة كنت موقنًا أنني لن أراه مرة أخرى، كنت موقنًا أنني لن أشاهده وهو يكبر أمامي طفلًا ثم صبيًّا ثم شابًّا يافعًا، كنت موقنًا أنني لن أرجع إليه وأحتضنه، ولكن بفضلك أنت يا سيدي سوف أرجع له وأقبّله كما لم أفعل من قبلُ، شكرًا لك يا سيدي، شكرًا لك، أنا مَدِين لك بحياتي، لقد أرجعتنا سالمين إلى عائلاتنا وأحبَّائنا، أنت مَنْ فعلت ذلك يا سيدي.

نظرتُ إلى كامل باحترام بالغ، كامل الذي ألجمته كلمات الجندي فَصَمَتَ ولكنه صمتٌ يعني كل شيء، كان يحاول العثور على كلمات مناسبة ولكنه لم ينطق بأي حرف، حينها أكمل الجندي حديثه قائلًا:

- أعلم أنك جندي مثلنا يا سيدي، ولكنك تستحق أن أفعل ذلك لك.

وبمجرد أن أنهى كلماته وجدت ذلك الجندي يرفع يده مؤديًا التحية العسكرية لكامل، تلك التحية التي لا تؤدَّى إلا للضباط والقادة فقط، رفع يده لأفاجأ بباقي الجنود يرفعون أيديهم بالتحية العسكرية هم أيضًا وهم ينظرون لكامل في صمت، عندما رأيت ذلك المشهد لم أتمالك نفسي، لقد مر وقت طويل منذ أن شعرت بمثل هذا الاحترام لأحدهم من قبل، لم أشعر إلا وأنا أحذو حذوهم وأؤدي التحية العسكرية لكامل، وكذلك فعل بقية محاربي الزمن، تطلَّع كامل إلينا دون أن ينبس ببنت شفة وعينيه تدمعان في تأثر بالغ، ببطء رفع يده مؤديًا التحية العسكرية قبل أن يخفض يده ويحتضن الجندي المصاب، وهو يقول له من بين دموعه:

- أنا من أشكرك يا صديقي على أنك جعلتني أشعر بما يعتمل في صدري الآن من فخر وشرف، شكرًا لك.

ثم مسح دموعه وهو يحاول رسم ابتسامة على شفتيه قبل أن يضيف:

- والآن فلتأخذوا هذا الرجل للمستشفى الميداني في الحال، لديه طفل سوف يرجع إليه قريبًا.

▪ ▪ ▪

بعد يوم طويل من المعارك والتوتر والقلق والخطر كنت بحاجة ماسَّة إلى الراحة، ألقيت نفسي أرضًا واستندت على أحد الأشجار في تهالك، أغمضت عيني لدقائق قبل أن أعاود فتحهما بعد بضع دقائق إثر سماعي صوت كامل الهادئ وهو يسألني:

- هل يزعجك أن أنضمَّ إليك؟

ارتسمت على وجهي شبح ابتسامة متعبة بمعنى أنني لا أمانع، جلس بجواري وناولني علبة معدنية من عصير الفاكهة، أومأت برأسي بمعنى الشكر له ولم أعلق، ظللنا صامتين لبعض الوقت ربما بسبب الإرهاق أو ربما الحزن على ما اضطررنا لخوضه اليوم، وبينما نحن على هذه الحال مرَّ ذلك الطابور من الجنود أمامنا، كانت مجموعة يصل عددها إلى حوالي الخمسين جنديًّا ممن أصيبوا بغاز الأعصاب، لم يكن التكهُّن بذلك صعبًا، كانوا يضعون الضمادات البيضاء على عيونهم، وكل فرد فيهم يضع يده على كتف الجندي الموجود أمامه ويمشون بحذرٍ وتثاقل، مجموعة من العميان الذين أصابهم العمى بسبب الأسلحة الكيميائية، وقريبًا سيصيبهم الموت، ظللنا نتطلع في أسًى لتلك المجموعة البائسة من الجنود حتى تواروا عن أعيننا، تنهدت في أسى وملأت صدري بالهواء البارد المختلط برائحة البارود والموت قبل أن أقول:

- لقد جعلتني الحرب أخسر كل شيء كان مهمًّا في يوم من أيام حياتي، جعلتني أخسر عائلتي وأصدقائي وعملي، جعلتني أخسر نفسي يا صديقي، هل تعلم أنني عندما أنظر إلى وجهي في المرآة تنتابني قشعريرة وشعور بالصدمة لما آل إليه حالي؟ أشعر وكأن مَنْ أراه شخصًا غريبًا تمامًا عني، منذ بضع سنوات كنت أنظر للمرآة وأبتسم لانعكاسي وأقبّله، كنت فخورًا بنفسي وبحياتي، كان يدخل ابني الصغير معي الحمَّام حتى نغسل أسناننا معًا، ثم آخذه إلى فراشه وأقرأ له قصة قبل النوم قبل أن أخلد بجوار زوجتي الجميلة، أحيانًا أتذكر تلك الأيام وكأنها حلم جميل مرَّ على حياتي بسرعة قبل أن ينتهي للأبد، أتذكر تلك الأيام وأنا أتطلع لذلك الوجه الغريب عني في المرآة كل صباح ومساء الآن، أنظر إلى عينيه الباردتين برود الموتى وأتعجب أين ذهبت تلك العيون الراضية الفَرِحة الدافئة التي كانت يومًا تميزني عمن سواي، الآن لا أرى إلا الحسرة والمرارة والندم.

بَدَا التردد على كامل وكأنه يفكر مليًّا قبل أن يسألني ذلك السؤال الذي تكهَّنت به قبل أن يسألني إياه، ولكنه سألني بعد تفكير:

- أعلم أنني لا يحق لي سؤالك، ولكن ماذا حدث لتتغير حياتك بتلك القسوة من النقيض للنقيض؟

نظرت إلى الأرض قبل أن أبدأ قصتي.

- لقد بدأ كل شيء في أفغانستان، أو ربما يجدر أن أقول: انتهى كل شيء هناك، كنت حينها ضابطًا في وحدة العمليات الخاصة الأسترالية، نخبة مقاتلي الجيش الأسترالي، كان شعارنا seicA atucA، معناها الحد القاطع، أفضل الأفضل في العسكرية، كانت مهمتنا تدريب قوات الشرطة الأفغانية على القتال، انطلقنا في ذلك اليوم من قاعدتنا متجهين نحو قاعدة التدريب لبدء يوم جديد من العمل، كان مجرد يوم آخر من العمل، كان معي أربعة من رفاقي، كنت أعرفهم منذ سنوات طويلة وقاتلنا أكثر من مرة بجوار بعضنا البعض، كنا كالأشقاء لا نفترق أبدًا، كنا منطلقين في طريقنا لقاعدة التدريب بينما نطلق النكات ونمزح، حينها انطلقت تلك القذيفة من العدم في اتجاهنا لتصيب سيارتنا في المؤخرة وتفقدنا توازننا، أصيب أحد رفاقي خلال ذلك الهجوم ولكنها لم تكن إصابة خطيرة، حينها رأيت ذلك الفتى الذي هاجمنا، كان يركض هربًا من المكان عندما تلاقت أعيننا للحظات قبل أن يكمل ركضه، كنت في قمة غضبي حينها؛ لذا أمرت الرفاق بالترجُّل من السيارة ومطاردة المهاجم، قال لي ستيفن بأن أوامرنا لا تقتضي الاشتباك مع الأعداء، بل تقتصر على التدريب فقط، كان يحاول إثنائي عن قراري ولكنني كنت هائجًا، وكنت الضابط الأعلى في المركبة، وكان لزامًا عليهم إطاعة أوامري، ترجَّلنا من السيارة في سرعة وبدأنا في مطاردة ذلك الفتى في تلك المنطقة الجبلية، لم أكن أفكر في أي شيء سوى الفتك به عندما يقع في قبضتنا، ولكن لم أعلم أنه كمين أُعِدَّ لنا بعناية إلا في وقت متأخر، بعد بضع دقائق من الركض اختفى عن أعيننا لتبدأ المجزرة، عشرات الطلقات انطلقت في طريقها إلينا لتبدأ بإصابتنا الواحد تلو الآخر، حاولنا الاحتماء في الصخور ولكن المهاجمين كانوا قد أحاطونا بالكامل دون أن نملك فرصة للتراجع، بدأ رفاقي في السقوط واحدًا تلو الآخر أمام ناظريَّ دون أن أملك وسيلة لمساعدتهم، رأيتهم يسقطون مضرَّجين في دمائهم بسبب أمر خاطئ مني اتخذته في لحظة غضب، رأيتهم يموتون أمامي بسبب حماقتي وعجرفتي، كان آخر من سقط هو ستيفن أقرب أصدقائي، ستيفن الذي كان يودُّ الرجوع لعائلته قبل الكريسماس لكي يحتفل معهم، هو الآن غارق في دمائه وينظر لي تلك النظرة التي لن أنساها حتى آخر يوم في عمري، نظرة لَوْم صامتة على ما حدث، لم يعاتبني بالكلمات وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ولكن نظراته لي كانت تقتلني وتنهش لحمي آلاف المرات كل لحظة، بعدها عاجلتني ضربة على مؤخرة رأسي أفقدتني وعيي، ظللت أسيرًا لديهم لشهور قبل أن يقايضونني في النهاية بأحد زعمائهم الذي كان في قبضة قوات التحالف الدولي، رجعت إلى أستراليا مرة أخرى لأُحاكَمَ عسكريًّا، ويتم صرفي من الخدمة بطريقة غير مشرفة لتسببي في مقتل رفاقي، رجعت إلى أستراليا ولكنني كنت شخصًا آخر، كان هاريسون القديم ما زال في ذلك الكهف الجبلي الذي احتجزوه فيه لأشهر، لم يرجع ذلك الشخص بل رجع مكانه من تراه أمامك الآن، شخص سكّير مقامر يرى نظرات الاحتقار في عيون مَنْ حوله ولا يستاء منها ربما لأنه يستحقها، أهملت عائلتي وولديَّ وأدمنت الخمر، كل ليلة كنت أغمض عينيَّ في الليل لأرى نظرة ستيفن اللائمة وهو مضرَّج في دمائه لأستيقظ مفزوعًا باكيًا، وأملأ جوفي بالخمر لعلني أنسى نظرته الصامتة، ولكن كل خمور العالم لم تفلح في ذلك، في النهاية لم يكن مُسْتَغْرَبًا أن تطلب زوجتي الطلاق وترحل عن المنزل بصحبة ابني وابنتي، لم تعد تطيق الرجل الذي عاد من أفغانستان، لم تعد تطيق سكره الدائم ومعاركه المستمرة وعصبيته الشديدة مع الجيران لأتفه الأسباب، رَحَلَتْ ولم أَلُمْهَا على ذلك، أصبحت وحيدًا مطرودًا من جيشي وعائلتي، تراكمت الفواتير عليَّ وبدأت بالمقامرة حتى تراكمت ديونها هي الأخرى، تحولت من مقاتل محترم في وحدة النخبة إلى بلطجي يتم تأجيره ببضعة دولارات لتلقين درس لهذا أو ذاك ليشتري بهم زجاجة خمر رديئة تجعله يغيب عن العالم الذي فقد فيه كل ما يملك، في النهاية تحولت إلى ما تراه الآن، هذه هي قصتي يا صديقي.

ثم نظرت نحو كامل الذي ظل صامتًا قبل أن أكمل حديثي:

- لا أعلم لماذا أخبرتك بكل هذا، ربما لأنك تذكّرني به، تذكرني بستيفن الهادئ الطيب، ربما لهذا كرهتك منذ رأيتك في غرفة المحاربين للمرة الأولى؛ لأنك ذكرتني بالندم الذي يأكلني من داخلي منذ مات ستيفن وبقية رفاقي في ذلك اليوم المشئوم.

أطرق كامل مفكّرًا لبعض الوقت قبل أن يسألني في تعجب:

- دعني أفهم ذلك جيدًا، أنت اتخذت قرارًا خاطئًا في لحظة ما من حياتك، ومنذ ذلك الحين أنت تقوم بالتكفير عن ذلك الخطأ عن طريق ارتكاب المزيد من الأخطاء وتدمير بقية حياتك! هل تعتقد أن ما تفعله سيريح رفاقك في قبورهم؛ أن تجعل موتهم يذهب سدًى؟ هل تعتقد أنهم سيسعدون لو علموا أنك فقدت كل شيء مهم في حياتك من أجل التكفير عن ذلك الخطأ؟

سألته قائلًا:

- ماذا تقصد بكلامك هذا؟

نظر لي في ثبات قبل أن يردَّ:

- أقصد أنه كان من الأفضل أن تتعلم من ذلك الخطأ، تتعلم أن تتخذ القرارات الصائبة من أجل من تحب، أن تسعى لحمايتهم وغَمْرِهم بالحب الذي يستحقونه، أن تقوم بتكريم موت رفاقك بطريقة تمنحهم الراحة وتمنحك الفخر، هل تظن أنك ظللت على قيد الحياة عن طريق المصادفة؟ أعتقد أنك ظللت حيًّا لأن الله أراد أن يعطيك فرصة للتكفير عن خطئك بأن تفعل ما هو صائب وخيِّر لا أن تقوم بتدمير نفسك ومن حولك، هاريسون، إننا بشر وطبيعي أن نخطئ، لقد خُلِقنا وبداخلنا الشر ولكن بداخلنا الخير أيضًا، الخير الذي يجب أن يرشدنا للصواب، يمكنك أن تبكي ما شئت وأن تُدمِّر حياتك كيفما شئت، ولكن كل ذلك لن يعيد رفاقك للحياة، لن يمنح عائلاتهم الراحة، ولكن ما سيصنع الفارق هو أن تصبح حياتك وحياة مَنْ حولك أفضل بسبب تلك التجربة المؤلمة، على الأقل عائلتك تستحق منك ذلك، أنت أخطأت ودفعت ثمن خطئك، ولكن عائلتك ما الخطأ الذي ارتكبته لكي تقوم بتدمير حياتهم من أجله؟

حاولت الإجابة على سؤاله ولكنني لم أجد ما يمكنني قوله، فقط غمغمت في حزن:

- لقد فات أوان ذلك يا كامل، أنا لا أستحق فرصة أخرى، لقد انتهى كل شيء.

وضع يده على كتفي قبل أن يقول في رفق:

- كل منا يستحق فرصة أخرى يا صديقي، كل منا يستحقها.

في تلك اللحظة أبصرنا بقية المحاربين وهم في طريقهم إلينا، افترشوا الأرض مثلنا قبل أن أجد توماس يناولني طبقًا من الطعام وهو يقول مازحًا:

- تفضَّل، حتى تعلم أن الأبقار الهولندية متسامحة وطيبة.

ابتسمت وأنا أرد عليه قائلًا:

- وكذلك هي البغال الأسترالية، شكرًا يا توماس.

كانت المرة الأولى منذ سنوات التي أتناول فيها الطعام مع أشخاص آخرين، أشخاص استطاعوا اكتساب احترامي وتقديري لهم، تناولنا طعامنا وظللنا نتحدث لساعات في كل شيء، كانت كل لحظة تمر وأنا بينهم أشعر وكأنني أَقْتَرِب منهم شيئًا فشيئًا، الجميع فتح قلبه وتحدث بحرّية وهو يعلم أنه يتحدث مع إخوته وأصدقائه، حزنت على مرض سليم وكذلك ابن مانويل، استمعت لتوماس وهو يتحدث عن رحلاته ومغامراته حول العالم، أنصتُّ لكامل وهو يحكي أحلامه وآماله للمستقبل، وفرحت لعودة علاقة ليوناردو بأبيه كما كانت من قبل بل ربما أقوى، كنت أتعرف عليهم للمرة الأولى وكأنني أراهم لأول مرة، أنا كذلك تحدثت عني وعما مر بحياتي من قبل، تحدثت عن ذكرياتي الحزينة في أفغانستان وما مر بي بعدها، كنت أتحدث وأرى الاهتمام في عيونهم، كانت المرة الأولى منذ زمن طويل لا أرى نظرات احتقار أو خوف في عيون من ينظر لي، بل أرى نظرات إخوة يشفقون على ما حدث لأخيهم ويريدون مساعدته حقًّا دون مقابل، في تلك الليلة تشاركنا طعامنا وشرابنا وأحلامنا وطموحاتنا ومخاوفنا وإحباطاتنا وأمنياتنا وذكرياتنا، كانت المرة الأولى منذ زمن بعيد يتم التعامل معي على أنني إنسان بعدما نسيت أنني كذلك.

كانت مجموعة رائعة من البشر تجمعت هنا في هذا المكان دون تخطيط منهم، كل فرد منهم من قارة وثقافة ودولة مختلفة، ولكن بطريقة خاصة جميعهم يكملون بعضهم البعض ليصنعوا ذلك الفريق الرائع المتكامل من المحاربين، ربما لم يكن كامل مخطئًا حين قال: إن كلًّا منا يستحق فرصة أخرى، ربما وجودي هنا معهم ومقابلتي إياهم هي فرصتي الأخرى، ربما.

▪ ▪ ▪

تلك هي فرصتك

فتحت عيناي للمرة الخامسة لأجد تلك القاعة التي نسافر منها في عالم المعارك والحروب والفرص الثانية، وبمجرد أن استعدت وعيي بدأ الطاقم الطبي في عملهم الروتيني الذي تعودت عليه الآن، الاطمئنان على المؤشرات الحيوية الخاصة بي وببقية المحاربين، كنت مستلقيًا على الفراش واضعًا يدي تحت رأسي وأنا أنظر لبقية المحاربين الذين استعادوا وعيهم بدورهم، حانت من كامل التفاتة نحوي لأجد على وجهه ابتسامة صافية دافئة لي، ابتسامة لم يبتسمها أحد لي منذ زمن، ابتسمت بدوري وأنا أشعر بالرضا الذي افتقدته قبل الآن، وأنا أشعر بأنني استعدت هاريسون الذي ظل أسيرًا لفترة طويلة داخل ذلك الكهف الجبلي، أسيرًا لفترة أطول مما ينبغي، كان شعوري غريبًا، غريبًا لأنني كنت أبدأ في استعادة احترامي لنفسي، وكم كان هذا الإحساس رائعًا، أن تشعر أنك محترم في عيون الآخرين، إحساس رائع ولكن الأروع أن تصبح محترمًا في نظر نفسك وقلبك وعقلك أنت، انتهت الفحوصات المعتادة وبدأنا في مغادرة القاعة سويًّا، يد بيد وكتف بكتف وقلب بقلب، نظرت نحو أشعة الشمس التي تغمر وجهي بدفئها وضوئها الذهبي القوي، وقلت بصوت خافت:

- هذا يوم رائع بحق، أفضل يوم منذ سنوات.

اتجهنا بخطوات سريعة نحو قاعة الطعام، حيث تنتظر عائلات المحاربين أبطالهم الذين عادوا هذه المرة أيضًا من معركة جديدة، دخلوها خمسة رفاق، وخرجوا منها ستة لحسن حظي، استقبل مانويل ابنه أليهو بذراعين مفتوحتين ليحتضنه في قوة وهو يقول:

- لقد عدتُ إليك يا صغيري، لقد عدت إليك.

طوَّقت ذراعا الصغير عنق والده الجاثي على ركبتيه في لقاء مؤثر، وكذلك فعل سليم مع ابنته كيرين ذات الشعر البني والعينين الزرقاوين البريئتين، دفعني كامل أمامه وهو يقول لي مبتسمًا:

- هذه المرة ستتناول الطعام معنا رغمًا عنك، لا أعذار يا صديقي.

احتضنته بذراع واحدة وأنا أرد عليه قائلًا:

- لا يوجد شيء قد يمنعني من هذا الشرف أيها المصري الطيب.

قام الأخير بتعريفي على عائلات المحاربين، مجموعة طيبة ورائعة من البشر، أخجلوني باستقبالهم لي وترحيبهم بي، حمل مانويل ابنه على ذراعه واقترب مني وهو يقول له:

- هذا صديقي هاريسون يا أليهو، إنه بمثابة عمك الآن.

تحجَّرت الدموع في عينيَّ إثر كلمات مانويل الرقيقة، ولم أستطع الرد، فقط نظرت نحوه بنظرات تقدير واحترام بالغ، فوجئت بأليهو يسألني في براءة:

- إذن هل ستلعب معنا بعد الإفطار؟ لقد وعدني أبي أن نلعب بالكرة، هل ستأتي؟

داعبت بأناملي شعره الناعم وأنا أقول له:

- سوف يكون ذلك مَدْعَاة لسروري أيها الشاب الصغير.

وبالفعل بعد انتهاء الإفطار اتجهنا للحديقة خارج المبنى وبدأنا في لعب الكرة، ثلاثة محاربين وأليهو مع فريق وكيرين مع الفريق الآخر، تذكرت حينما كنت ألعب الكرة مع ولدي جاك وابنتي تيفاني، تذكرتهما وأنا أرى طفولتهما في عيني أليهو وكيرين البريئتين، تذكرت حياتي السابقة وأنا أركض خلف أليهو لأمسكه قبل أن يصل للكرة لأداعبه لتنطلق ضحكاته بصوت عالٍ لتملأ المكان فرحةً وبهجة أنستني جزءًا كبيرًا من حزني وتعاستي، كنت أشعر وكأنني أستعيد الكثير مما فقدته مع فرقتي في أفغانستان، أستعيد ما فقدته في ذلك الكهف الملعون، ضحكات الصغيرين وركضهما حولنا وطفولتهما البريئة القادرة على غسل كل الأسى والحزن من قلبك المتعب المثقل بالهموم، كنت رغم كل شيء سعيد بالعثور على روحي الحقيقية التي فقدتها من قبل، كنت أولد من جديد وأحيا من جديد، كنت أشعر بإنسانيتي من جديد، كل ضحكة صافية أضحكها الآن أو يضحكها أليهو وكيرين تمحو جزءًا من آثامي وتغسل جزءًا من روحي، كنت راضيًا عن نفسي أخيرًا، لم يكن ينقصني سوى عائلتي التي أبعدتها عني سابقًا بتجاهلي لهم وعدم اكتراثي بهم، استندت على شجرة قريبة مني وأغمضت عيني وأنا أتذكرهم، زوجتي الجميلة سوزان وولديَّ الرائعان جاك وتيفاني، كنت أتذكر إيصالي إياهم للمدرسة وانتظاري لهم عند خروجهم منها، كنت أتذكر مباريات كرة القدم التي حضرتها مع عائلتي واحتضاني لهم في المساء قبل أن يخلدوا للنوم، كنت أتذكر نظرات الفرحة المرتسمة على وجه أطفالي مع كل لعبة جديدة أحضرها لهم وأعياد الكريسماس التي كنا نقضيها في بيتنا الدافئ، أخرجني صوت كامل الهادئ من تفكيري الحزين وهو يقول لي:

- فيمَ تفكر يا صديقي؟ تبدو مهمومًا.

أجبته بصوت يشوبه الحزن:

- أفكر في عائلتي التي خسرتها عندما خسرت نفسي، إنني أفتقدهم بشدة، هل تعلم أنني الآن على استعداد في هذه اللحظة لمبادلة جائزة المليون دولار بعائلتي؟ لا أحتاج إلى هذا المال قدر احتياجي لرؤية عائلتي وبقائهم بجواري حتى مماتي، أتمنى فقط لو احتضنهم مرة أخيرة كما كنت أفعل من قبل.

وضع كامل ذراعه حولي وهو يقول:

- لا تدري ماذا تخبئ لك الأيام يا هاريسون، ربما تتحقق أمنيتك قريبًا، لقد تغيرت كثيرًا عن ذي قبل، أنا متأكد أنهم يتابعون أخبارك الآن، وربما يتحقق لك ما تريد عندما ترجع وطنك، لا أحد يدري ماذا يخبئ له القدر.

لم أعقب على كل ما قاله كامل، فقط وددت لو يصدُق ما قاله وتتغير الأيام للأفضل.

أكملنا بقية اليوم كما هو المعتاد، وعندما جاء الليل كنا في قمة إرهاقنا، كنا جميعًا بحاجة ماسَّة إلى النوم بعمق استعدادًا ليومنا الأخير في المعارك، كنا بحاجة إلى النوم رغم علمي بأننا سنعجز عن ذلك من فرط التوتر والقلق، لم أتخيل أنني سأصل إلى تلك المرحلة أبدًا، اليوم الأخير في المعارك، بدأنا في الاتجاه لغرفتنا لنيل بعض الراحة قبل المعركة الأخيرة، ولكن قبل أن أدخل الغرفة استوقفني كامل في الممر المؤدي للغرفة وقال بينما الابتسامة تعلو وجهه:

- لقد أخبرتك في الصباح لا أحد يعلم ماذا يخبئ له القدر، والقدر يا صديقي العزيز يخبئ لك مفاجأة لم تتوقعها، هيا بنا.

كان يشدُّني من يدي كطفل صغير وأنا أُمْطره بالأسئلة غير فاهم ماذا يقصد ولا أين نتجه، دخلنا غرفة الاجتماعات لأجد الميجور هناك وكان أمامه لابتوب ويبدو أنه يتكلم مع شخص ما، هنا سألت كامل:

- أنا لا أفهم أي شيء، لماذا أحضرتني هنا؟

أجابني كامل مبتسمًا:

- لأن هناك من يريد محادثتك.

نهض الميجور من مقعده وابتسم ونظر لي دون أن يتحدث وهو يدير لي الحاسوب لأرى مَنْ كان يتحدث معه، لثوانٍ وقفت في مكاني مصدومًا عاجزًا عن النطق بكلمة، نظرت لكامل غير مصدِّق وهو يقول لي:

- سوف نتركك الآن وحدك، هيا بنا سيدي الميجور.

قبل أن يخرج كامل التفت لي وهو ممسك بقبضة الباب، وقال قبل أن يرحل:

- كل شخص يستحق فرصة أخرى يا هاريسون، فلتستغلَّ تلك الفرصة.

جلست ببطء على المقعد وأنا ألمس شاشة الكمبيوتر في تأثر وصمت، لم يكن مَنْ أراهم سوى عائلتي الصغيرة: زوجتي وولديَّ، كنت غير قادر على نطق أي حرف، ظللت ناظرًا للشاشة عاجزًا عن الكلام لفترة طويلة حتى قطع جاك الصمت وبدأ بالكلام، حينها فقط تكلمت كثيرًا جدًّا، كلماتي اختلطت ببكائي ودموعي ومشاعري، كل ذلك اختلط في مزيج غير مفهوم يخرج من فمي، كانت المرة الأولى التي أتحدث فيها مع عائلتي منذ سنوات، لا أعلم كم مرة اعتذرت وتأسفت، ولكنني فعلت ذلك كثيرًا جدًّا، أعلم أن سوزان لن تسامحني بسهولة ولكنني قدَّرت أن هناك فرصة لتصفح عني من رؤية تعبيرات وجهها، لم يكن وجهها يحمل تلك النظرة اللائمة التي رأيتها مرارًا عندما كنت ضائعًا من قبل عندما رحلت عن عالمي.

دخلت غرفة محاربي الزمن بعد ساعة تقريبًا من الحديث مع عائلتي الصغيرة؛ لأجد البعض منهم يتحدث عن المعركة الأخيرة، والبعض الآخر يقرأ على الإنترنت معلومات عن المعركة الجديدة، التفتت الأنظار إليَّ عندما دخلت الغرفة، اتجهت بخطوات سريعة نحو كامل الذي ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة قبل أن أحتضنه بقوة ولوقت طويل، كان الاستغراب والتعجب باديًا على وجوه بقية المحاربين؛ لأن أحدهم لم يكن يعلم ما فعله كامل، لم يعلموا أنه ذهب للميجور ليطلب منه الاتصال بعائلتي، أو أنه تحدث مع زوجتي وأقنعها بالتحدث إليَّ رغم معارضتها في البداية، حتى الميجور الذي طالما انتقدته وكرهته تحدث معها وقال لها أنني تغيرت كثيرًا عن ذي قبل، وطلب منها أن تعطيني فرصة كي أتحدث معها ومع أبنائي، هي من أخبرتني بكل هذا عندما تحدثت معي الليلة، لم يكن أيٌّ من المحاربين يعلم أن كامل فعل كل ذلك من أجلي؛ لذا كانوا متعجبين من احتضاني له بتلك الطريقة، وحده كامل كان يفهم، وحده كامل من استرجعني من ذلك الكهف الذي سجنت نفسي وروحي وقلبي بداخله لسنوات طويلة؛ لذا كان امتناني له لا يوصف.

بعد فترة من المشاعر الصامتة جاء صوت مانويل المرح من خلفي قائلًا:

- لشد ما تغيرت يا هاريسون، من الصعب أن يصدِّق أحد أن من يقف أمامي الآن هو نفس الشخص الذي كان هنا عند بداية المعارك.

وضعت يدي على كتفه وأجبته مبتسمًا:

- من الصعب عليَّ أنا شخصيًّا تصديق ذلك، ولكنكم أنتم من فعلتم ذلك يا صديقي، فعلتموه عندما رأيت أمامي أروع رجال صادفتهم في حياتي، أنا ممتنٌّ لكم جميعًا أيها الرفاق، شكرًا لكم، شكرًا لأنكم لم تتخلَّوا عني.

نهض باقي المحاربين واقتربوا مني ليصافحني بعضهم، بينما بعضهم الآخر يربت على كتفي في رفق وعلى وجوههم ابتسامات صافية، قطع توماس الصمت بقوله:

- لا تجعلوا تلك اللحظة تنسيكم أننا سنخوض معركة غدًا، لا بد لنا أن نقرأ عنها حتى نعلم كل شيء، ربما يفيدنا ذلك عند خوضها غدًا.

أومأ سليم برأسه موافقًا على ما قاله توماس، وقال هو الآخر:

- توماس محق، فليتجه كلٌّ منا إلى حاسوبه لنتعلم أكثر عن المعركة، يجب أن نستعد لها، إنها آخر معاركنا ولا يوجد مجال للخطأ.

رد عليه كامل قائلًا:

- أنت محق يا صديقي، ولكننا سنتعلم عنها سويًّا، هذه هي المعركة الأولى التي سنخوضها كمجموعة واحدة، سوف نتعلم عنها وندرسها سويًّا كفريق واحد حتى نستطيع وضع خطة تضمن لنا الرجوع سويًّا كما سنذهب سويًّا.

تعالت ابتسامات المحاربين لتعلن موافقتهم على ما قاله كامل الذي بدأ في تجميع الموائد الصغيرة ليشكِّل مائدة واحدة كبيرة

وضع عليها حاسوبه ليبدأوا عملهم، في نفس الوقت كان مانويل يقول:

- حسنًا، يبدو أنها ستكون ليلة طويلة، سأذهب لإحضار بعض القهوة للجميع.

وبينما يهمُّ بالسير استوقفتُهُ قائلًا:

- وأنا سأحضر لنا شيئًا لنأكله، هيا بنا يا صديقي.

بعد دقائق كنا قد رجعنا إلى الغرفة ليبدأ كامل بشرح المعركة بالتفصيل، كان الجميع منصتًا له ولما يقوله، كنا ننصت لقائدنا الذي اخترناه نحن ووثقنا به، كامل الذي استطاع انتشالي من أحزاني وحطامي، كنا نستعد للمعركة الأخيرة، المعركة التي سنخوضها كفريق واحد مكوَّن من ستة إخوة من ست قارات.

المعركة السادسة بعقل المحاربين

خمسة محاربين وبطل

كانت الساعة تقترب من السادسة صباحًا عندما كان المحاربون على متن البارجة الأمريكية التي تنقلهم من الجزر البريطانية، تنقلهم وبقية الجنود الذين سيشاركون في أكبر عملية غزو بحري في التاريخ، غزو نورماندي، العملية التي سُمِّيت كوديًّا باسم العملية نيبتون والتي كانت جزءًا من عملية أكبر وأخطر وهي العملية Over lord والتي تمثل غزوًا كاملًا وشاملًا لأوروبا لتحريرها من براثن النازيين، الزمان كان السادس من يونيو عام ١٩٤٤، كان من المقرر أن يبدأ الاجتياح للشواطئ الفرنسية في اليوم السابق، ولكن سوء الأحوال الجوية حَالَ دون ذلك.

- وقف المحاربون بالقرب من مقدمة البارجة ليروا منظرًا ربما تعيش حياتك بأكملها دون أن تراه، أكثر من ٦٩٠٠ سفينة منها ٤١٠٠ سفينة إنزال تشقُّ المياه للوصول إلى الجانب الفرنسي لبدء الغزو، أكثر من ١٢٠٠٠ طائرة تحلِّق فوق المحاربين في طريقها لقصف الأهداف النازية، أكثر من ثلاثة ملايين جندي تم تحضيرهم لتلك المعركة فقط، مئة وستون ألف جندي أمريكي سيعبرون اليوم القنال الإنجليزي للمشاركة في غزو نورماندي، منهم أكثر من عشرة آلاف سيموتون في ذلك اليوم.

تطلع المحاربون نحو السماء التي امتلأت بالطائرات ومناطيد المراقبة والبحر الذي امتلأ بالسفن الحربية حتى تحوَّل البحر إلى اللون الأبيض من اندفاع السفن خلاله للوصول إلى فرنسا، كانت أصوات قصف الطائرات والسفن الحربية للمخابئ الألمانية تدوّي كالرعد في آذان الجميع، بينما يرون عن بُعْدٍ الانفجارات على الجانب الفرنسي وهي تمطر الألمان بالجحيم، منذ منتصف الليل وهي تقوم بغارات في محاولة لإضعاف الدفاعات الألمانية القوية، آلاف الأطنان من القنابل والقذائف تم قصفها على الجيوش الألمانية منذ منتصف الليل وحتى الآن، كان المحاربون يتطلعون لكل ذلك في صمت وهم مشدوهون، لم ير أحدهم معركة بهذا الحجم طوال حياتهم وربما لن يروه أبدًا، فقط ظلوا على صمتهم وهم يتطلعون لما يدور حولهم، التفت كامل نحو بقية الجنود الأمريكيين الذين كانوا معهم على متن البارجة، جنود لم يتعدَّ الكثير منهم سن التاسعة عشر أو العشرين عامًا، كان الجميع صامتًا وهم ينظرون لما يحدث غير مصدِّقين ما يرونه بأعينهم، بعد لحظات بدأت البارجة الحربية في التوقف عن الحركة ليبدأ الجنود في النزول إلى سفن الإنزال الصغيرة، السفينة هيجينز كما يطلقون عليها، سفينة صغيرة تتسع لحوالي ثلاثين جنديًّا، كانت هي وسيلتهم للنزول على الشواطئ الفرنسية، هذا إن وصلوا إليها، كانت سفن الإنزال تتأرجح بقوة في المياه بفعل الرياح العاتية التي تعصف بها، كان الطقس شديد البرودة والرياح العنيفة تكاد تقذف بالجنود في المياه الباردة، وهم يحاولون النزول إلى سفن الإنزال، صاح كامل بصوت عالٍ ليتغلب على صوت القصف المحيط بهم:

- من الآن فصاعدًا سنلتزم بالخطة التي اتفقنا عليها أمس يا رجال، لا تنسوا ما اتفقنا عليه.

أومأ المحاربون موافقين، وبدأوا في النزول إلى سفينة الإنزال بصعوبة بالغة، وبمجرد أن وطئت أقدامهم سطح السفينة اتجهوا نحو مؤخرة السفينة كما اتفقوا على فعله في الليلة الماضية، بدأت السفينة الصغيرة في الانطلاق نحو النقطة المقررة لها، كان قد تم تقسيم الشاطئ الذي تبلغ مساحته خمسون ميلًا إلى خمس مناطق: اثنان منها سينزل بهما قوات أمريكية وهي المنطقة يوتاه وأوماها، كان المحاربون الستة من القوات التي ستهبط على المنطقة أوماها، حيث ستقع أشرس المعارك على الإطلاق، كان الخوف باديًا على الجميع، معظم هؤلاء الجنود لم يقاتلوا من قبل في أي معركة على العكس من القوات الألمانية، بعض الجنود كان يردد الصلوات والبعض الآخر كان يحاول التقليل من التوتر عبر الضحكات، ولكنها كانت تخرج رغمًا عنهم مليئة بالقلق والرعب مما هو قادم، كان الجميع في انتظار لحظة بداية القتال، الانتظار الذي لم يدم طويلًا، كانت خمسة أميال متبقية على السواحل الفرنسية عندما بدأ الجحيم النازي في اقتناص أرواح الجميع، انهمرت القذائف والطلقات الألمانية كالمطر على الجنود في سفن الإنزال، صرخ كامل في بقية المحاربين:

- تشبثوا جيدًا أيها الرفاق، ها قد بدأنا.

كانت القذائف الألمانية تتساقط على الجنود بقوة وقسوة، سعداء الحظ منهم كانت القذائف تسقط بالقرب من سفنهم لتغرقهم بالماء المالح والبارد فحسب، بينما تُعَسَاء الحظ أصابت تلك القذائف سفنهم مباشرة لتنفجر السفينة مخلِّفة خلفها سحابة من الأشلاء المعدنية والخشبية والأشلاء البشرية لبقايا الجنود الذين قضوا نحبهم قبل أن تطأ أقدامهم الرمال الفرنسية، بدأ الجنود في الاستلقاء أرضًا لتلافي الطلقات الألمانية التي كانت تمرح فوق رؤوسهم وهي تنطلق ساعية خلف أرواح الجنود المذعورين، بعض تلك الطلقات كانت تخترق جسد السفن لتصيب وتقتل الجنود الذين بدأوا في الصراخ وهم غير مصدقين أنهم يَلْفِظون أنفاسهم الأخيرة دون أن يملكوا فرصة للقتال من أجل أرواحهم، كانت كثافة النيران تزداد باقتراب السفن من السواحل الألمانية، لكنها لم تكن المفاجأة الوحيدة لهؤلاء الجنود.

لم يعلم حينها هؤلاء الجنود أن القوات الألمانية زرعت آلاف الألغام البحرية في المياه، ولكنهم علموا ذلك بمجرد أن بدأت سفنهم في الاقتراب من الشاطئ الفرنسي، بدأت الألغام في الانفجار في السفن بقوة وبدويٍّ يصمُّ الآذان لتتطاير المزيد من الأشلاء في المياه التي بدأت في التلون باللون الأحمر الذي اكتسبته من دماء الجنود، كان اللغم ينفجر في مقدمة السفينة ليقتل كل مَنْ يوقعه حظه العاثر في التواجد في المقدمة، أما من يظل على قيد الحياة فكان عليه أن يسبح لمسافة أميال حتى يصل للشاطئ مسافة يجب عليه اجتيازها وهو بكامل عتاده وسلاحه، البعض منهم تخلى عما يحمله من أثقال حتى يستطيع السباحة، والبعض الآخر غرق دون أن يملك أحد فرصة لإنقاذه، كان المحاربون ينظرون للمياه الحمراء التي عَلَت سطحها جثث وأشلاء الجنود الذين قضوا نحبهم في اللحظات الأولى للهجوم، رذاذ البحر يندفع نحو السفن المتبقية ليغطي الجنود بالماء الأحمر المختلط بدماء رفاقهم، توالت الانفجارات في السفن بفعل القذائف والألغام، ولكن بقية السفن واصلت طريقها في إصرار نحو الشاطئ الفرنسي، واصلت طريقها لتجد تلك العوارض التي وضعها الألمان لقلب سفن الإنزال التي نَجَتْ حتى الآن، كانت عوارض خشبية سميكة بزاوية خمس وأربعين درجة مهمتها إغراق بقية السفن، كانت سفينة المحاربين إحدى ضحايا تلك العوارض الخشبية، المحاربون الذين وجدوا أنفسهم في لحظات يغمرهم الماء البارد بعد انقلاب سفينتهم، كانوا يحاولون إبقاء رؤوسهم فوق الماء الذي يضرب وجوههم كأنه سوط عملاق.

بدأ المحاربون في السباحة بصعوبة بالغة في طقس شديد السوء وأمواج عاتية بدت لهم وكأنها تحارب في صف النازيين، كانوا يجاهدون للبقاء فوق سطح المياه والسباحة للوصول إلى الشاطئ وسط قصف عنيف من المدفعية الألمانية والطلقات التي تصطدم بالمياه من حولهم في غزارة، تارة تصيب المياه وتارة أخرى تصيب الجنود الذين يسبحون بجوارهم، توقَّف كامل لبعض الوقت في المياه وهو ينظر لهؤلاء الجنود الذين يحاولون البقاء فوق سطح المياه بكل ما أوتوا من قوة رغم إصاباتهم، خاصة مَنْ أصيب في صدره بعد أن ثقبت الطلقات سترة النجاة التي يرتديها، سترة ماي ويست كما يطلقون عليها، انتظر كامل للحظات قبل أن يبدأ السباحة إلى أحد الجنود المصابين ويمسكه جيدًا قبل أن يقول له:

- ما هو اسمك أيها الجندي؟

أجابه الأخير بصوت مرتعش خائف:

- آ... آدم يا سيدي، هل ... هل سأموت يا سيدي؟

رد عليه كامل بصوت متأثر:

- لا يا آدم، لم يحن وقتك بعدُ، سوف أنقلك إلى الشاطئ، لا تقلق، لن أتركك.

بدأ كامل في السباحة بذراع واحدة وهو يشد الجندي المصاب بالذراع الأخرى، كان يسبح بصعوبة بالغة وبطء شديد، ولكنه لم يترك ذلك الجندي، تطلَّع إليه هاريسون في تعجب وهو يقول:

- إنه مجنون، لن يستطيع النجاة بتلك الطريقة، لماذا يضحي بحياته من أجل ذلك الفتى؟

رد عليه سليم قائلًا:

- إنه لا يفعل ذلك لأنه مجنون، هو يفعله لأنه قائد، والقائد لا يترك رجلًا خلفه.

ثم نظر لبقية المحاربين الذين يكافحون للبقاء على سطح المياه وسط الطلقات والمدفعية المتساقطة فوق رؤوسهم قبل أن يقول لهم:

- أنا لا أعلم بشأنكم أيها الرفاق، ولكنني سأفعل مثلما يفعل قائدي.

وبدأ بالسباحة نحو أحد الجنود المصابين ليمسكه بيد ويبدأ السباحة بالأخرى نحو الشاطئ الفرنسي، لم تمض لحظات حتى بدأ بقية المحاربين في فعل الشيء نفسه ما عدا هاريسون، فقط ظل في مكانه وهو يردد:

- بل هو مجنون، إنه ليس مضطرًّا لفعل ذلك.

جاء الرد عليه من توماس الذي كان قريبًا منه حين قال له:

- لو لم يكن كامل قائدًا لكان تركك وحدك في المعركة السابقة، لو لم يكن قائدًا لكنت أنت الآن وحدك تصارع تلك الأمواج دون أن تملك أحدًا بجانبك.

أصابت كلمات توماس قلب هاريسون الذي تطلَّع للأول في خجل قبل أن يبدأ السباحة نحو أحد المصابين وهو يبتسم في وجهه قائلًا:

- يوم رائع للسباحة، أليس كذلك؟ لا تقلق، سنخرجك من هنا.

لم ينتظر هاريسون رد الجندي المصاب، وبدأ في سحبه من ياقته والسباحة بذراع واحدة حتى يصلوا إلى الشاطئ، كان الأمر في منتهى الصعوبة، كان جنونيًّا كما قال هاريسون، ولكن أيٌّ من المحاربين لم يترك الجندي الذي معه ليغرق، ظلوا ممسكين بالجرحى في قوة وهم يكافحون للوصول إلى الرمال الفرنسية، لم ينسوا عدم لمس العوارض الخشبية، كان المحاربون يعلمون أن الألمان قاموا بوضع الألغام عليها، الأمر الذي لم يعلمه الجنود إلا متأخرًا عندما بدأت تلك الألغام في الانفجار لدى لمس أحد الجنود إياها، في النهاية وفي حوالي الساعة السابعة صباحًا وبعد ساعة تقريبًا من السباحة المرهقة كان المحاربون قد وصلوا إلى الشاطئ ولكنهم لم يخرجوا من المياه كما أمرهم كامل، كانت الأسلحة النازية تُوَجَّه نحو أي جندي يخرج للشاطئ خاصة الضباط؛ حتى يكون الجنود دون قادة لهم يُعطونهم الأوامر ومن ثم تسود الفوضى بين الجنود، ظل المحاربون في المياه لفترة قبل أن يصيح ليوناردو:

- لا يمكننا البقاء أطول من ذلك في المياه، هؤلاء الجرحى بحاجة للعلاج.

وافقه سليم قبل أن ينظر لكامل قائلًا:

- ليو محق يا كامل، يجب أن نخاطر ونخرج من المياه، وإلا فلا فائدة مما فعلناه حتى الآن.

كان عقل كامل يفكر في مخرج من هذا المأزق، كان يعلم أنهم محقُّون فيما يقولونه، أخذ يمسح الشاطئ بعينيه ثم أشار نحو منطقة ما وهو يقول:

- هناك، فلنتوجه إلى تلك النقطة، لن يرانا الألمان خلف تلك التلة الصخرية.

بدأ المحاربون في التوجه نحو النقطة التي أشار إليها كامل وهم يسحبون الجرحى الذين كانوا يتأوهون في ضعف حتى وصل الجميع نحو الشاطئ الرملي، استلقى الجميع في تهالك فوق الرمال الباردة وهم يحاولون التقاط أنفاسهم، ظلوا على هذه الحالة لبضع دقائق قبل أن يوجِّه كامل حديثه للمحاربين:

- سليم وليو، سوف تعتنون بالجرحى وتقومون بعمل الإسعافات الأولية لهم حتى نستطيع نقلهم من هنا، هاريسون ومانويل، سوف تحفران خندقًا هنا بسرعة، لن يأخذ الألمان الكثير من الوقت حتى يلاحظوا وجودنا، حينها سيمطروننا بنيرانهم، أما توماس وأنا فسوف نستطلع المنطقة، لن يمكننا المكوث هنا لفترة طويلة.

على الفور بدأ المحاربون في تنفيذ العمل الذي أوكله لهم كامل، والذي بدأ في تسلق تلك التلة الصخرية وبجواره توماس حتى يستطيعوا رؤية ميدان المعركة بصورة أفضل، وما أن وصلوا لقمتها حتى بدأوا الزحف ليروا الميدان، ولكن بدلًا من ذلك فوجئا بالمأساة التي تحدث أمام أعينهم.

مئات من سفن الإنزال تقوم بإنزال الجنود على الشاطئ قبل أن ترجع مرة أخرى لإحضار المزيد من الجنود، الدخان الكثيف يملأ

المكان جراء عمليات القصف المتوالية من قوات الحلفاء للدفاعات الألمانية، تلك الدفاعات التي كانت محصَّنة بصورة جيدة بالإضافة لسوء حالة الطقس؛ مما جعل القصف العنيف الذي تتعرض له دون جدوي حقيقية، كان شاطئ أوماها الذي يبلغ طوله ثماني كيلومترات عبارة عن مشرحة كبيرة ممتلئة بالجثث والأشلاء المبعثرة في كل مكان، بينما الحرائق الصغيرة تنتشر في المكان، وتلتهم الجثث في بطء وقسوة لتنشر تلك الرائحة المقيتة، رائحة الموت التي تغمر المكان بأكمله.

لفترة من الوقت ظل المحاربان على صمتهما، بينما كامل يستطلع المكان قبل أن ينظر لنقطة ما استرعت انتباهه وهو يقول لتوماس:

- هل بحوزتك نظارة مكبرة؟

بدأ توماس في البحث في أغراضه حتى أخرجها لكامل الذي تناولها منه في سرعة وهو يقوم بفحص جزء معين من المرتفعات، كان مرتفعًا شديد الانحدار بالقرب من مكان إنزالهما على الشاطئ، أخذ كامل يمسح ذلك المكان بدقة لبضع دقائق قبل أن يسأله توماس في فضول:

- ماذا ترى؟ هل هناك خطب ما؟

أجابه كامل وهو ما زال منهمكًا في فحص ذلك المرتفع بدقة:

- أظن أننا نملك فرصة للالتفاف حول هؤلاء الأوغاد.

ثم بدأ بالزحف رجوعًا وهو يقول لتوماس:

- دعنا الآن نرجع لبقية المحاربين، هيا بنا.

أطاعه توماس وبدآ في الرجوع مرة أخرى للمنطقة التي يوجد بها المحاربون والجرحى ببطء وحذر حتى لا يتم رصدهم من قِبَل القوات النازية، وبمجرد أن وصلا فوجئا بما رأوه أمامهما، وجدا أكثر من خمسين جنديًّا وأكثر من عشرين مصابًا، وقبل أن ينبس كامل ببنت شفة وجد سليم يركض ناحيته ويقول له:

- أين كنتما طوال تلك الفترة؟

لم يرد كامل على سؤاله وقام هو بسؤال سليم:

- ماذا حدث هنا؟ مَنْ كل هؤلاء الجنود؟

أجابه سليم قائلًا وهو ينظر إليهم:

- بمجرد أن اختفيت أنت وتوماس عن ناظرينا وجدنا الجنود يأتون إلى مكاننا واحدًا تلو الآخر، البعض رآنا نمكث في المياه ففعل مثلنا وعندما خرجنا من المياه واحتمينا بهذا المرتفع الصخري بدأوا في التوافد إلى هنا، بعضهم جرحى ونقوم بمحاولة إسعافهم، أما الباقون فلا يعلمون ماذا عليهم فعله، القوات النازية استهدفت الضباط لدى خروجهم من المياه، والنتيجة أن كل هؤلاء الجنود بلا قائد لهم ليقوم بتوجيههم في ساحة القتال، لقد ...

وقبل أن يكمل سليم حديثه قاطعه ذلك الجندي الأشقر ذو الشعر القصير والعيون الزرقاء موجهًا حديثه لكامل:

- جندي أندرسون كيلر من الفرقة ١٦٦ مشاة يا سيدي، هل أنت قائد تلك المجموعة؟

وقبل أن يردَّ عليه كامل جاءت الإجابة من توماس الذي قال:

- نعم، هو قائدنا أيها الجندي.

نظر كامل نظرة لوم لتوماس، بينما ذلك الجندي يتابع حديثه:

- لقد قُتِلَ قائد فرقتنا يا سيدي، بالإضافة لعدد كبير من ضباط الفرق الأخرى؛ لذا فنحن الآن تحت إمرتك يا سيدي، ما هي أوامرك؟

نظر له كامل قبل أن يجيبه بشيء من الأسف:

- أنا لست ضابطًا أيها الجندي، أنا مجرد جندي مثلك في المعركة.

رد عليه الجندي في حزم:

- سيدي، أنا لم آتِ لك لأنك ضابط أعلى في الرتبة من بقيتنا بل لأنك قائد، لقد رأيتك عندما رجعت لإنقاذ هؤلاء الجرحى من المياه، وكذلك فعل بقية أعضاء فرقتك بعدما رأوك تفعل ذلك، لقد حاولت إنقاذهم رغم خطورة ذلك ولكنك لم تبالِ بذلك الخطر، إن لم يكن هذا تصرف قائد فماذا تُسمِّيه؟

ظل كامل صامتًا لبعض الوقت عقب كلمات الجندي الذي أردف:

- سيدي، نحن نحتاجك، هؤلاء الجنود الذين تراهم أمامك بلا قيادة، إن دخلوا المعركة وهم على هذه الحالة فسوف يعني ذلك موتًا محققًا لهم جميعًا، هل هذا ما تريده لهم؟

أتى الجواب من توماس الذي رَبَّتَ على كتف كامل قبل أن يغمغم في رفق:

- يبدو أنك أصبحت قائدًا للجميع رغم أنفك.

نظر كامل لهؤلاء الجنود الذين يتزايد عددهم كل بضعة دقائق، كان يعلم في قرارة نفسه أن المعركة الفعلية قد بدأت وانتهت منذ عشرات السنين، مات من مات وعاش من عاش، ولكن بعيدًا عن المعركة الحقيقية التي حدثت منذ أكثر من ستين عامًا كانت هناك تلك المعركة التي يعيشها الآن، معركة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، حيث يوجد أمام عينيه جنود خائفون وهم يشعرون باقتراب الخطوات الراقصة للموت وهو ينتقي ضحاياه في جذل، حتى لو لم يكن ما يراه حقيقيًّا ولكنه شعر بمسئولية تجاه هؤلاء الجنود، مسئولية لا يلزمه بها سوى عقله؛ لذا فلم يكن مستغربًا أنه شدَّ قامته وقال بلهجة حازمة:

- حسنًا، أريدك أن تقوم بتقسيم الرجال إلى مجموعات من ستة أفراد للمجموعة مع وجود قائد على كل مجموعة، إن كان الألمان قد قتلوا قادة الفرق ظنًّا منهم أن ذلك سيضعفنا فسوف نريهم أننا كلنا قادة، المصابون سيبقى معهم مجموعتان حتى وصول طواقم المسعفين لنقلهم من هنا، ومجموعة أخرى سوف تكمل بناء الخندق لوضع المصابين به لإبعادهم عن مرمى النيران، كذلك أريد أن يتم حصر جميع الأسلحة التي بحوزتنا والتأكد من كفاءة عملها قبل أن نتحرك.

ابتسم الجندي وهو يؤدي التحية العسكرية لكامل قبل أن يقول بثقة:

- أمرك سيدي.

التفت توماس نحو كامل ثم قال متسائلًا:

- حسنًا، ما هي خطتك كي نكسر ذلك الحصار الذي يفرضه النازيون على الشاطئ؟

أجابه كامل وهو يقوم بفرد خريطة للمنطقة على الرمال:

- أولًا قم بجمع المحاربين كي يعلم الجميع ماذا ننوي عمله.

بمجرد أن اجتمع الخمسة محاربين بدأ كامل الشرح:

- عندما تسلقت مع توماس ذلك المرتفع الصخري حتى نستطلع ميدان المعركة لفتت انتباهي تلك المنطقة.

قالها وهو يشير لمنطقة ما على الخريطة، ثم أردف:

- تلك المنطقة عبارة عن مرتفع صخري يبلغ طوله حوالي الخمسين أو الستين مترًا تقريبًا بزاوية شديدة الانحدار، هي المنطقة الوحيدة بعرض الشاطئ الخالية من المخابئ النازية.

قال هاريسون بعصبية:

- بالتأكيد؛ لأن الألمان يعلمون أننا لسنا بهذا الجنون الذي يجعلنا نهجم من تلك المنطقة، أنت تتحدث عن تسلق بناية بطول عشرين طابقًا للوصول إلى قمة المرتفع، وحتى لو فعلنا ذلك لا ندري ما الذي سنجده في الأعلى، ربما كانت هناك فرقة ألمانية كاملة تنتظر الحمقى أمثالنا.

أجابه كامل بحماس:

- الجنون الحقيقي أن نغامر بالهجوم عبر الشاطئ الممتلئ بالألغام والمتفجرات والتي إن نجوت منها فلن تنجو من المدفعية الثقيلة المخبأة بالمرتفعات والمحاطة بأطنان من الإسمنت والتي لم تفلح كل نيران الحلفاء في القضاء عليها حتى الآن.

ثم نظر للمحاربين قبل أن يقول:

- أعلم أنها مخاطرة كبيرة، ولكننا إن ظللنا في أماكننا فسوف يتم اصطيادنا واحدًا تلو الآخر، أعداد الجنود الذين يأتون للمنطقة التي نحن بها الآن تتزايد شيئًا فشيئًا، لن ننجح بالصمود طويلًا عندما يلاحظ الألمان وجودنا وبهذا العدد، سنكون عبارة عن مجموعة من البط الساكن كما تقولون، ولكن إن نجحنا في الصعود لقمة ذلك المرتفع سنكون بمحاذاة المخابئ الألمانية وسنستطيع اقتحام نقاطهم الحصينة وتطهيرها الواحدة تلو الأخرى فيخف الضغط على القوات على الشاطئ؛ مما سيَقْلِب ميزان المعركة لصالحنا.

ساد الصمت لبضع لحظات قبل أن يسأل مانويل السؤال الأهم:

- ومن المجنون الذي سيتسلق كل تلك المسافة دون أدنى حماية؟

ارتفع صوت توماس قائلًا:

- لا داعي لأن تبحثوا كثيرًا، أنا سأتسلق أولًا.

اتجهت عيون المحاربين نحو توماس الذي أردف في بساطة:

- لماذا تنظرون لي بتلك الطريقة؟ أنا مقتنع بما قاله كامل، فرصتنا في النجاة أفضل فوق قمة ذلك المرتفع، وأنا أفضل من يستطيع التسلق أولًا، لقد قمت بذلك عشرات المرات من قبل وبدون وسائل حماية.

ثم نظر نحو كامل قائلًا له في جدية:

- صدِّقني أنا أفضل اختيار لك.

صمت كامل لبعض الوقت قبل أن يبتسم في رفق وهو يقول لتوماس:

- حسنًا، سوف تذهب أنت أولًا.

رد عليه توماس في مرح:

- بهذه البساطة وافقت! لقد كنت أتوقع أن ترفض أو تحاول إثنائي عن ذلك الجنون.

قال له كامل بابتسامة دافئة:

- وأين كنت سأجد أحمق غيرك يوافق على تلك الخطة المجنونة؟

بدأ المحاربون في تجهيز أنفسهم، بينما أخذ كامل في شرح خطته لباقي قادة الفرق التي ستشاركه في خطته، ثم قام بتقسيم تلك الفرق وشَرَحَ لكل فرقة ما هو المطلوب منها، بعدما فرغ المحاربون والجنود من فحص الأسلحة التي بحوزتهم والتأكد من عملها بكفاءة بدأوا في التحرك حتى وصلوا إلى النقطة التي كان فيها كامل وتوماس من قبل، اتسعت عيون الجميع في صدمة لدى رؤيتهم لميدان المعركة للمرة الأولى حيث الجثث المتفحمة والانفجارات المتوالية والدخان الكثيف والجرحى الذين يصرخون حتى تشعر أن صرخاتهم وصلت لعنان السماء، تطلَّع كامل لذلك المنظر الذي رغم أنه رآه منذ فترة قليلة، ولكن ذلك لم يمنع تلك الغصَّة في حلقه وكأنه يراه لأول مرة، ولكنه سرعان ما أخرج نفسه من ذلك الحزن الذي يعتصره ليقول للجندي أندرسون في جدية:

- سوف تظل هنا في تلك المنطقة مع فرقتك.

اعترض أندرسون على ذلك قائلًا في استنكار:

- ولكني أريد أن أحارب هؤلاء القتلة النازيين، لن أمكث هنا في أمان بينما أرى عشرات الجنود في الأسفل يَلْقَون حتفهم كل لحظة أمام ناظريَّ.

أجابه كامل في سرعة:

- أنت هنا أهم من أي فرد فينا، سيكون لزامًا عليك أن تتصل بقيادة الحلفاء وتزودهم بالإحداثيات الدقيقة لمواقع الألمان حتى تنجح المدمرات والطائرات في قصفهم وإبادتهم، دورك لا يقل أهمية عن أي شخص آخر فينا، نحن نحتاجك يا أندرسون ولكن هنا في هذا المكان.

لم يَبْدُ الاقتناع على وجه الأخير الذي نظر لكامل نظرة لائمة صامتة قبل أن يردف كامل وهو يمسك أندرسون من كتفيه ويقول:

- لقد أخبرتني أنك تعتبرني قائدًا لك، وأنا بتلك الصفة أطلب منك أن تنفِّذ ما قلته لك، هل أنت معي يا أندرسون؟

صمت الأخير لبضع لحظات قبل أن يقول بصوت خافت:

- نعم يا سيدي، أنا معك.

ابتسم كامل وهو يَرْبِتُ على كتفَي أندرسون قبل أن ينطلق في طريقه نحو قاعدة ذلك المرتفع الصخري ومعه بقية المحاربين والجنود الذين كان عددهم يقارب الثلاثين شخصًا، وفي غضون دقائق كان الجميع صامتًا خلالها وصلوا إلى تلك النقطة التي سيتسلقون منها إلى قمة المرتفع، بدأ توماس في ربط حبل غليظ حول خصره قبل أن يبدأ رحلته المجنونة للتسلق، اقترب منه هاريسون وأخذ في فحص الحبل والتأكد من عقده بصورة صحيحة، وهو يقول لتوماس في حنق:

- لم أكن أدرك أنك على هذه الدرجة من الحماقة، حاوِلْ تثبيت قدميك بصورة جيدة مع كل خطوة لك ولا تحاول أن ...

فاجأته ضحكة توماس قبل أن يقول له:

- الآن أنت تتحدث مثل والدتي، لا تقلقي عليَّ يا أمي، سوف أعود إليكِ بسرعة.

ابتسم هاريسون في ارتباك قبل أن يهمَّ بالانصراف، ولكن صوت توماس الدافئ أتى إلى أذنيه ليقول له في جدية:

- لا تقلق عليَّ يا هاريسون، سوف أكون بانتظارك أعلى المرتفع، لا تتأخر عليَّ.

التفت إليه هاريسون واحتضنه بقوة وهو يقول لتوماس:

- لن أتأخر عليك يا صديقي، سأكون خلفك مباشرة، خذ حذرك.

أومأ توماس برأسه مطمئنًا صديقه قبل أن يمسك حفنة من الرمال ويفرك بها يديه وهو ينظر لِقِمَّة المرتفع قبل أن يغمغم بصوت منخفض:

- ها أنا قادم إليكِ أيتها اللعينة.

بدأ توماس في التسلق برشاقة على صخور ذلك المرتفع شديد الانحدار، أخذت عيون الجميع في الأسفل في التطلع إليه، بينما تأتي من خلفهم أصوات الانفجارات والقصف العنيف، وأصوات الجرحى الذين يتكاثرون كل لحظة على شاطئ نورماندي، كان توماس يغمغم بصوت خفيض وكأنه يحدِّث نفسه قائلًا:

- لا تفزع، لقد فعلت ذلك مرات عديدة من قبل، ليست المرة الأولى لك أيها الوغد، يمكنك فعلها، صحيح أنك لم تتسلق من قبل خلال معركة ولكنك تسلقت جبالًا من قبل، لن يقف في طريقك ذلك المرتفع التافه، على الأقل أنت تفعلها الآن من أجل سبب يستحق المخاطرة من أجله.

حانت منه التفاتة نحو الأسفل ليرى الرجال يتطلعون إليه في قلق بالغ، كان يعلم أن آمالهم معلَّقة به كما هو معلَّق بهذا الحبل،

كان توماس حبل نجاتهم؛ لذا فقد نظر إلى الأعلى نحو قمة المرتفع وهو يقول:

- سوف أصل إلى قمتك أيها الحقير، سوف أصل لأن نجاة الرجال بالأسفل معلقة بذلك؛ لذا حاوِلْ أن تكون جيدًا معي حتى أكون جيدًا معك، هل تسمعني؟

ثم ابتسم ساخرًا وهو يضيف:

- لا بد أنني جُنِنْتُ حتى أتحدث مع مجموعة من الصخور.

أكمل توماس تسلقه وهو يختار بعناية موضعًا ليديه وقدميه بين صخور ذلك المرتفع الوعر، كان يشعر وكأنه تحول إلى بعوضة كبيرة وهو يتشبث بتلك الصخور في مواجهة الطقس السيئ والرياح التي تحاول اقتلاعه من مكانه لتُلْقِي به أرضًا، شيئًا فشيئًا بَدَا توماس وكأنه وصل إلى غايته، كانت تفصله عن القمة بضعة أمتار أخرى نجح في تسلقها ببعض العسر، ولكن في النهاية استطاع الوصول، أطلَّ برأسه ببطء ليرى إن كان هناك أي جنود ألمان على تلك القمة ولكنه لم ير أي شخص، مجرد مجموعة من الأشجار الخضراء العالية تحيط بالمكان، بينما الحشائش الخضراء ترقد في سلام على الأرض، للحظات لم يصدِّق أن ذلك المنظر جزء من ميدان المعركة، شتَّان ما بين السلام والجمال هنا وما بين الحرب والموت في الأسفل، انتزع نفسه من أفكاره ودفع جسده بعيدًا عن الحافة، واستلقى على الأرض يلتقط أنفاسه للحظات وهو ينظر للسماء التي امتلأت بالطائرات ورجال المظلات الذين يهبطون بالآلاف خلف خطوط العدو لقطع طريق إمداداته عن الخطوط الأمامية له، بعد أن انتظم تنفُّسه بدأ توماس في فك الحبل الذي يربطه ليقوم بربطه في شجرة قريبة من الحافة، ويُحْكِم عقد الحبل قبل أن يلقيه للرجال في الأسفل الذين أطلقوا صيحات الفرحة وبدأوا الصعود على ذلك الحبل واحدًا تلو الآخر، وكذلك بدأوا في ربط معداتهم وأسلحتهم لرفعها هي الأخرى، لم يمر الكثير من الوقت حتى صعد كل الرجال والذين كان آخرهم هم المحاربون الخمسة، الذين بمجرد صعودهم إلى قمة المرتفع اتجهوا دون اتفاق نحو توماس ليحتضنوه واحدًا تلو الآخر مهنئين إياه، وقف هاريسون - والتأثر يبدو على وجهه - أمام توماس قبل أن يقول الأخير في مرح:

- هل افتقدتِّني يا أمي؟

لَكَمَهُ هاريسون في وجهه برفق قبل أن يحتضنه بقوة وهو يغمغم:

- شكرًا لك يا صديقي على ما فعلته لنا جميعًا.

ساد الصمت للحظات قبل أن يقطعه كامل بقوله:

- حسنًا، نحن الآن في موقع قوة ويجب علينا استغلاله، فلنكمل مهمتنا أيها الرجال.

التفَّ الجنود والمحاربون حول كامل الذي أخرج خريطة للمكان ووضعها أرضًا وهو يقول في جدية:

- سوف نتفرَّق كل فرقة في اتجاه حتى لا نجذب انتباه النازيين، المخابئ الألمانية محصنة جيدًا ولكن تلك المخابئ بحاجة للتهوية، مهمتكم أن تجدوا فتحات التهوية وعندما تفعلون ذلك سيُلْقِي أحدكم القنابل اليدوية داخل الفتحات لتفجير هؤلاء السفلة إلى أشلاء، في نفس وقت فعله ذلك ستكون بقية مجموعته في انتظار مَنْ سيخرج من المخابئ لتبيدوا مَنْ نجا من القنابل، هل من أسئلة؟

لم يَرُدَّ أحد على سؤال كامل الذي نهض من مكانه وهو يقول:

- حسنًا، تفرقوا الآن ولا تنسوا، أَسْقِطوا عليهم الجحيم أيها السادة، نجاح مهمتكم يعني التقليل من خسائرنا في الأسفل، رفاقكم بحاجة إليكم، لا تخذلوهم.

بدأت المجموعات الصغيرة في التفرق حاملة معها أسلحتها ولم يتبقَّ سوى مجموعة المحاربين، حينها سأل ليوناردو موجهًا حديثه لكامل:

- والآن ماذا سنفعل؟

أجابه كامل وهو يضع حقيبة على كتفيه:

- الآن سنقاتل معًا كالعادة، هي المعركة الأخيرة، لنجعلها الأفضل أيها السادة.

بدأ المحاربون في الانطلاق في طريقهم لخوض قتالهم الأخير، بدأوا اجتياز تلك الغابة من الأشجار الواقعة بالقرب من المرتفع الصخري الذين أتوا عن طريقه، كانوا يسيرون بحذر لتجنب رؤيتهم بواسطة القوات الألمانية، بينما أصوات المعارك لا تتوقف من خلفهم، ولكنها كانت تخفت بالتدريج بتقدمهم في الغابة، مرَّ أكثر من ربع ساعة وهم في طريقهم نحو المخابئ الألمانية قبل أن يغمغم هاريسون في ضجر:

- لقد بدأت أشعر بالملل حقًّا، أريد أن أشعر ببعض الإثارة.

أجابه توماس قائلًا بلا مبالاة:

- لا تقلق، ما هي إلا بضع دقائق ونبدأ معركتنا، حينها ستندم على ما تقوله الآن.

ابتسم بعضهم على جملة توماس قبل أن يكمل هاريسون حديثه وهو يعبر ما بين شجرتين:

- أنا فقط أقول: إنها معركتنا الأخيرة وحتى الآن لم نبدأ، دعونا نغيِّر الحديث، قل لي يا مانويل ماذا ستفعل عقب رجوعك إلى المكسيك بعد انتهاء البرنامج؟

التقط مانويل نَفَسًا عميقًا قبل أن يرُدَّ بقوله:

- سوف أعالج ولدي في أفضل مستشفى في المكسيك، أو ربما حتى آخذه للولايات المتحدة لإجراء العملية هناك، هذا هو الهدف من وجودي هنا.

نظر هاريسون لسليم وسأله نفس السؤال ليردَّ سليم بابتسامة حزينة:

- سوف أظل مع عائلتي أطول فترة ممكنة، سأترك عملي وأستمتع بما تبقى من حياتي معهم، أريد فقط أن أراهم معظم الوقت حتى ...

لم يستطع سليم إكمال جملته؛ لأن تلك الرصاصة التي جاءت من مكان ما اقتلعته من مكانه لتُلْقِيه أرضًا بعنف، بينما الدماء تنزف بغزارة من موضع الجرح في صدره، للحظات نظر المحاربون لسليم وهم غير مصدقين لما حدث للتو، ولكن الطلقة الجديدة التي انطلقت لتصيب الأرض بالقرب من سليم انتزعتهم من صدمتهم لتجعلهم يختبئون خلف إحدى الأشجار الساقطة على الأرض وهم يسحبون سليم من ثيابه بعيدًا عن مرمى النيران، اقترب كامل وليوناردو من سليم الذي كان يتنفَّس بصعوبة، وقام كامل بنزع الملابس الغارقة في الدماء عن صدر سليم، كان يبذل مجهودًا مضنيًا حتى يلتقط أنفاسه حين أخرج ليوناردو بعض المعدات الطبية من حقيبته ليبدأ في معالجة موضع الإصابة بسرعة ولكن بأيدٍ مرتعشة، نظر كامل إلى يديه اللتين تخضبتا بالدماء، دماء سليم، قبل أن ينظر له ويقول له:

- سليم، سنعالجك يا صديقي، اصمد معنا وسنقوم بمعالجتك.

ثم قال صارخًا:

- فليحاول أحدكم أن يعرف من أين أتت تلك الطلقات.

ثم نظر إلى ليوناردو ليطمئنَّ على حالة سليم، ولكن نظرات ليو الدامعة أخبرته بكل شيء، الأسف والعجز والحزن الذين ارتسموا على وجه ليو أخبروه بكل شيء دون نطق أي كلمة، تطلَّع كامل بعيون دامعة نحو سليم الذي كان يجاهد لإخراج كلماته من فمه الذي بدأت تخرج منه الدماء حينما غمغم بصوت خفيض:

- لن تستطيعوا فعل شيء لي يا صديقي، لقد اخترقت الرصاصة رئتيَّ، أنا أعلم ذلك، ما هي إلا لحظات وينتهي كل شيء.

أمسك كامل وجه سليم بكلتا يديه وهو يقول له باكيًا:

- لا تقل ذلك، لم ينتهِ الأمر بعدُ، عائلتك في انتظارك يا سليم، هل تسمعني؟ عائلتك في انتظارك، لقد اجتزتَ كل تلك الصعاب من أجلهم ولن تستسلم الآن، لن أسمح لك بذلك، سوف ترجع إليهم وتحتضن ابنتك وأنت تخبرها بمغامراتك هنا، ابقَ معنا يا سليم، ابقَ معنا.

ابتسم الأخير وهو يقول:

- ليتني أستطيع فعل ذلك يا كامل، ولكن فات الأوان، أنا لست حزينًا على الرحيل ولكن الفراق هو ما يقتلني حقًّا، لم أستطع وداعهم كما كنت أتمنى.

صرخ كامل مرة أخرى في المحاربين:

- لماذا لم تعثروا على ذلك الوغد حتى الآن؟

أخذت عيونهم تمسح المكان أمامهم بجنون في محاولة للعثور على ذلك القناص الذي أطلق تلك الطلقات، ولكنهم لم يستطيعوا اكتشاف مكانه، بعد فترة قال هاريسون في يأس:

- هذا الوغد لن يطلق طلقة أخرى حتى لا يكشف مكانه، سوف يظل حيث هو دون حركة حتى تأتي المساندة التي بالقطع طلبها باللاسلكي.

ثم نظر لكامل وهو يقول ببطء:

- نحن نحتاج إلى إلهاء، بدونه لن نستطيع كشف مكانه، نحتاج أن يطلق طلقة أخرى لتحديد موقعه، حينها فقط سنتمكن من اصطياده.

نظر كامل نحو هاريسون ولم يرد، كان يعلم معنى كلمات هاريسون، لا بد أن يخاطر أحدهم بالركض حتى يقوم القناص بإطلاق رصاصة جديدة قد تحمل الموت لمحارب آخر، كان لا بد أن يقوم أحدهم بالمخاطرة بحياته من أجل نجاة الباقين قبل وصول أي قوات ألمانية لموقعهم؛ لذا فقد أخذ كامل نَفَسًا عميقًا قبل أن يُلْقِي حقيبته التي يحملها وهو يقول:

- أنت محق يا هاريسون، هذا هو الحل الوحيد، سوف أركض في اتجاه الأشجار في الناحية المقابلة لحتِّه على إطلاق الرصاص مرة أخرى، هي فرصة واحدة أيها السادة، لا تضيعوها سُدًى.

رد عليه توماس متنكرًا:

- هل جُنِنْتَ؟ حتمًا هنالك حل آخر، توقف عن التفكير بجنون، ثم لماذا أنت؟

أجابه كامل بهدوء:

- لأنني قائدكم، أنتم من وضعتموني في ذلك المكان وواجبي يحتم عليَّ إرجاعكم سالمين إلى عائلاتكم مهما كلف الأمر، لقد

شرفت بوجودي معكم آيها الرفاق.

لم ينتظر كامل حتى يسمع ما سيقوله المحاربون، كاد يهمُّ بالنهوض لولا تلك اليد الدامية التي أمسكت ذراعه في وهن، كانت يد سليم الشاحبة، سليم الذي قال له:

- لا يا كامل، توماس على حق، هناك حل آخر، تضحيتك لا داعي لها، سوف أموت على أي حال، اجعلني ذلك الإلهاء الذي تحتاجه.

هز كامل رأسه معترضًا، بينما الدموع تتساقط بغزارة من عينيه، ولكن سليم أضاف:

- كامل، استمع لي بعقلك، أنا أحتضر وأنت تعلم ذلك يا صديقي، دع موتي يكون له هدف، هل تظن أن المصادفة هي التي اختارت أن تكون طلقة ذلك القناص من نصيبي؟ هل من المصادفة أن تصيب تلك الطلقة المحارب الوحيد فيكم الذي يحتضر بالفعل من السرطان الذي يسرى بجسده؟ لا يا صديقي، إنها ليست المصادفة، ولكنه القدر العادل الذي يريدني أن أضحي من أجلكم، القدر الذي كان اختياره صائبًا عندما تركتكم تلك الرصاصة واتجهت لي أنا، من فضلك يا كامل، دع موتي يكون هديتي الأخيرة لكم أيها الرفاق، لكن عِدْني أولًا يا كامل، عِدْني أن ترعى عائلتي، ابنتي سوف تفقد أباها؛ لذا فأنا أريدكم جميعًا أن تصبحوا آباءها، أريدها ألا تحزن من فِقْدان الأب؛ لأن خمسة آباء سيهتمون بها من بعدي، عِدْني يا كامل ألا تنس عائلتي.

لم يَرُد كامل، لم يستطع فعل ذلك وهو يبكي كطفل صغير وهو يضم رأس سليم برفق إلى صدره، بعد فترة قال سليم بصوت محشرج:

- توماس، أنت أفضلنا في القنص، لا تخطئ الهدف يا صديقي، لا تجعل موتي يذهب سُدًى.

أومأ توماس برأسه بوجه مليء بالتأثر، وقال وهو يمسح دموعه الصامتة:

- لن أخطئ ذلك الوغد، ثق في ذلك أيها البطل.

ابتسم سليم في ألم وقال:

- الوداع أيها المحاربون.

ثم رفع رأسه لتكون في مرمى نيران القناص الألماني، لتأتي الطلقة أسرع مما تخيل المحاربون، الطلقة التي اخترقت رأس سليم ليسقط أرضًا بلا حركة، وفي نفس اللحظة تقريبًا استطاع توماس معرفة موقع القناص عبر وهج خروج الطلقة من فوهة البندقية الألمانية؛ ليطلق توماس رصاصته ويسود الصمت التام في المنطقة، لم ينتظر كامل ليعلم هل أصابت طلقة توماس هدفها أم لا، فقط انطلق بكل الغضب الذي يعتمل في صدره وركض في اتجاه ذلك القناص وهو يصرخ عاليًا وخلفه بقية المحاربين الذين انطلقوا في إثره، حتى وصل كامل أولًا لموقع ذلك القناص ووجده مستلقيًا على الأرض، بينما الدماء تخرج غزيرة من ذلك الجرح في رقبته وبجواره بندقيته التي قُتِلَ بها سليم، حاول القناص الوصول إلى المسدس في غمده ولكن يد كامل كانت أسرع منه إذ التقط ذلك المسدس وألقاه بعيدًا قبل أن يرقد فوق جسد القناص ويبدأ في كيل اللكمات له في جنون وهو يصرخ، اللكمة تلو الأخرى تلو الأخرى حتى تهاوت رأس القناص، ولكن ذلك لم يوقف كامل الذي استمر في توجيه اللكمات للجثة قبل أن يصل إليه المحاربون ويتكالبون عليه لإبعاده عن جثة القناص قبل أن يبدأ كامل بالهدوء قليلًا ليقول له مانويل:

- كامل، أعلم أن ما تمر به الآن صعب للغاية، صدقني هو كذلك علينا جميعًا، ولكننا بحاجة للرحيل من هذا المكان الآن، ربما تكون تلك الطلقات قد جذبت انتباه الألمان لموقعنا، أو قد يكون ذلك النازي قد قام بالاتصال بقيادته لإرسال فرقة كاملة إلينا، يجب أن نتحرك الآن يا صديقي.

نظر له كامل للحظات قبل أن ينهض ببطء من مكانه، بينما مانويل يَرْبِت على كتفه في أسى، اتجه كامل نحو جثة سليم وقام بتقبيل جبهته قبل أن يهمس في أذنه:

- سوف نتقابل قريبًا يا صديقي، حتى ذلك الحين لا تقلق على عائلتك، إنها عائلتي الآن.

ثم نهض من مكانه في صمت وبدأ في حمل حقيبته وسلاحه قبل أن يسأله ليوناردو:

- ماذا سنفعل الآن؟

جاءته إجابة كامل وهو يجذب أجزاء سلاحه قائلًا في حزم:

- سوف نذيقهم الجحيم الذي يستحقونه الآن.

انطلق كامل وبقية المحاربين في طريقهم وهم يبحثون بجنون عن تلك المخابئ الألمانية، كانوا يركضون في كل مكان حتى وصلوا إلى أول تلك المخابئ، كانت عبارة عن غرفة إسمنتية كبيرة على حافة مرتفع، بينما تخرج من مقدمتها فوهة أحد المدافع التي تدك الشاطئ بالقذائف، ألقى كامل قنبلتين يدويتين داخل المخبأ، وبمجرد انفجارهما اقتحم المكان وهو يوزع طلقات سلاحه بسخاء داخل المخبأ، وكذلك فعل بقية المحاربين حتى قضوا تمامًا على جميع الجنود داخل المكان لتصمت إلى الأبد صوت الجنود والأسلحة في ذلك المخبأ، وينطلقوا في طريقهم نحو مخبأ جديد للنازيين، بقلوب كسيرة وأرواح محطمة وغضب عارم ورغبة كبيرة في الانتقام انطلقوا في طريقهم يقتلون كل ألماني يجدونه في طريقهم، لم يعد الأمر متعلقًا بمال الجائزة ولا رجوعهم سالمين إلى عائلاتهم، أصبح الأمر متعلقًا فقط بالانتقام لسليم، سليم الذي جاء هنا ليموت قبل تحقيق حلمه في الرجوع مرة أخرى وأخيرة لعائلته، قبل أن يحقق حلمه في الاطمئنان على مستقبل عائلته بعد رحيله، من أجل سليم كانوا يقاتلون، من أجله كانوا ينطلقون في طريقهم ويأخذون معهم أرواح العشرات من الجنود الألمانية، ظلوا لساعات على هذا النحو، لم يشعروا كم من الوقت مرَّ عليهم وهم على هذه الحالة، لم يتعبوا ولم يحاولوا نيل قسط من الراحة، كانت راحتهم في قتل النازيين، كان وقودهم هو ذلك الحقد على تلك الحرب التي انتزعت سليم من بينهم في لحظة، لم يدركوا حينها أن ما فعلوه قد أتت ثماره بأن القوات على الشاطئ قد بدأت في بسط سيطرتها على المكان بعد أن خفَّت حدة الهجمات النازية بعد تدمير المحاربين للعديد من مخابئهم

في المرتفعات، لم يدركوا ذلك إلا عندما بدآوا في رؤية تلك الفرقة الأمريكية تقترب منهم، لم يكن سوى الجندي آندرسون وفرقته الذين قابلوه على الشاطئ في بداية اليوم، اتجه ناحيتهم بخطوات سريعة وهو يصيح:

- لقد نجحت خطتك يا سيدي، لقد كنت أبحث عنك طيلة اليوم.

ثم نظر للمحاربين الذين وجدهم ينقصهم واحد منهم ليسأل كامل في حيرة:

- إن قائد الفرقة يريد رؤيتكم، لقد أخبرته بما فعلتموه من أجلنا ويريد رؤيتكم لتكريمكم، ثم إنكم كنتم ستة محاربين، أين هو المحارب السادس يا سيدي؟

عندما لم يتلقَّ إجابة من كامل الذي نظر للأرض في حزن علم أندرسون الإجابة، اقترب من كامل وهو يقول له مواسيًا:

- أنا آسف من أجل خسارتك يا سيدي، لقد خسرنا العديد من الرجال الصالحين اليوم.

رد عليه كامل بصوت حزين:

- لقد فقدتم رجالًا صالحين اليوم، ولكننا فقدنا أصلح مَنْ فينا، قل لقائدك أننا لا نريد ذلك التكريم، لا يوجد شيء يستدعي التكريم والاحتفال، أيُّ تكريم يتحدث عنه وجثث الجنود تملأ الشاطئ!

جلس كامل وبقية المحاربين في حافة ذلك المرتفع الصخري المطل على الشاطئ وهم يشاهدون أمامهم رمال الشاطئ التي امتلأت بآلاف الجنود والآليات العسكرية والدبابات الأمريكية التي يتواصل إنزالها على الشاطئ لبدء المعركة الأكبر والأهم في الحرب كلها، معركة أوفر لورد، معركة استرجاع أوروبا من براثن الذئب الألماني، ذلك الذئب الذي تلقَّى ضربة موجعة اليوم على تلك الرمال، رمال نورماندي، كان اليوم هو اليوم الأول من شهور طويلة ستتوالى فيها الهجمات على القوات النازية المتبقية في أنحاء أوروبا لتطهيرها من النازيين إلى الأبد، كان اليوم هو اليوم الأول في المعركة، اليوم الذي خسر فيه الأمريكيون أكثر من ألفي جندي في بضع ساعات، كان المحاربون يجلسون في صمت وهم يتطلعون للشاطئ بينما يترامى إلى مسامعهم بعض الطلقات النارية الآتية من مكان بعيد، يبدو أن بعض الألمان لم يستسلموا بعدُ، ولكن لم يَبْدُ على المحاربين الاكتراث لصوت المعارك البعيدة، لقد فقدوا الكثير من اهتمامهم بأي شيء مع فقدانهم لرفيقهم، المحارب السادس الذي سيرجعون من دونه للمرة الأولى منذ بدء المعارك، وبينما هم على هذه الحالة من الحزن الذي يعتريهم قال مانويل بأسى:

- ما زلت غير مصدق لما حدث، لقد رحل سليم أمام أعيننا دون أن نملك شيئًا لمساعدته.

ثم نظر لكامل الشارد وسأله:

- هل تظن أنه مات في الحقيقة يا كامل؟ أعني في عالمنا؟ إن جسده الحقيقي لم يمت في الحقيقة؟ أليس كذلك يا كامل؟

ظل كامل صامتًا لبعض الوقت قبل أن يجيب في شرود:

- لقد سمعت الطبيب من قبل، مَنْ يمت هنا يدخل في غيبوبة لا خروج منها في الحقيقة، لقد فقدناه للأبد، يجب أن نبدأ الاعتياد على تلك الفكرة.

رَبَتَ هاريسون على كامل وهو يقول:

- لقد تأخر الوقت، حان الوقت كي ننام حتى نرجع إلى حياتنا، أمامنا يوم حافل غدًا، دعونا نلقي كل ذلك الموت والحزن وراء ظهورنا، فقط دعونا نأمل عندما نرجع إلى حياتنا الحقيقية أن نجد سليم في انتظارنا وهو بخير وصحة كما نتمناه أن يكون، تصبحوا على عالم أفضل أيها الرفاق.

▪ ▪ ▪

لقد وعدني

ببطء فتح المحاربون عيونهم ليجدوا أنفسهم في ذلك المختبر الذي بدأوا منه رحلتهم الطويلة المرهقة والمؤلمة، نظر كلٌّ منهم حوله ليتأكد من رجوع الباقين إلى وعيهم في الوقت الذي انطلق فيه تصفيق الطاقم الموجود معهم لرجوعهم منتصرين، بينما الكاميرات تنقل مباشرة للعالم استيقاظ المحاربين ورجوعهم إلى عالمنا بعد أن أنهوا مهمتهم بنجاح، حتى رئيس الشركة نفسه كان موجودًا في المعمل لمصافحة المحاربين وتهنئتهم، ولكن المحاربين لم يُعِيروا كل ذلك اهتمامًا، نهض كل منهم من مكانه غير عابئ بمحاولات الطاقم لإثنائه عن ذلك، وركضوا باتجاه فراش سليم ليتحلقوا حوله بقلق بالغ وتوتُّر شديدين، كانوا يتمنون بصدق أن يفتح عينيه ويرجع إلى وعيه مثلما فعلوا، كانوا يتمنون أن يكون الطبيب خاطئًا عندما أخبرهم بأن من سيموت في المعركة سيدخل في غيبوبة طويلة في الواقع، غيبوبة لا رجوع منها، كانوا يتمنون رجوع سليم حتى يستطيعوا أن يفرحوا بما حققوه، ولكن عيني سليم المغلقتين أَبَتْ أن تُدْخِلَ الفرحة إلى قلوبهم المتعلقة بمصير رفيقهم، رفيق تلك الرحلة الطويلة التي أنهوها بعدما ضحَّى سليم بنفسه من أجلهم ومن أجل رجوعهم إلى مَنْ فعلوا كل ما فعلوه من أجلهم، اقترب كامل بوجهه من وجه سليم، وهمس في أذنه:

- سليم، هل تسمعني يا صديقي؟ لقد رجعنا سالمين، لقد رجعنا يا صديقي، من فضلك افتح عينيك، عد إلينا يا سليم، إن عائلتك في انتظارك لتفرح معك بما حققته أيها البطل، من فضلك عد إلينا.

كانت دموع كامل الدافئة تسقط في وجنتي سليم الراقد أمامه دون أدني حركة، بينما أيدي المحاربين تلمس برفق جسد رفيقهم، مشهد جعل كل التصفيق والابتهاج الذي كان دائرًا حولهم يتوقف بالتدريج ليحلَّ محله الحزن والألم في قلوب الجميع، استدار كامل وهو يبحث عن دكتور جايمس بعينيه، وأمسك بذراعيه وهو يقول له في لوعة:

- لماذا أنت واقفًا هكذا يا دكتور؟! حاوِلْ إرجاعه إلينا، حاوِلْ إخراجه من تلك الغيبوبة اللعينة.

تطّلع الطبيب لوجه كامل للحظات قبل أن يسأله في ألم:

- لقد تُوُفِّي سليم في المعركة، أليس كذلك؟

رد عليه توماس دون أن ينظر إليه:

- بلى، لقد ضحَّى بحياته حتى نرجع نحن مرة أخرى.

قال الطبيب في أسًى واضح:

- لقد شككت بذلك عندما انخفضت مؤشراته الحيوية فجأة بعد بضع ساعات من دخولكم المعركة، دون سابق إنذار وجدنا ضغط دمه يهبط بسرعة، وبدأنا في عمل الإسعافات اللازمة له وحقن بعض العقاقير لتساعد على رفع ضغط الدم مرة أخرى، ولكن للأسف لم تكن هناك استجابة كبيرة لما فعلناه.

صرخ كامل في وجه الأخير قائلًا:

- حاوِلْ أن تفعل أي شيء، لا تقف هكذا وتخبرنا أنه رحل، لن أسمح بذلك.

اتجه دكتور جايمس نحو سليم وأخرج من جيبه منظارًا صغيرًا وفتح عين سليم بإصبعيه قبل أن يقوم بتوجيه الضوء نحو عين سليم لبعض الوقت، وكذلك فعل للعين الأخرى، بعدها نظر الطبيب إلى المحاربين، وقال:

- أخشى أن الغيبوبة عميقة، عندما مات سليم في المعركة انخفض ضغط دمه مما منع الدم من الوصول إلى المخ، وهذا جعله يدخل في تلك الغيبوبة، لا أحد يستطيع التكهن بالوقت الذي قد يخرج منه من تلك الغيبوبة، هذا إن خرج منها من الأساس.

سأله مانويل بكلمات متقطعة:

- وماذا سيحدث إن لم يخرج من تلك الغيبوبة يا دكتور؟

جاءه الرد الصادم من الطبيب حينما قال:

- حينها سنضطر لفصل الأجهزة عن جسده وإعلان ...

أخذ الطبيب نَفَسًا عميقًا وكأنه يستجمع شجاعته ليكمل جملته، ثم قال:

- إعلان وفاة سليم رسميًّا.

هبطت الكلمة كالصاعقة على المحاربين، رغم أن كل واحد منهم كان يتوقعها ولكنها بمجرد أن قيلت علانية وبصوت عالٍ لم يتمالكوا أنفسهم، كامل انهار على الأرض مستندًا على الجدار خلفه، ومانويل نظر إلى سليم في صمت، وتوماس أمسك رأسه بيديه غير مصدق لما يسمعه، وهاريسون جلس على مقعد مجاور لسليم وأمسك يده في تأثر بالغ، بينما ليوناردو انهمرت منه الدموع ممزوجة بنحيب صامت، ران الصمت العميق في المكان بأَسْرِه سواءً من المحاربين أو الطاقم الموجود بالمكان، صمت لا يُسْمَع فيه إلا نحيب ليوناردو، نحيب يدمي القلوب ويقتل أي فرحة بداخلها، اقترب الميجور باتريك لوكوود من فراش سليم الراقد في سلام، الميجور الذي كان موجودًا منذ البداية ولكن لم يلاحظه المحاربون حتى الآن لانشغالهم بمصيبتهم، وضع يده على كتف كامل وهو يقول له في أسف:

- أشعر بما تشعر به الآن أيها المحارب، لقد فقدت رجالًا من قبل تحت إمرتي، فقدت مجموعة من أعظم وأروع الرجال؛ لذا يمكنني تفهُّم ما تشعر به.

ثم أمسك ذراع كامل ليعاونه على النهوض، كامل الذي نظر للميجور بنظرات تائهة حزينة، بينما الميجور يضيف:

- ولكن وجودكم هنا بجواره لن يفيده كثيرًا، هناك من ينتظرونكم للاطمئنان عليكم، عوائلكم تنتظركم أيها المحاربون، فلتتجهوا

إليهم الآن حتى يطمئنوا عليكم، أما بالنسبة لسليم فأنا متأكد أن دكتور جايمس وفريقه بالكامل سيبذلون كل ما بوسعهم لمساعدته، فلنذهب الآن وندع الطبيب يقوم بعمله، هيا، سوف أرافقكم.

بدأ المحاربون في مغادرة المكان في صمت تام وبخطوات متثاقلة، بينما وجوههم تلتفت بين كل لحظة وأخرى نحو سليم، والأمل يحدوهم أن يفتح عينيه وينظر إليهم وعلى وجهه تلك الابتسامة الطيبة التي لَطالما ارتسمت على وجهه، ولكن للأسف لم يحدث ذلك، ظل سليم كما هو غارقًا في غيبوبته وعالمه الخاص الذي ربما لن يرجع منه مرة أخرى، بدأ المحاربون في المشي في ذلك الممر لمرة أخيرة، تذكروا عندما مشوا فيه في المرة السابقة، عندما كانوا ستة أشقاء، ستة إخوة، ستة رفاق جمعتهم المصادفة، في المرة السابقة كان الستة يمشون وهم يضحكون ويمزحون لنجاتهم من المعركة الخامسة، ولكن شتَّان بينهم آنذاك وبينهم في تلك اللحظة، رغم أنهم انتهوا إلى الأبد من المعارك ووصلوا إلى ما كانوا يَصْبُون إليه، ولكنهم لم يشعروا بأي فرحة أو انتصار، كانوا يمشون منكسرين وكأنهم يمشون في جنازة سليم رفيقهم وأخيهم الذي فقدوه ليرجعوا هم.

وصل المحاربون إلى مكان تجمُّع عائلاتهم لينطلق أليهو إلى حضن مانويل ولتجذب الأذرع المحاربين إلى أحضان العائلات القلقة، احتضن كل محارب عائلته في لهفة مشوبة بالحزن، بشوق ممزوج بالألم، فقط عائلة واحدة ظلت كما هي تنتظر محاربها، فقط عائلة واحدة لم تجد من تحتضنه، بعيون مترقبة وقلق متزايد أخذت فاطيما زوجة سليم في النظر بجنون من حيث أتى المحاربون تبحث عن زوجها، بينما ابنتها تراقب بعيون بريئة والدتها وكأنها تسألها في صمت عن مكان والدها، أنزل كامل برفق ذراعي أخته، واقترب من الميجور الذي قال له:

- لم يعلموا بعدُ ما أصاب سليم، سوف أذهب لإخبارهم بنفسي.

قال له كامل بصوت خفيض:

- سوف آتي معك.

وبينما يهمُّ الرجلان بالاتجاه نحو عائلة سليم استوقفهم مانويل ومعه بقية المحاربين، مانويل الذي قال لكامل:

- سوف نأتي معكم، لقد ضحَّى سليم بحياته من أجلنا جميعًا، يجب أن تعلم عائلته أنهم ليسوا وحدهم، يجب أن يعلموا أننا جميعًا ندين له برجوعنا هنا.

أومأ كامل برأسه في حزن، وبدأ المحاربون في الانطلاق بخطوات بطيئة نحو زوجة سليم التي أدركت وجود خطب ما، أدركت ذلك في وجوه المحاربين الحزينة وفي عيونهم المليئة بالدموع الصامتة، أدركت ذلك دون أن يصلوا إليها وينطقوا حرفًا، أدركت ذلك وهم مقبلون عليها في أسى وألم، أخذت تهز رأسها نفيًا والدموع تتساقط من عيونها البنية حتى قبل أن يخبروها بأي شيء، وبمجرد أن وقف المحاربون قبالتها أخذت تردد في هستيريا:

- لا، لن تقولوها، لن تقولوا: إنه لم يأتِ معكم، لا، سليم آت، سليم قادم لعائلته، هو يعلم أننا نحتاجه، لقد وعدني بذلك، لقد وعدني بأنه سيرجع إلينا، لن أنصت لكم، هل تسمعونني؟ إنه قادم إلينا، لقد وعدني بذلك.

تجمعت عائلات المحاربين حول زوجة سليم وابنتها بعدما أدركوا ما حدث، تجمعت النساء حولها وأخذوا في احتضانها وهي تصرخ بين أذرعتهم وتشنج بصوت عال، حتى أليهو الطفل الصغير احتضن كيرين وهو يبكي لبكائها، كانت الخسارة مفجعة وصادمة للجميع، كانت الخسارة قد أصابت جميع القلوب دون استثناء.

...

في المساء وبعد انتهاء عملية استرجاع ذكريات المعركة للمرة الأخيرة جلس المحاربون في الحديقة وهم يشاهدون غروب الشمس في صمت، كانوا فقط يتطلعون للضوء الهادئ للقرص البرتقالي للشمس وهو يخبو ببطء وينسحب معلنًا انتصار الطبيعة عليه لمرة جديدة في نهاية اليوم، كان أليهو غافيًا على قدمَيْ مانويل وهو يحتضنه برفق كي لا يوقظه، لم تكن هناك كلمات قد تستطيع وصف ما يشعر به هؤلاء الرجال؛ لذا فقد التزموا الصمت حتى أتى إليهم ميجور باتريك ودكتور جايمس في حين قال لهم الأخير:

- هل يمكننا الانضمام إليكم؟

أومأ كامل برأسه موافقًا ليجلس الاثنان برفقة المحاربين، نظر الطبيب للميجور وكأنه يطلب منه بدء الحديث، كان يبدو أن لديهما ما يخشيان قوله مما أثار فضول المحاربين، بعد فترة من التفكير بدأ الميجور بالحديث قائلًا:

- أنا أعتذر عما سأقوله، ولكنني أحمل إليكم بعض الأخبار السيئة.

اتجهت إليه عيون المحاربين وهو يكمل حديثه:

- لقد تحدثت أنا ودكتور جايمس مع الإدارة بخصوص مكافأة سليم، لقد رأينا بأنفسنا ما فعله سليم في المعركة من أجلكم، ومن أجل ذلك طالبنا الإدارة بصرف مكافأته كاملة كما سيتم صرفها لكم، طالبناهم بمليون دولار لعائلته؛ لأنه يستحق ذلك المبلغ بوصوله إلى المعركة الأخيرة، ولولا تضحيته لما كنتم هنا الآن تستمعون إليَّ.

صمت الميجور للحظات قبل أن يضيف في أسى:

- ولكن الإدارة رفضت مطلبنا، أخبرونا أن الشروط كانت واضحة وهي أن المليون دولار سيتم منحها لمن أكمل المعارك الست ورجع سالمًا، لقد تحدثنا كثيرًا معهم وثُرْنَا بل وتشاجرنا ولكنهم صمموا على موقفهم، أنا آسف بحق أيها الرفاق، لقد حاولنا قدر استطاعتنا ولكنهم ...

قاطعه هاريسون في عصبية:

- ولكنهم مجموعة قذرة من الأوغاد الطامعين في مزيد من المال لأنفسهم، لا يكفيهم ما جعلونا نمرُّ به، بل ويريدون أيضًا حرمان عائلة سليم من حقهم الذي اكتسبه والذي يستحقه عن جدارة.

ثم نهض من مكانه وأخذ يلوّح بيديه في الهواء وهو يقول:

- لقد مات سليم من أجلنا، ضحَّى بحياته من أجل أن نكون هنا الآن ومكافأته على ما فعل هو حرمان عائلته من كل شيء، أخبرني أيها الميجور، هل ستستطيع الذهاب إلى زوجته التي ترقد بجواره الآن مع ابنته لتخبرها أن ما فعله زوجها كان بلا طائل؟ هل ستستطيع الذهاب لإخبارها أن تضحية زوجها كانت بلا داعٍ، هل تستطيع فعل ذلك أيها الميجور؟ ربما من الأفضل أن يذهب هؤلاء الأوغاد ليخبروها بذلك.

لم يَرُدَّ الميجور على كلمات هاريسون الغاضبة، ظل صامتًا كما هو لأنه يعلم أن هاريسون محق في كل كلمة قالها، ببطء قال كامل وكأنه لم يسمع كل الحوار الذي دار منذ قليل:

- دكتور جايمس، كيف هي حالة سليم؟ هل تظن أنه سيفيق من تلك الغيبوبة؟

أجابه الطبيب بقوله:

- صدقًا لا أعلم إجابة ذلك السؤال يا كامل، كما أخبرتك من قبلُ فإن غيبوبة سليم عميقة، إن جسده تعامل مع موته في المعركة وكأنه حقيقة، انخفض ضغط دمه وكذلك دقات قلبه، ولولا الأجهزة والعقاقير لكُنَّا أعلنَّا وفاته، ولكنه الآن في غيبوبة لا أحد يعلم هل سيخرج منها أم لا، تذكر أننا لم نشهد ذلك من قبل، الرجل الذي ذهب قبلكم في تجاربنا السابقة عاد بسلام، ولكن سليم كان الأول الذي لم يعد.

كرر كامل سؤاله مرة أخرى:

- لم تُجِبْني، هل تظن أنه سيفيق من تلك الغيبوبة؟

جاءه رد الطبيب:

- لا نعلم ذلك، نحن بحاجة لمعجزة، إن وعي سليم في مكان آخر الآن، مكان مجهول بالنسبة إلينا وربما بالنسبة إليه أيضًا، ربما بطريقة ما يتمكن وعيه من الرجوع إلى عقله مرة أخرى، حينها سيفيق من الغيبوبة، ولكننا لا نعلم كيف يمكن أن يحدث ذلك، أنا آسف يا رفاق، كنت أتمنى أن أحمل إليكم أخبارًا أفضل.

تهالك هاريسون على مقعده في حزن وساد الصمت في المكان، لم يقطعه إلا رنين هاتف الميجور الذي أخذ يتحدث لبضع ثوانٍ قبل أن ينهي المكالمة وهو يقول لكامل:

- لقد وصلوا للتو يا كامل، سوف أذهب لاصطحابهم إلى هنا.

قام الميجور وبدأ في الاتجاه للخارج بخطوات سريعة، بينما يقول كامل لهاريسون:

- حاوِلْ أن تتخلص من عصبيتك يا صديقي؛ لأن هناك من جاء للقائك ولا يجب أن يراك على هذا الحال.

نظر هاريسون لكامل غير فاهم لما يعنيه بكلماته تلك، ولكن لم يمض سوى لحظات حتى فهم ما يقصده كامل حين رأى الميجور متجهًا نحوه وخلفه تلك المرأة الشابة التي تمسك في يديها طفلًا وطفلة يبتسمان إليه في براءة، اتسعت عينا هاريسون غير

مصدق لما يراه في الوقت الذي أفلت الأطفال من يدي أمهم وبدأوا في الركض نحو هاريسون الذي ركض بدوره نحو عائلته الصغيرة فاتحًا ذراعيه لاستقبال أطفاله الصغار؛ ليحتضنهم بقوة وهو يحملهم بين ذراعيه ويغمرهم بالقبلات الحارة الممتزجة بدموع الفرحة والشوق والحنين والأسف، وبينما هو في حضن أبيه قال جاك ببراءة:

- لقد كنت أعلم أنك سترجع إلينا يا أبي، لم يصدق رفاقي في المدرسة أنك من تظهر على التلفاز، لم يصدقوا في البداية أنك محارب الزمن، ولكنني قلت لهم: هذا هو أبي، هذا هو والدي الذي أعرفه، كنت أعلم أنك سترجع لرشدك يا أبي.

ازدادت دموع هاريسون وهو يقبِّل ابنه قبل أن يقول له:

- أنا آسف يا بنيَّ على كل ما فعلته من قبل، سامحني، سامحوني جميعكم.

قام جاك بتقبيل والده على وجنته، بينما تقترب الأم بخطوات بطيئة من هاريسون وتنظر إليه بعيون لائمة وإن كانت لا تخلو من الحب، وتقول له:

- لقد ترددت كثيرًا في مجيئي إلى هنا يا هاري، ولكن صديقك المصري استطاع إقناعي بأن كل شخص يستحق فرصة ثانية إذا شعر من حوله بأنه تغيَّر بالفعل، وأنت تغيرت، لا تبدِّد تلك الفرصة يا هاري، نحن نستحق منك ذلك، عائلتك تستحق.

اقترب هاريسون منها وقام بتقبيل رأسها وهو يقول:

- سوزان، لقد رجعت إليكم كما كنت من قبل وأنتم رجعتم لي، صدقيني لن أفسد الأمر هذه المرة، لقد تعذبت كثيرًا عندما ابتعدت عنكِ وعن أطفالنا، لقد تعلمت الدرس بأقسى طريقة ممكنة، ولن أخذلكم مرة أخرى، أقسم لكِ بذلك.

ارتمت سوزان في حضن هاريسون وهي تحتضنه بقوة ودموعها تبلل قميصه، في الوقت الذي كان كامل ينظر لهذا المشهد مبتسمًا بحزن، استرخى على مقعده وأغلق عينيه وهو يشعر بالرضا عن نفسه رغم ألمه على سليم، مرت دقائق وهو على هذه الحالة قبل أن يجد من يَرْبِتُ على كتفه ليفتح عينيه وينظر لذلك الشخص الذي لم يكن سوى هاريسون، نهض كامل من مقعده وهو يسأل هاريسون:

- هل كُلُّ شيء على ما يرام؟

احتضنه هاريسون بقوة وهو يقول له:

- كل شيء أفضل من ذي قبل، لا أعلم كيف سأستطيع يومًا رد جميل ما فعلته معي، لقد أنقذتني خلال الأيام الماضية عدة مرات، واليوم جعلتني أشعر بالسعادة التي لم أشعر بها منذ سنوات، السعادة التي رحلت عني حاملة معها كل ما له قيمة في حياتي وفي نفسي، ربما قد عرفتك منذ أيام، ولكنني أعلم أنك أصبحت صديقًا وأخًا ورفيقًا لبقية حياتي، شكرًا لك.

كان كامل يحاول بصعوبة كبح مشاعره وهو يقول لهاريسون مبتسمًا:

- أتركت عائلتك لتقول لي هذا الكلام السخيف؟ اذهب إليهم الآن وعوِّضهم عما فاتهم بدونك، لقد قلت لك من قبل أن كلًّا منا يستحق فرصة ثانية، اذهب إلى تلك الفرصة واغتنمها بكل ما أوتيت من قوة، اذهب.

ابتعد هاريسون بخطوات متواثبة لينضمَّ لعائلته في الوقت الذي كانت تلاحقه عيون كامل الدافئة وهو يشعر بأنه أنجز شيئًا ما خلال تلك الرحلة الطويلة، كان يعلم أنه ليس مثاليًّا ولم يفعل ما فعله طوال تلك الرحلة؛ لأنه اسم على مسمى، ولكن لسبب مهم آخر؛ لأنه يعلم عندما تأتي النهاية لن تشكل الأموال أو الشهرة أي فارق لديك، الشيء الوحيد الذي سيجعلك تتقبل نهايتك بهدوء ورضا هو علمك أنك استطعت صنع تغيير للأفضل في حياة الآخرين، أن وجودك في الحياة كان له هدف، أن وجودك في الحياة كان مهمًّا للآخرين أكثر من أهميته لك شخصيًّا؛ لذا فقد كان كامل سعيدًا بما حققه، ذلك الشاب الذي أتى من مصر وهو يبحث عن هدف لحياته ووجده عن طريق مساعدة رفاقه، وجده حينما وجدوا ما يستحق الحياة والنضال من أجله، وجده عندما وجدوا أنفسهم.

المعركة الأخيرة

لن تظل وحيدًا

أتى اليوم الأخير للمحاربين في رحلتهم الطويلة، لا معارك بعد اليوم، لا قتال أو دمار أو حروب أو موت، بعد أن استراح المحاربون في اليوم السابق من عناء المعركة السادسة ومرُّوا بالإجراءات المتبعة بعد كل معركة من استرجاع للذكريات ومقابلات أتى اليوم الأخير، اليوم الذي جاءوا من أجله، يوم تسلُّم الجائزة، ستة ملايين دولار أمريكي سيتم توزيعها على خمسة محاربين نجوا من المعركة السادسة، كان المحاربون في غرفتهم يكملون ارتداء بذلاتهم الرسمية من أجل المؤتمر الصحفي الكبير الذي سيُعْقَد لهم بعد تسليمهم الجوائز الخاصة بهم على الهواء مباشرة أمام أنظار العالم بأَسْرِه، بعدما انتهى كامل من ارتداء ملابسه اتجه نحو فراش سليم الخالي وقال وكأنه يحدِّثه هو شخصيًّا:

- ارجع لنا يا صديقي، لا تترك عائلتك، هم بحاجة إليك، ونحن أيضًا، لا تتركنا.

رَبَتَ توماس على كامل برفق وهو يسأله:

- هل أنت جاهز؟

أومأ كامل برأسه ببطء وهو يغلق أزرار بذلته، بينما كانت عينا مانويل تجوب الغرفة قبل أن يقول:

- سوف أفتقد تلك الغرفة أيها الرفاق، لقد شهدت معرفتي بكم وكم أنا فخور بهذا.

أحاط ليوناردو رقبة مانويل بذراعه وهو يقول له:

- لقد شهدت بداية معرفتنا فقط، ولكنك لن تفلت منا بهذه السهولة، لقد أصبحنا عائلة واحدة الآن ولن نفترق.

ابتسم هاريسون وهو يقول:

- صدقتَ يا رجل، إننا عائلة واحدة الآن، والآن هيا بنا، لا نريد التأخر.

نظر كامل للمحاربين الأربعة في ودٍّ ودفء قبل أن يسألهم بجدية:

- هل ما زلتم موافقين على ما تحدثنا عليه بالأمس يا رفاق؟ إنْ شعر أحدكم بمعارضته لما اتفقنا عليه فليتحدث الآن قبل أن ...

قاطعه توماس قائلًا:

- كامل، ما اتفقنا عليه هو الفعل الصائب الوحيد الذي يجب أن يحدث، كلنا معك أيها القائد.

ابتسم كامل ابتسامة قصيرة وهو يتأهب للخروج من الغرفة وقال:

- حسنًا، هيا بنا أيها المحاربون.

وقبل أن يخرج كامل نظر إلى فراش سليم للحظات قبل أن يطبع قبلة على وسادته وهو يهمس:

- إننا في انتظارك يا صديقي.

وكذلك فعل بقية المحاربين قبل خروجهم، كل منهم قام بتقبيل وسادة سليم قبل أن يبدأوا السير في اتجاه الحديقة الخارجية للمجمع العسكري حيث ينتظرهم مئات من المراسلين الصحفيين وعشرات الكاميرات لتصوير المؤتمر الصحفي، وبمجرد أن بدأ المحاربون في الخروج إلى مكان المؤتمر التمعت عشرات الفلاشات في وجوههم تأخذ صورهم، صور الأبطال الذين رجعوا بسلام بعد انتهاء رحلتهم في برنامج محارب الزمن، صعد المحاربون إلى المنصة حيث كان ينتظرهم رئيس الشركة السيد هاوارد بابتسامته العريضة وبدأ في مصافحة المحاربين بحرارة واحدًا تلو الآخر، بينما عدسات الكاميرات تنقل كل إيماءة وابتسامة وحركة للعالم بأَسْرِه، وبعد أن انتهى من مصافحتهم وقفوا خلفه قبل أن يبدأ هو المؤتمر بقوله:

- في البداية أود أن أرحب بكل من أتى إلى هنا اليوم لمتابعة وتغطية ذلك الحدث التاريخي الهام، لقد قامت شركتنا بإنجاز أعظم من أن ندرك معناه بكل تفاصيله، إنجاز نحن شخصيًّا مبهورين به حتى اللحظة، لقد تمكنت مجموعة من أكبر وأفضل علمائنا على وجه الأرض من اكتشاف وسيلة للرجوع إلى الماضي ورؤية الأحداث التاريخية وقت حدوثها، ذلك الاكتشاف الذي سيغيِّر كل مفاهيمنا لما اعتقدنا أنه ما حدث حقًّا، الآن سنستطيع التأكد من كل ما شككنا به يومًا ما، كل ما أمضينا سنوات وعقود في محاولة كشف ألغازه سيتم معرفته والتأكد منه بضغطة زر تذهب فيها إلى الماضي لتعلم ما حدث حقًّا، كل هذا ما كان له أن يتحقق دون بطولة محاربينا العظام الذين خاطروا بحياتهم ليأتوا لكم بالحقيقة، هؤلاء الأبطال الذين فعلوا ما لم يفعله أحد من قبلهم؛ لذا فأنا في قمة سعادتي اليوم وأنا أقوم بتهنئتهم شخصيًّا ومنحهم ما جاؤوا من أجله، جائزة الستة ملايين دولار للمحاربين الخمسة الذين رجعوا إلينا أبطالًا عقب معركتهم الأخيرة.

ثم تراجع السيد هاوارد ليبدأ في إعطاء الشيكات لكل من المحاربين الخمسة وسط تصفيق مدوٍّ في المكان من الحاضرين الذين أتوا لرؤية تلك اللحظة، وبعد أن انتهى من مهمته توجه مرة أخرى إلى الميكروفون وقال بابتسامته:

- والآن يمكنكم طرح الأسئلة على أبطالنا الخمسة.

وترك المنصة لكامل الذي اتجه بخطوات ثابتة نحو المنصة في الوقت الذي تعالت فيه أسئلة المراسلين قبل أن يشير كامل لأحد المراسلين الذي سأله:

- كيف تشعرون الآن وقد أصبحتم أبطالًا أمام العالم بأَسْرِه؟

اقترب كامل من الميكروفون وبدأ بالإجابة قائلًا:

- لا أظن أننا من نستحق تلك الكلمة، من يستحقها حقًّا راقد في غيبوبة طويلة لا يعلم أحد متى سيخرج منها إن استطاع ذلك،

البطل الحقيقي هو من ضحَّى بحياته من أجل آن نرجع مرة أخرى لعائلاتنا ولمن نحب، في المعركة السادسة لم نكن ستة أبطال ولكننا كنا خمسة محاربين وبطل واحد فقط، ذلك البطل الذي يُدْعَى سليم أكمل، ذلك البطل الذي رحل عمن يحب لنرجع لمن نحب، هذا هو الشخص الوحيد الذي يستحق كل التقدير والاحترام.

- بعد أن رجعتم سيد كامل، ماذا سيفعل كل منكم بالمليون دولار ومئتي ألف؟

نظر كامل نحو المحاربين الذين أومأوا لهم برؤوسهم، كانوا يعلمون ما ينوي قوله وقد اتفقوا عليه في اليوم السابق، أخذ كامل نَفَسًا عميقًا قبل أن يرد بقوله:

- لن يتم تقسيم الستة ملايين على خمسة محاربين، لقد خُضْنَا نحن الستة المعركة الأخيرة ورجعنا منها ستة محاربين لا خمسة كما تزعم الإدارة، سوف يحصل كل منا على مليون دولار، سليم إن كان رحل في نظر الإدارة فهو باقٍ دومًا بالنسبة لنا ولعائلته.

ارتفعت أصوات المراسلين للاستيضاح قبل أن يسأل المراسل مرة أخرى:

- ماذا تقصد بقولك سيد كامل؟

- أقصد إن كانت الإدارة قد رفضت إعطاء الجائزة للبطل الوحيد الحقيقي في صفوفنا، وإن كانت الإدارة ترى أنه لا يستحق ذلك المال فإننا نرى عكس ذلك، إن كانت الإدارة لا تستطيع تقدير تضحية سليم فإننا نقدِّرها ونعلم ما فعله من أجلنا؛ لذا فقد اتفقنا جميعًا على منح عائلة البطل سليم أكمل مليون دولار من أموالنا مع التكفل بكافة مصاريف ابنته حتى بلوغها السن القانونية.

إثر كلمات كامل تحول المكان لسيرك، ارتفعت الأيدي والأسئلة التي تلاحق كامل، بينما عدسات الكاميرات تنقل وجه السيد هاوارد الذي تبدو عليه المفاجأة مما تم إعلانه، كان إعلان المحاربين بمثابة صفعة قوية على وجه الشركة التي تحولت في لحظة واحدة لوحش لا يعرف الرحمة، نظر هاوارد بغضب إلى كامل والمحاربين قبل أن ينصرف بخطوات سريعة من المكان تاركًا كامل يكمل حديثه قائلًا:

- لقد رأيتم المعركة السادسة بأنفسكم، ورأيتم ما وعدنا سليم به، ولن ننكث هذا الوعد، إذا كانت كيرين فقدت أباها فإن لها الآن خمسة آباء يرعونها ويهتمون لأمرها، والآن نحن مضطرون للذهاب، لدينا بطل يستحق أن نكون بجواره.

انطلق المحاربون في طريقهم لغرفة سليم حتى وصلوا إليها ليجدوا دكتور جايمس في انتظارهم، وقد استقبلهم بابتسامة واسعة وهو يقول لكامل:

- لقد رأيت ما حدث، لم يتوقع أحد تلك الضربة التي وجهتها للشركة، لقد أصابهم الجنون بعد أن جعلتهم يبدون كحفنة من الأوغاد عديمي الضمير، والكارثة أنهم لا يستطيعون فعل أي شيء الآن لتغيير ذلك.

أجابه كامل بقوله:

- لم نفعل ذلك من أجل هذا السبب، لقد فعلناه من أجل سليم وعائلته.

أومأ الطبيب رأسه وهو يقول:

- أعلم ذلك، لقد كان الميجور محقًّا عندما أخبرني أنك من ستكون قائدًا على تلك المجموعة، كان يرى ما لم يره غيره.

ابتسم كامل قبل أن يسأل الطبيب:

- كيف هي حالة سليم الآن؟

أجابه:

- ما زالت الحالة كما هي، إن عائلته في الداخل معه الآن، يمكنكم الدخول إليه إذا أردتم.

بخطوات خافتة دخل المحاربون إلى غرفة سليم ليجدوا زوجته تجلس بجواره على المقعد تنتحب في صمت، بينما كيرين غافية على قدميها، بمجرد أن رأت الزوجة كامل قالت له بتأثر:

- لقد علمت ما فعلتموه، لا أعلم كيف أشكركم، لم تكونوا مضطرين لفعل ذلك.

أجابها كامل بابتسامة دافئة:

- لقد وعدنا سليم ولن نحنث بذلك الوعد أبدًا، أعلم أن المال لن يعوضك عنه، ولكنه أقل ما يمكننا فعله من أجل عائلته، لقد خاطر سليم بحياته من أجلكم، ولكنه ضحَّى بحياته من أجلنا.

نزلت دموع الزوجة ساخنة وهي تنظر إلى سليم الغارق في غيبوبته، وقالت:

- فقط كنت أتمنى أن أكون معه حينما تأتي النهاية، كنت أريد الإمساك بيده وإخباره أن كل شيء سيكون على ما يرام، كنت أريد أن يكون وجه عائلته آخر ما يرى قبل أن يقوم بوداعنا.

ساد الصمت في المكان إلا من دموع الزوجة التي أيقظ بكاؤها طفلتها كيرين لتسألها في براءة وهي تفرك عينيها الجميلتين:

- أمي، هل استيقظ أبي بعدُ؟

أجابتها أمها من بين دموعها:

- لا يا حبيبتي، ولكننا هنا بجواره حتى يستيقظ.

نظرت كيرين إلى والدها قبل أن تترك حضن أمها الدافئ وتصعد على فراش أبيها وتنام بجواره وهي تحتضنه وتقول له:

- أبي، لماذا لا تصحو؟ لقد نِمْتَ كثيرًا، أريدك أن تلعب معي، أبي، من فضلك استيقظ، إن أمي تبكي، استيقظ حتى تتوقف عن البكاء.

ثم نظرت لوالدتها وهي تسألها في براءة:

- لماذا أبي لا يردُّ عليَّ يا أمي؟ هل هو غاضب مني؟

لم تستطع الأم الإجابة على طفلتها، فقط دفنت وجهها بين راحتيها وأكملت بكاءها لتبدأ الصغيرة في البكاء هي الأخرى لبكاء أمها، كانت قطرات دموع كيرين تسقط على وجنتي سليم وهي تقول له:

- هل أنت غاضب مني يا أبي؟ إذن استيقظ حتى أقوم بمصالحتك، من فضلك يا أبي استيقظ.

حينها بدأت عينا سليم في التفتح ببطء شديد كوردة برية في الصباح الباكر.

نهاية البداية

تمت